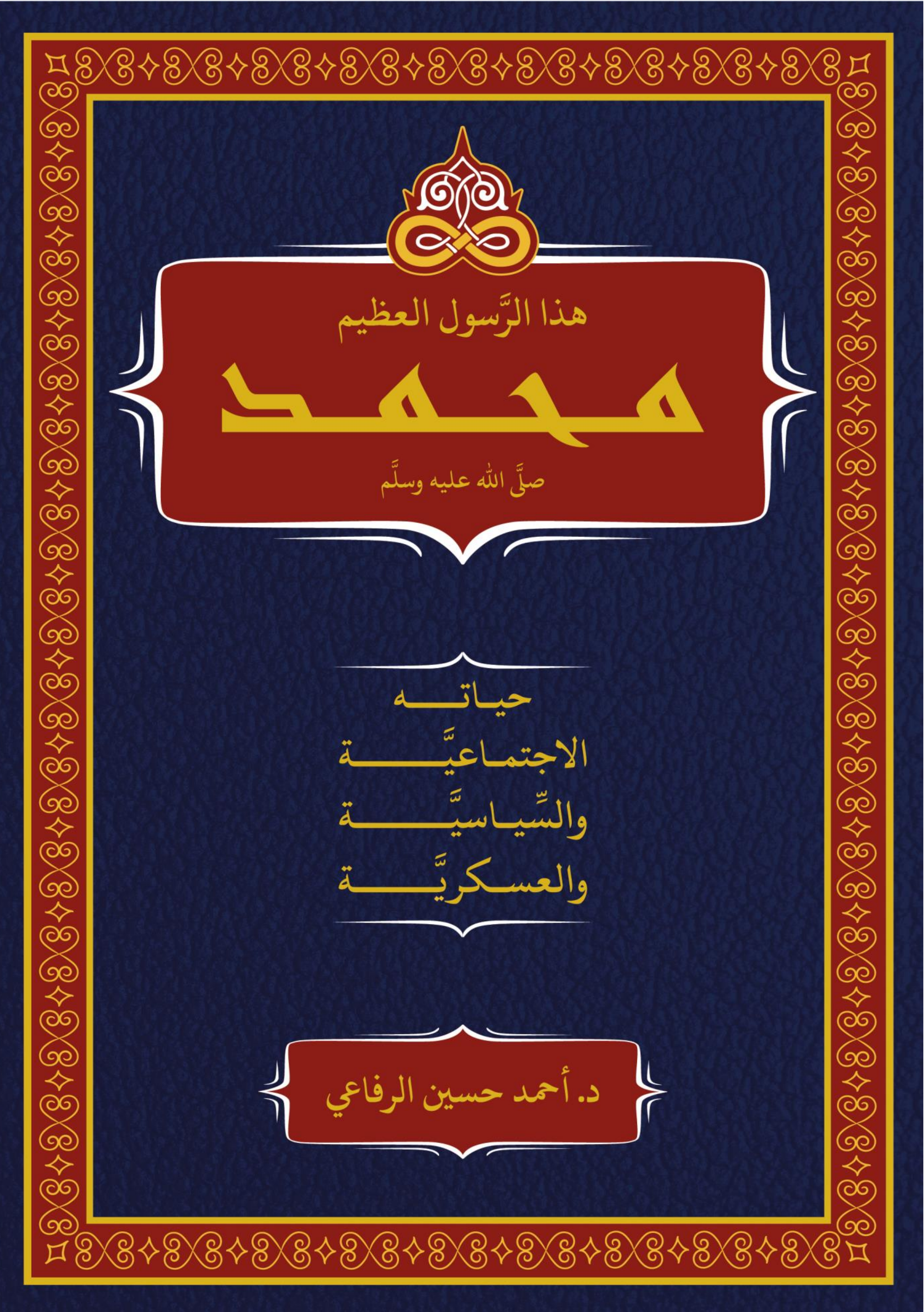
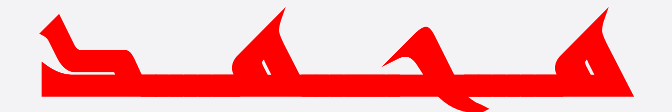

هذا الرَّسول العظيم
محمد
صلَّى الله عليه وسلَّم
حياته
الاجتماعيَّة
والسِّياسيَّة
والعسكريَّة
د. أحمد حسين الرفاعي

هذا الرسول العظيم



محمد

حياتـــه

الاجتماعيـــــــة

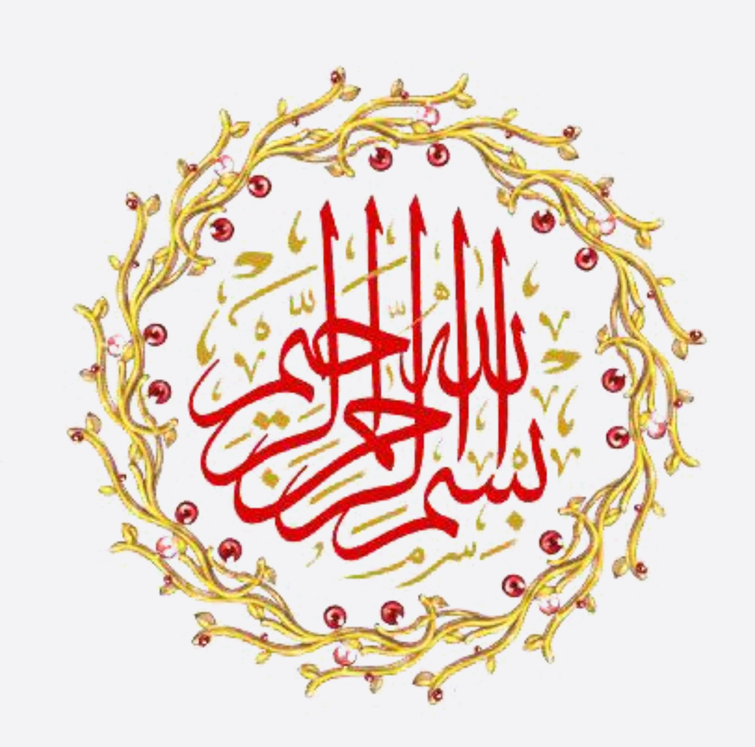
والسياسيـــــــة

والعسكريـــــة

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

١٤٤٥هـ/٢٠٢٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، الحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا.

الحديث عن النبيّ محمد ﷺ لا يزال متصلا منذ ظهوره حتى اليوم، تحدّث عنه المؤرخون المسلمون وغيرهم، وتناقلته الأجيال من جميع الأمم والشعوب، رواية وكتابة، وسُجلت سيرته في كتب كثيرة مختصرة ومطولة، وسوف تظل الكتابة فيه متواصلة إلى نهاية حياة البشر في هذا الكون.

احتوى هذا الكتاب حقائق تاريخية وتأملات لحوادث عاشها النبيّ ﷺ وعاشها أصحابه، اقترنت بإيضاحات عن أزمان وأماكن؛ وكأن القارئ يعيش في زمن ومكان هذه الأحداث التى وقعت فيها. فحياة النبيّ محمد الاجتماعية والسياسية والعسكرية؛ من أبرز المواد التعليمية في المدارس والجامعات العالمية للأجيال المسلمة وغير المسلمة؛ من مختلف الشعوب.

لقد تمّت صياغة هذا الكتاب في سيرة النبيّ محمد ﷺ بانتقاء ودمج أصحّ الشواهد والفوائد من أفضل وأشمل الكتب في سيرة هذا النبيّ العظيم، أهمها:

كتاب الرحيق المختوم: للعلامة المؤرخ المعاصر صفيّ الرحمن المباركفوري المتوفي سنة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، حاز هذا الكتاب على وصف أفضل كتاب في سيرة الرسول الكريم على مستوى العالم، وذلك عام ١٩٨٠م. عدد الصفحات ٥١٢.

كتاب **(عبقرية محمد)** للكاتب والمؤرخ المعاصر عباس محمود العقاد المتوفي عام ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م. عدد الصفحات ١٤٨. وفي هذين الكتابين جهد عظيم.

كتابي الجديد هذا؛ هو عصارة ما جاء فيهما بأسلوب واضح وسهل، بالإضافة إلى مصادر أخرى استُخدمت للتوثيق أهمها:

سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، توفي سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة:الثانية، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م. عدد الأجزاء: ٢. عدد الصفحات ١٤٦٧.

سيرة ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، محمد بن إسحاق بن يسار المدني؛ توفي سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م؛ تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر- بيروت الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م. عدد الصفحات: ٣٨١.

السير لأبي إسحاق الفزاري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري؛ توفي سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٤م؛ تحقيق: فاروق حمادة. الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٧. عدد الصفحات: ٢٨٤.

كتاب: «**لماذا يكرهونه**» موقف الغرب من نبيّ الإسلام ﷺ، للدكتور باسم خفاجي، استشاري دولي في الإدارة والتعليم، وباحث في العلاقات الدولية، ومرشح لانتخابات الرئاسة المصرية عام ٢٠١٢. إصدار مجلة البيان، ٢٠٠٦، عدد الصفحات ١٢٥.

لقد تمّت قراءة آلاف الصفحات؛ والتقارير والأبحاث المعاصرة؛ للخروج بهذا الكتاب.

أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، أنتفع به أجرا عظيما وعلما نافعا في حياتي وبعد موتي.

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

لماذا يكرهون النبيّ محمداً ﷺ؟

أكاذيب كذبوها على هذا النبيّ ﷺ،

يصرّون على أن تصل صورته مشوّهه،

تراهم يبالغون فى السبّ والانتقاص من مكانته وهيبته،

تراهم يبالغون بالمجاهرة في شتمه والنيل منه؛ والكذب عليه.

افتراءات وصور مرسومه بأيدى ماكرة نجسه خبيثه؛

اخترعوا له الأكاذيب.

أحدثَ انقلابا دينيا

يكرهون هذا النبيّ أولا، لأنه عربيّ؛ اختاره الله رسولا من السماء.

كانوا ينتظرونه من بني إسرائيل، يهوديا أو نصرانيا.

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أحدث انقلابا دينيا في عالمهم؛

كانت راية الصليب تعلو قصورا وقلاعا وحصونا في إمبراطورياتهم؛ تمتدّ شرقا وغربا.

كانت أبرز بلادهم: دمشق والاسكندرية وإسطنبول؛

كانت ولايات وإمارات؛ ومراكز هامة رومانية ويونانية وفارسية؛

يعلوها الصليب؛ وتشتعل فيها نيران المجوس؛

هي الآن يعلوها مساجد وأصوات الأذان!

هذا النبيّ نهض قويا يجمع البشرية كلها على كلمة واحدة؛

تصدح وتملأ الفضاء: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أحدثَ انقلابا عسكريا

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أحدثَ انقلابا عسكريا في قوى العالم؛

أطاح بأكبر إمبراطوريتين كانتا تسيطر على الأرض والبحر؛

وهزم أكبر الجيوش الممتدة فيها،

هزم كسرى وقيصر، كانا أكبر ملوك الأرض في ذلك الزمان.

سيطر على بلاد كثيرة؛ وممالك كانت تحت سيطرتهم وسيادتهم،

كانوا ملوكا عليها، هزمهم الرسول محمد؛ وهي الآن في مُلك دينه ومُلك أتباعه؛

في مدة زمنية لم تتجاوز عشر سنوات.

لم يتّخذ لنفسه لقبا؛ لا إمبراطورا أو ملكا أو أميرا أو وزيرا؛

لم يضع على أكتافه نياشين، ولا علامات تشير إلى رتبة عسكرية!

لم يضع على رأسه تاجا ولا على جبينه نجمة، ثم صار أشهر النجوم في التاريخ.

أحدثَ انقلابا اقتصاديا

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أحدثَ انقلابا اقتصاديا وتجاريا أضعف تلك الامبراطوريات؛

سيطر على الأرض في كل ناحية، والطرق التجارية والممرات البحرية؛

فرض على الأغنياء في مجتمعه دفع الأموال للفقراء؛

جمع الغنائم الكثيرة من الأعداء؛ ومنحها لجيشه،

مع بقائه فقيرا دون أن يمتلك منها مثل ما ملكوا؛

حارب قطاع الطرق واللصوص، وألغى نظام الرّبا البغيض في المجتمع.

أحدثَ انقلابا أخلاقيا

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أحدثَ انقلابا على الانحلال الخلُقي والشهوات،

قلب المفاهيم والأفكار رأساً على عقب،

سواء في نفوس البشر، وفي قلوبهم، أو في أرواحهم، وفي عقولهم.

حدد قيودا في العلاقات الجنسية، وقيودا في العلاقات الاجتماعية،

مَنَع شرب الخمر، ومَنَع الزنا، والقمار، وشهوات النفس البغيضة.

أقام إمبراطورية عظمى

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أقام إمبراطورية عظمى؛ في بضع سنوات؛

ابتلعت كل الإمبراطوريات العظمى والصغرى في ذلك الزمان؛

استمرّت هذه الإمبراطورية تملك قارات العالم مئات السنين بكل قوة دون توقّف.

انقلاب تام في معالم الحياة

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه أحدثَ أعظم حدث في تاريخ العالم،

أحدثَ تحولا خطيرا في حياة المجتمعات الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية،

أدّى إلي انقلاب تام في معالم هذه الحياة،

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه بدّل نفسية الإنسان العربي في الجزيرة العربية

وشخصيته ونمط تفكيره.

كان العرب في زمانه رعاة غنم، فصاروا قادة أمم.

قضى على أحلام اليهود

يكرهون هذا النبيّ؛ لأنه قضى على أحلام اليهود في الجزيرة العربية والعالم،

كانوا أهل كتاب؛ وأصحاب هيبة على العرب الوثنيين؛

كانوا أصحاب الثروات والمال والذهب والقصور، والسلاح والحصون والقلاع،

وكانوا أصحاب غرور؛ وعزّ وفخر على جميع الأمم حولهم؛

كانوا ينتظرون مئات السنين؛

رسولا من بني إسرائيل؛ يقيمون به مملكة إسرائيل العظمى.

ظهر النبيّ محمد، فأطاح بهم، وأطاح بأحلامهم، وشتتهم في بقاع الأرض.

لماذا يهدفون إلى إحباط تعظيم هذا الرسول؟

هم يهدفون حقا إلى إحباط تعظيم هذا الرسول في نفوس أتباعه.

هم يهدفون إلى عدم طاعتهم له، وعدم الاقتداء به، ثم التخلي عن تعاليمه؛

نعم؛ يهدفون إلى التخلي عن تعاليمه؛ وأقواله وأفعاله.

يهدفون إلى التخلي عن توجيهاته التي أرشدنا إليها في العبادات والمعاملات؛

نحن إن لم نعظّم رسولَنا؛ فإننا لن نعظّم أحكامنا في ديننا،

نحن إن فعلنا ذلك، تعطلت شرائع الإسلام.

يدّعون الحريات للشعوب

هؤلاء يدّعون الحريات للشعوب؛

ويدّعون ديمقراطية لها؛ ولكن وفق مقاييسهم فقط!!

من يريد أن يمارس ديمقراطيتهم، عليه أن يتخلى عن إسلامه؛

ويرضى بكل قوانينهم التي يُبيحون بها الجرائم التي أرادوا.

فما دامت الديمقراطية والانتخابات على مقاييسهم.

على المسلم ألا يتوقع منهم انتخابات صادقة ونزيهة؛ ومعبرة عن إرادة الأمة؛

وإلا... فسوف يكون مصيره مثل مصير جبهة الإنقاذ في الجزائر،

أو مصير حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في فلسطين،

أو مصير الزعيم المصري محمد مرسي،

أو مصير الحركات الإسلامية والأحرار الحقيقين في بلادهم.

ماذا لو حدث العكس؟

تُرى... ماذا سيكون موقف الغرب أو الشرق؛ لو حدث العكس؛

ماذا لو حدث انقلاب على دولة غير إسلامية؛ وهي تحكم بلاد المسلمين؟

أو دولة نصرانية أو وثنية جاءت بالقوة؛ أو من غير انتخابات حقيقية؛

هل سيسكتون على انقلاب عليها؟

يبكي ويقول: ربّي أمّتي أمّتي

يندهش المسلم جدا؛ حينما يسمع أحدا يكره أو يشتم رسول الله!

لماذ يندهش المسلم؟

لان المسلم يعرف هذا الرسول حق المعرفه؛

إنه الرسول ﷺ الذى سهر ليلة يبكى ويقول: ربّي أمّتي أمّتي.

إنه الرسول ﷺ الذى كلما قرأتَ فى سيرته ازداد حبُّه فى قلبك،

إنه الرسول ﷺ الذى كلما قرأتَ فى سيرته ازداد تعظيمُه فى عقلك.

بطولة محمد إنّما هي بطولة نساء ودماء!!

ناس كثيرون شتموا هذا النبيّ في هذا العالم؛

قالوا: إن بطولة محمد إنّما هي بطولة نساء!!

زواج ونكاح؛ وسيف ودماء!

ولما عرفوه؛ جعلوه من أعظم المخلوقات!!

صُعقوا من سيرته وبطولاته وشخصيته!

فما بالنا نحن العرب، نبحث عن تمجيد فلاسفة الغرب للنبيّ محمد!؟

نبحث عن تمجيد الإنجليزي (توماس كارليل) أو تمجيد المفكر الألماني (كارل هيرنش) أو الكندي (زويمر) أو (جولد تسيهر)، أو الأمريكي (سنكس) أو الفرنسي (ساديو لويس).

وهم كُتّاب لا يفهمون محمدا كما نفهمه،

ولا يعرفون الإسلام كما نعرفه؟

ثم ما بالنا نحن كتّاب العرب؟

لا نضع كتابًا لقرّاء العربية بلهجة معاصرة جديدة؟

كتاب: لماذا يكرهونه؟

كتاب للدكتور (باسم خفاجي)، اخترنا منه فقرات تدل على المقصود منه، والذي كشف بجلاء عن موقف الغرب على مر التاريخ وصولا إلى واقعنا المعاصر؛ وقد ترسبت في عقولهم رواسب التزييف ضدّ النبيّ محمد ﷺ على المستوى الديني والسياسي والإعلامي والفكري. فهذا الكاتب الأمريكي (جورج بوش) جدّ رئيس

أمريكي سابق، يدّعي في كتابه: (حياة محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين): أن العرب مجرد أعراق منحطة ومتوحشة يستحقون الإبادة كما حدث للهنود الحمر. ويقول: "ما لم يتم تدمير إمبراطورية المسلمين؛ فلن يتمجّد الربّ بعودة اليهود إلى وطن آبائهم وأجدادهم". ثم نجد أن المناهج التربوية الفرنسية تقدّم العرب والمسلمين باعتبارهم المتمرّدين والمخرّبين والسفّاحين.

تمثال للنبيّ محمد !!

كيف يُفسّر أن يوضع في محراب كنيسة أوروبية في عاصمة الاتحاد الأوروبي تمثال للنبيّ محمد وهو مطروح أرضا تدوسه أقدام ملائكة تعلن انتصار المسيحية على الإسلام!! إن الصورة المشوهة عن الإسلام في الغرب لم تكن بسبب جهل أوروبا به، ولكنها في الواقع نتيجة معرفة حقيقية بالإسلام غُلفت بالحقد والخوف من تنامي هذا الدين على أوروبا نفسها وعلى العالم أجمع.

ما دور المفكرين الأوروبيين؟

أغلب هؤلاء الكتّاب والمفكرين يكرهون النبيّ محمدا، وساهموا في تحويل الإسلام إلى دين كريه بغيض لدى العامة؛ لكي تحتفظ أوروبا بابتعادها عن الوقوع تحت سيطرته الأخلاقية والفكرية الآسرة للعقول والقلوب. كان لابد من تكوين صورة ذهنية بشعة عن الإسلام وعن نبيّ الإسلام؛ للصدّ عنه والتنفير منه. وهم يعرفون هذا النبيّ تماما، يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، لكنهم كتموا، كما قال الله

تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]. فلا شك أنهم يعرفون هذا النبيّ، ولكنهم كتموا قديما وحديثا، وهم يهاجمونه.

الإسلام ينمو على حساب أنصار الكنيسة

يكرهون النبيّ محمدا ﷺ، لأن أحد المشكلات الحقيقة التي تعاني منها الكنيسة الأوروبية منذ ظهور الإسلام؛ هو عدم قدرة هذه الكنيسة على إيقاف نمو الإسلام. فالإسلام ينمو في كل الظروف، ومع كل الضغوط، وتحت كل الظروف الاجتماعية المختلفة، وفي كل العصور، وهو بالتأكيد ينمو على حساب أنصار تلك الكنيسة التي تهتم اهتماما كبيرا بالتنصير، ويستهدف نفس المجتمعات التي تحاول الكنيسة السيطرة عليها، وتحويلها إلى دينها.

الإسلام مصدر إزعاج!!

كثير من القادة السياسيين والإعلاميين والفكريين في العالم؛ ممن ينتمون إلى التيار الكنسي أو اللاديني أو العلماني؛ يشغلهم آثار الدين الإسلامي الذي جاء به النبيّ محمد على المجتمعات الإنسانية؛ حيث يبرز الإسلام كمصدر إزعاج رئيسي، لأنه قوة محركة ومؤثرة، وتدفع معتنقيه إلى رفض الهيمنة ومقاومة مشروعات الاستعمار الفكري والاقتصادي بنفس حدّة وصلابة مقاومة الاستعمار المسلح. وهنا تبرز ضرورة ملحّة من أجل تقليص تأثير الإسلام على العالم المعاصر. إنه تحالف لم يحدث في التاريخ من قبل بهذه الدرجة من الشمولية.

يريدوننا أن نبغض محمدا

يكرهون النبيّ محمدا، ويريدوننا أن نبغض محمدا؛ وليتهم في الغرب يعرفون ماذا يعني محمدا؛ وكم هو جميل أن تحبّ محمدا، الغرب يريد أن يطوّعنا أن نقبل أن يُهان أغلى من نحب، وأن نمتنع عن إظهار العاطفة، وبالتالي سنمتنع تلقائيا عن بغض أفعالهم. قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءٓ﴾ [النساء:٨٩]. فكأن حياة النبيّ محمد تمثل تلك الشوكة التي توخز الغرب في جنباته!

رصيد فكري ونفسي

يكرهون النبيّ محمد ﷺ لأنه أحد أسباب مشكلات العداء التاريخي مع الغرب، فالنبيّ محمد جاء بنظام سياسي وفكري متكامل ينازع الغرب في القضايا الأساسية، وكذلك في طرق التنظيم والإدارة وسياسة المجتمعات، وأخيرا في نمط العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، وبين المجتمعات المختلفة. إنه ببساطة نظام متكامل تجاوز النظام الغربي ولا يلتقي معه؛ إنما يقدم بديلا قويا وخطيرا له. كما يرى المفكرون الغربيون أن رسالة محمد، وأفكار محمد، ودعوة محمد، تقدم الرصيد الفكري والنفسي للمسلم للانتصار على نفسه؛ وعدم التسليم لشهوات الحياة وإغراءاتها التي يتفنن الغرب في تقديمها لمجتمعاته. هذا الرصيد الفكري والنفسي كان جدارا قويا يمنع الهيمنة الغربية على الحياة الإسلامية والعربية من قِبَل الغرب.

إلى متى يكرهون النبيّ محمدا؟

بما أن دعوة النبيّ ﷺ باقية ومتجددة ومستمرة، فمن الطبيعي أن يكون عدو هذا النبيّ ممتد أيضا ومستمر. ومن يتابع تاريخ الإسلام، يلاحظ أن عداء الكنيسة

الأوروبية للنبيّ محمد استمر منذ بداية الدعوة؛ هذا ما أكده الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢] وأن هذا العداء والافتراء متجدّد؛ ويزداد كراهية وعنصرية؛ حتى مع اهتمام المسلمين بالحوار والتعايش مع الآخرين.

فِكْرُ النبيّ محمد ﷺ لا يتفق مع هؤلاء؟

الفكر في الأديان الأخرى؛ وعند شعوب البلاد الأوروبية؛ تأسس على المادية التي تنفي الإله من الوجود؛ وتجعل الإنسان هو محور الكون، ولا تقبل بحياة تؤطّرها شريعة أنبياء أو سماء، ولا تربط الإنسان بخالقه؛ ولا تنظم علاقته مع الإنسان؛ ولا تضع له تصورا واضحا عن الحياة التي يعيش فيها؛ ولا مع العالم الآخر التي سينتقل إليه، وما ينتظره بعد ذلك من حساب بعد الموت. وهذا ما لا يتفق ولا يتلاءم مع رسالة النبيّ محمد ﷺ.

استهداف شخص رسول الله

كان استهداف السياسة الغربية للمسلمين في شخص رسول الله ﷺ؛ بهدف أن يحوّلوا المسلمين عن دينهم، فلم تنفع حملات الاستشراق ولا التضليل والتزيف، ولا زرع الأتباع المتشبّعين بالفكر الغربي داخل الأوطان العربية والإسلامية، ولا إبادة هذه الشعوب بالقنابل والأسلحة المتطورة، كل هذه الخطط قد ثبت فشلها. فرسول الله شكّل للفكر الغربي المسيطر الآن مشكلة كبيرة؛ لأن التعاليم التي جاء بها رسول الله تقف في وجه كل النظريات والمخططات التي يمارسها لتحقيق أهدافه ورغباته.

لقد زرع محمد ﷺ في قلوب أتباعه شيئا عجز الغرب عن إدراكه حتى الآن. لقد أخرج رسول الله الإنسان من طاعة شهواته إلى طاعة الله؛ ومن اتّباع آيديولوجيات مستوردة من الغرب إلى اتّباع تعاليم السماء. ثمّ نجد رسوما في بعض كنائس أوروبا؛ منها لوحات للنبيّ محمد وهو يُعذَّب في نار جهنم! فكيف تبقى هذه اللوحات خاضعة لسلطة الفاتيكان؟ ولم يحاول تغيير ذلك أحد من دعاة التسامح والحوار طوال عشرات السنين، وحتى الآن؟

ابتكار أساليب جهنمية

لم تكتف الدعاية الغربية باستغلال وسائل الاتصال الجماهيري المألوفة من صحافة وتلفاز، وإذاعة وسينما ومسرح، وانترنت؛ لتشويه صورة النبيّ ﷺ والإسلام في أعين وفكر الرأي العام العالمي، بل إلى ابتكار أساليب جهنمية لا تكاد تخطر على بال؛ لإلحاق الإساءة بالعرب والمسلمين. لا نستغرب بعد ذلك أن يحارب هؤلاء حجاب المرأة المسلمة في فرنسا؛ أو لحية شاب مسلم، أو لباس تقليدي يدل على سمة إسلامية.

منحرف وشاذّ يميل للأطفال!!

ثم بلغ الافتراء والكذب إلى ذروته بحق رسولنا العظيم محمد ﷺ؛ حين وصفه القسّ الإنجيلي (روبرت سون) المعروف بدعمه المطلق للكيان الصهيوني، قال: كان مجرد متطرف ذو عيون متوحشة تتحرك عبثا من الجنون. كما أن (جيري فاينز) في الاجتماع السنوي للكنيسة المعمدانية الذي عُقد في مدينة (سانت لويس) الأمريكية، وصف النبيّ محمدا بقوله: كان شاذّاً يميل للأطفال!! وقال (جيمي سوجارت)

القس الأمريكي الذي عُرف من خلال مناظرته الشهيرة مع الداعية المسلم أحمد ديدات: محمد كان شاذا جنسيا، ضالا ومنحرفا. هذا ليس عجيبا على المجتمعات المناكفة للأنبياء والرسل في جميع العصور. كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

لماذا كلّ هذا العداء؟!

قادة الغرب أدركوا تمام الإدراك؛ بأن الخطر الحقيقي الذي ينتظرهم كامنٌ في نظام الإسلام؛ وفي قدرته على الإقناع والإخضاع، وفي حيويته المتجددة على مرّ الزمان، فهو الصخرة الصلدة في وجه الاستعمار الأوربي المتربّص بالبلاد العربية والإسلامية للسيطرة على أرضها وسمائها، وعلى ثرواتها الطبيعية العظيمة، أهمها آبار البترول، ومصادر المياه، والمعادن النادرة الثمينة، تلك التي نراها الآن تحت سيطرة الحكومات العربية والإسلامية، لكن على أرض الواقع فلا. فإذا استيقظ المسلمون من غفلتهم وضعفهم وسيطروا على ثروات بلادهم؛ أمكن أن يصبحوا لعنة على عالم الغرب المتسلط كله. كما أنّ الإسلام هو القوة التي وقفت سداً منيعاً في وجه انتشار المسيحية في البلاد التي كانت خاضعة سابقا للنصرانية.

هذه النظرة لم تختلف في العصر الحديث

إذا عدنا إلى أوائل القرن التاسع عشر والقرن العشرين؛ فإننا نجد عددا من المستشرقين أساءوا إلى الرّسول محمّد ﷺ، فمنهم من اتّهمه بسرقة ما جاء في التوراة والإنجيل؛ كأبراهام جيجر، وشفيلد، وسيدرسكي، وريتشارد بل. ولا زال الطعن في رسول الإسلام مستمرا إلى اليوم؛ فقد ذكر القس الصهيوني الأمريكي (جيري

فالويل) صاحب البرنامج التلفزيوني الذي يصل إلى أكثر من ١٠ مليون منزل، قال: المسيح وضع مثالا للحب كما فعل موسى؛ أما محمد فإنه وضع مثالا عكسيا؛ كان إرهابياً، وكان لصا وقاطع طريق!!

الشاعر الإيطالي (دانتي) رأى النبيّ محمد في الجحيم !!

كذب وافتراء أخر للحثّ على كراهية رسولنا الكريم محمد ﷺ، ذكره الشاعر الإيطالي (دانتي أليغيري) في الكوميديا الإلهية التي تُعدّ أشهر ملاحم الأدب المسيحي على المستوى العالمي؛ تُرجمت إلى كثير من اللغات، أكّد هذه الكراهية بجلاء، وذكر في روايته التي تضمنت فلسفة القرون الوسطى كما تطورت في الكنيسة الغربية (الكاثوليكية الرومانية)؛ أنه رأى النبيّ محمدا في الجحيم.

زوّروا التاريخ و الحقائق

إن فلاسفة النهضة الحديثة في أوروبا لم يَسلموا من التأثر بفكر القسيسين والرهبان والمبشرين، والمستشرقين الذين زوّروا تاريخ الإسلام؛ وشوّهوا الحقائق حول شخصية الرسول محمد ﷺ، والرسالة التي يحملها للعالم. يؤكد ذلك ما ورد في كتاب (الغرب في العصور الوسطى) في كلمة المؤرخ والكاتب الفرنسي (إرينست رينان) الذي قال: في كتابه (دراسات في تاريخ الأديان): "لقد كتب المسيحيون تاريخًا غريبًا عن محمد؛ إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادّعوا أن محمدًا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له. وقد وصفه (دانتي) بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده وعند غيره مرادفًا لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كتّاب العصور الوسطى تارة ساحرًا، وتارة أخرى فاجرًا

شنيعًا ولصًا يسرق الإبل، وقسّيسا لم يفلح أن يكون في صفة (البابا)؛ فاخترع دينًا جديدًا اسمه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزًا لكل الموبقات وموضوعًا لكل الحكايات البغيضة."

الحرب على الإرهاب!!

الإرهاب حسب المفهوم الأمريكي الأوروبي الصهيوني هو الإسلام؛ وجميع الحركات التي تدافع عن الإسلام أرضه وسمائه، وكذلك الجمعيات الخيرية التي تقدم المساعدات لذوي الشهداء والأسرى في السجون الإسرائيلية في فلسطين؛ هي الأخرى تُعتبر إرهابية في نظر الإدارة الأمريكية الصهيونية، وفي نظر الصليبية العالمية.

الإسلام وكيف يخططون لتدميره؟

قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد حاول الصليبيون تدمير الإسلام في الحروب الصليبية الرهيبة. ففشلت جيوشهم التي هاجمت بلاد الإسلام بالملايين، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا؛ ثم ليعودوا إلينا بجيوش حديثة، وفكر جديد؛ وهدفهم تدمير الإسلام من جديد باتهام الجمعيات الخيرية بأنها تموّل الإرهاب، واتهام المناهج التعليمية بالإرهاب، ومدارس تحفيظ القرآن بالإرهاب، وارتداء الحجاب بالإرهاب، والدفاع عن الأوطان بالإرهاب، والدفاع عن الأبناء بالإرهاب، والدفاع عن ثروات البلاد بالإرهاب...!!

تبرئة مقام هذا الرسول

واليوم؛ ونحن نضع كتابنا هذا؛ كان لا بدّ أن نستحضر في الذهن تبرئة مقام هذا الرسول العظيم من تلك الأقاويل التي يلغط بها إما عن جهل وإما عن دهاء وإما عن سوء نية، وتمّ التركيز على موضوعات أهمها: مواقف محمد ﷺ في حياته الاجتماعية والسياسية والعسكرية، حيث كانت هذه الموضوعات مثار اللغط في كل ما ردّده السفهاء والدهاة في أمر هذا الرسول.

ماذا يدّعي المشككون؟!

يدّعي المشككون أن محمدا ﷺ ليس نبيا، ولا يصلح أن يكون نبيا، ويستدلون على ذلك بأن حياته ليس فيها ما يلفت النظر إذا ما قيست بالمقاييس الحديثة! ذلك أنه عاش حياة عادية ساذجة طيلة أربعين سنة قبل البعثة! كما يزعمون أنه لم يكن سويا نفسيا؛ وذاك أنه كان يتصف بصفات غير شريفة؛ كالغرور والطمع والمكر والخداع. ويهدفون من وراء ذلك إلى إنكار نبوته بهذا الادعاء.

كيف نردّ على هذه الاتهامات؟

أما الردّ على هؤلاء: لو كان محمد ﷺ على حال تلفت الأنظار إليه؛ خطيبا إعلاميا حاذقا، أو شاعرا غراميا، أو كاتبا مبدعا، أو عالما، أو صاحب ثروة عظيمة، لكان ذلك أَدعى إلى التشكيك في نبوته، ولكنه عاش إنسانا حسن السيرة في مجتمعه، مشتهرا بالصدق والأمانة، قريب إلى القلوب، قويّ الحجة والدليل، عقلانيا في حواره مع خصومه، بالإضافة إلى معجزات امتاز بها خرجت عن قدرات البشر. وهذه الصفات من أقوى الأدلة على نبوته وإلهية ما جاء به. وما كان لهذه الصفات أن تجتمع بهذا الكمال إلا في نبيّ، بل إنها لم تكتمل في نبي كما اكتملت في محمد.

مقاييس اكتفوا بوصفها بالحداثة!

لقد وضع هؤلاء لحياة محمد مقاييس اكتفوا بوصفها بالحداثة! وهم يقصدون بتلك المقاييس أن يتصف قبل بعثته بالغنى والثراء، وأن يكون عالما كبيرا، أو عبقريا عظيما، وكل هذه المقاييس في عُرفهم تعني أن يكون رجلا مشهورا لامعا في المجتمع. وإن المرء ليعجب مما انطوى عليه فكر هؤلاء؛ لقد أنكروا نبوة محمد مستندين إلى أن حياته قبل البعثة لم تلفت أنظار الناس في عصره؛ ولو كان على هذه الحال التي تلفت الأنظار، لكان هؤلاء أول من استند إلى هذه الحال في إنكار نبوته، ولكانوا أول من قال: إنه ألّف القرآن من عند نفسه معتمدا في ذلك على ماله الكثير، أو مهارته في الكلام والخطابة!!

ليسوا على فكر صحيح

ويكفينا نحن المسلمون؛ أن الله كشف لنا منهج أعدائنا بكل وضوح فقال: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠]. فجاء التعبير بالمضارع الدال على الاستمرارية الدائمة؛ لأن هذا دأبهم إلى أن تزول الدنيا، فلا سبيل لإرضائهم إلا باتباع انحرافاتهم، وتأمّل التعبير القرآني: ﴿ملّتهم﴾ فلم يقل: مِلَّتَيهم (اليهود والنصارى)؛ ذلك أنّ الأمر إذا تعلق بحرب الإسلام كان اليهود والنصارى يدا واحدة على الإسلام وأهله؛ وقال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولم يقل: ملتهم كما في أول الآية، لأنهم ليسوا على فكر صحيح؛ بل على هوى وشهوات، وهم اليوم يتبعون أهواء العلمانية المادية؛ يلهثون وراء شهوات الجنس

والمال، ويُلزمون كل شعوب العالم بمبادئها وأحكامها عبر أدوات سياسية وعسكرية يكسرون بها رقاب الشعوب بالقوة والقهر.

هذا ما أثار الأحقاد في نفوس الغرب

إن عداء المسلمين مع الغرب عداء قديم غائر في عمق التاريخ؛ ابتدأ من أول يوم ظهر فيه رسول الله ﷺ؛ فرماه النصارى كما رماه اليهود، وحاربوه سنوات طويلة دون أن ينالوا شيئا، إلى أن انقلبت مكائدهم ودسائسهم على رؤوسهم. بعد أن تحوّلت مدن وعواصم كثيرة كانت قصورا وحصونا وقلاعا في قلب العالم المسيحي مثل الشام واسطنبول؛ تحولت خلال مئات السنين إلى قلب العالم الإسلامي الواسع. هذا ما أثار الأحقاد حتى اليوم في نفوس القادة والسياسيين في أوروبا على المسلمين وقائدهم محمد.

حروب لاسترجاع ما فقدوه!!

كما تصدى المسلمون للحملات الصليبية التي امتدت لقرنين من الزمن (١٠٩٦-١٢٩١م) لاسترجاع ما فقدوه، ودحروا نابليون بونابارت بين عامي (١٧٦٩-١٨٢١م) لاسترجاع مصر والشام، كما أجهض المسلمون حلم الإمبراطورية الاستعمارية الأوروبية في البلاد الإسلامية في العصر الحديث؛ في محاولة لاسترجاع هذه البلاد إلى سيطرتهم كما كانت قبل ظهور محمد ﷺ.

هل تتكرر تجربة الماضي؟!

بعد تمكن العلمانية في المجتمعات الغربية؛ وانحصار ممارسة الديانة النصرانية في هذه المجتمعات؛ وبعد إغراق الإنسان في المادة وإشباع الشهوات دون ضوابط، وعدم

مراعاة التوازن بين الروح والمادة، دخل العالم الغربي في تيه؛ وعجزت الحلول عن الإجابة على كثير من التساؤلات، وعجزت عن إيجاد حل للارتفاع الكبير لنسب الجريمة والاغتصاب والإجهاض والانتحار؛ وللعناء والشقاء الذي يكابده المواطن الغربي، رغم توفر الحريّات المزعومة والرفاهية التي تحقق العيش الكريم في وجهة نظرهم. لكن نتيجة هذا الاختلال؛ فُسح المجال أمام النظريات والأفكار الأخرى لتنشط داخل هذه المجتمعات، وبحكم أن الإسلام متواجد بقوة لا تصمد أمامه ديانة ولا أيديولوجية أخرى؛ كانت النتيجة الحتمية هي اكتساح الإسلام للقارة الأوروبية والأمريكية، فخشي قادتهم أن تتكرر تجربة الماضي؛ وتتحول هذه القارات إلى بلاد مسلمة كما حصل في الشرق.

من الافتراء والتشويه إلى الاستفزاز

بعد أحداث ١١ سبتمبر؛ تنامى العداء الغربي حول الإسلام ونبيّ الإسلام؛ وانتقل من مجرد الافتراء والتشويه إلى العمل والاستفزاز؛ فمن الرسوم الدنماركية المسيئة؛ إلى منع الحجاب في المدارس والأماكن العامة في فرنسا؛ وحظر بناء المآذن في سويسرا؛ والفيلم المسيء لشخص الرسول في أمريكا؛ وحملة الرسوم الكاريكاتورية الفرنسية؛ والملصقات العنصرية الأمريكية الداعية إلى تمجيد الصهاينة وكراهية المسلمين؛ ومئات الأفلام التي تنتجها آلة الصناعة السينمائية الأمريكية التي تصور المسلمين أنهم متخلفين وهمج؛ وسفاكي دماء، هدفهم قتل الآخر وإشباع شهواتهم البهيمية.

الهدف: تدمير الحضارة الإسلامية

(أيوجين روستو) رئيس قسم تخطيط سابق في وزارة الخارجية الأمريكية، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الشرق الأوسط، يقول: يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية؛ منذ ظهور محمد إلى الحروب الصليبية إلى القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة وفيما بعد، إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا هي جزء مكمّل للعالم الغربي، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف. إن هذه السياسة تحدد هدف التحالف الغربي؛ هو: تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام إسرائيل في وسط العالم العربي هو جزء من هذا المخطط، وأن ذلك ليس إلا استمرارا للحروب الصليبية مع اختلاف أشكالها.

خطط اليهود والنصارى لتدمير الإسلام

بعد فشل الحروب الصليبية الأولى التي استمرت قرنين كاملين في القضاء على الإسلام، قاموا بدراسة واعية لكيفية القضاء على الإسلام وأهله، مسترشدين بوصية لويس التاسع ملك فرنسا؛ قائد الحملة الصليبية الثامنة، الذي أُسر وسُجن في مصر، حيث ترك وثيقة في باريس قال فيها: إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة باتباع ما يلي:

أولا: إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين ما أمكن، هذا يكون عاملاً على إضعاف المسلمين.

ثانيا: عدم تمكين حاكم صالح يحكم البلاد الإسلامية والعربية.

ثالثا: إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد الأخلاقي.

رابعا: الحيلولة دون قيام جيش منظم مؤمن بحق وطنه عليه.

خامسا: الحيلولة دون قيام وحدة عربية وإسلامية في المنطقة.

سادسا: العمل على قيام دولة مصطنعة في المنطقة العربية.

وكانت خطواتهم كما يلي:

أولاً: القضاء على الحكم الإسلامي المتمثل بالخلافة، وفي مفاوضات مؤتمر (لوزان) اشترطت بريطانيا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.

٢- أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٣- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

٤- أن تختار لها دستوراً مدنيا بدلا من أحكام الإسلام. فنفّذ كمال أتاتورك الشروط السابقة، لأنه كان قد اتفق معهم سراً على أن يولّوه تركيا إذا نفّذها.

ثانيا: القضاء على القرآن ومحوه: قال (جلادستون) رئيس وزراء بريطاني سابق: "مادام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين؛ فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق". وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة عام على استعمار الجزائر: "إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن". وقال المبشّر (وليم

جيفورد): " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى الإنسان العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه".

ثالثاً: تدمير أخلاق المسلمين، وعقولهم، وصلتهم بالله، وإطلاق شهواتهم: قال المبشّر (ديوك باكتول): إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقاً؛ بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها في بداية الإسلام.

خطوات أخرى:

قال صموئيل زويمر؛ رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: "إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية؛ إن مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها". وهذا لا يتم إلا بإبقاء العرب ضعفاء؛ وتشكيك المسلمين بدينهم؛ وإنشاء ديكتاتوريات سياسية في العالم الإسلامي؛ وإبعاد المسلمين عن تحصيل القوة الصناعية، ومحاولة إبقائهم مستهلكين لسلع الغرب. وإبعاد قادة المسلمين الأقوياء عن استلام الحكم في دول العالم الإسلامي؛ وإفساد المرأة، وإشاعة الانحراف الجنسي.

الموسوعة البريطانية

ذكرتْ أن محمداً زعم أنه نبيّ مرسل من الله؛ وأنه أعظم الأنبياء، وخاتمهم، وأن المسلمين يعبدون محمدا، ويعتقدون أن الكون خُلق من نور محمد. وهذه الموسوعة قام بشرائها في عام ١٩٩٦م، يهودي سويسري عالمي، وتبنى خطة لتغيير محتوياتها، كما قام بتوزيعها على أقراص مدمجة، ونشرها على الانترنت.

الموسوعة الفرنسية

ذكرت أن الرسول قاتِلُ رجال، وخاطف نساء، وماكر، عدو للعقل الحرّ. وفي قاموس (وبستر) الأمريكي؛ يُعرَّف العربي بأنه رجل حيواني شهواني، قاتل، سفاك للدماء، يشتهي النساء، متشرد، متسكع، متسول، غبي وفوضوي.

المستشرق الفرنسي (كيمون)

ومن المستشرقين الذين انساقوا في خدمة هذه المخططات؛ الفرنسي (كيمون) الذي يقول في كتابه (باثولوجيا الإسلام): إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً، بل هو مرض مُريع وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل؛ ثم يوقظه ليدفعه إلى سفك الدماء وارتكاب جميع القبائح؛ وما قبر محمد إلا عمود كهربائي ينشر ذبذبات الجنون في رؤوس المسلمين. ويتابع قائلاً: "أعتقد أن من الواجب إبادة خُمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر".

الردّ على هذه الادّعاءات

إن رسالة النبيّ محمد ﷺ لا رهبانية فيها؛ ولا جفاء ولا قسوة قلب، إنها رسالة تربط بين الدنيا والآخرة؛ رسالة تجتمع فيها أصوات المآذن وبخار المصانع؛ رسالة عظيمة تتلاءم مع الواقع الذي يتلاءم مع فطرة الإنسان السويّة، يكفيها قول النبيّ ﷺ: **«إنْ قامَتِ السَّاعةُ وبيَدِ أحَدِكُم فَسيلةٌ، فإنِ استَطاعَ ألَّا يقومَ حتى يَغرِسَها فلْيَفْعَلْ».** إسناده صحيح على شرط مسلم. فباعتبار هذا؛ من البديهي أن يتصادم عالم الغرب المنحصر بالدنيا وأموالها وشهواتها وضياعها مع معاني الإسلام الوسطي؛ بين احتياجات

الفرد في دنياه مع مصيره بعدها؛ لأنه دين حقيقي واقعي يتفق مه فطرة الإنسان في مختلف العصور، يخالف عقيدة الغرب وملته الجديدة التي قامت بعد ثورة العلمانية على أفكار منحرفة؛ والتحالف الإقطاعي والكنسي الجائر.

أقوى الأدلة على نبوّته

إننا نتفق مع هؤلاء في ذهابهم إلى أن النبيّ ﷺ عاش قبل النبوة حياة لا تلفت الأنظار؛ وذلك أنه عاش أربعين سنة، فلم يشتهر بشيء أكثر من أنه امتاز بالأدب والأخلاق العالية بين قبائل العرب في محيطه، كما اشتُهر عنه صادقا أمينا في مجتمعه، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته. رجل يُمضي زهرة شبابه ساكنا وادعا، حتى إذا شارف سنّ الأربعين؛ نهض قويا يجمع البشرية كلها على كلمة واحدة، لاقى من أجلها أصناف الاضطهاد والأذى ما لا قدرة لأحد على احتماله، في مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ثم يضطر بعدها لقضاء بقية حياته في اضطهاد جديد وجلاء عن وطنه؛ ثم صراع طويل وصعب خاضه مع أقرب الناس إليه، ثم صراع طويل وصعب خاضه مع قبائل العرب جميعا، ثم صراع صعب وطويل وحروب خاضها مع أقوى الممالك والإمبراطوريات في زمانه، لا عن هوى في نفسه، ولكن عن أمر تجاوز قدرات البشر.

ماذا بعد ذلك؟

بعد ذلك؛ لفت أنظار العالم كله، واسترعى الانتباه من زاوياه الكثيرة، بمقاييس تختلف اختلافا واضحا عن المقاييس التي وضعها المشككون، كانت مقاييسهم تلك عن مَلِكٍ يبحث عن تاج الرئاسة؛ لكنه شخص ليس كبقية الأشخاص، فقد امتلك عقلا راجحا

لا نظير له في البشر جميعا، فما كان له أن يهجر عقله ويتّبع غيره، ولذلك كان ينظر إلى العادات والأعراف والسلوكيات السائدة في البيئة التي نشأ فيها نظرة فكر وتأمل لا نظرة إتباع. بل تأثر بها تأثرا عكسيا، فيقف ضدها ويحاربها ويعمل على إزالتها.

هل كنتم تتهمونه بالكذب؟

لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية، يبغضُ الأوثان بغضا شديدا حتى ما كان يحضر لها احتفالا. وهكذا؛ فقد كان يتمتع بأفضل الأخلاق وأشرفها، على عكس ما يدّعون، فلم يكن مغرورا كما يدّعون، بل على العكس من ذلك تماما، لقد كان متواضعا أشد ما يكون التواضع، يُضرب به المثل في ذلك.

عظيم؛ لأنه على خلق عظيم

إيتاء العظمة لأي مصلح في المجتمع؛ حقّ له لازم في كل وقت، وعند كل الشعوب، لسببين: أحدهما: أن العالم يكون في بعض الأزمنة أحوج مما كان إلى المصلحين لشعوبهم وللشعوب كافة؛ ولن يُتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو يدعو للخلق الحسن وهو سيء الخلق، منعزل عن مجتمعه منفرد بالجفاء. والسبب الآخر أن الناس في زماننا الحاضر قد اجترأوا بالسبّ والشتم على الأشخاص العظماء بقدر حاجتهم إليهم، وقد أغرى هذا أناسًا من صغار النفوس بإنكار أهمية وعظمة الحقوق الخاصة لهؤلاء العظماء؛ خصوصا الأنبياء.

كيف إذا استخفّ المجتمع برجل عظيم فيه ؟!

فماذا يساوي إنسان عادي في المجتمع؛ لا يساوي الإنسان العظيم شيئًا لديه؟ وأي معرفة بحق من الحقوق في هذا المجتمع إذا استخفّ هذا المجتمع بحقٍّ عظيم لأحد الأفراد فيه؟ وإذا ضاعت مزايا وإنجازات ومهارات إنسان عظيم في هذا المجتمع، فكيف لا يضيع عندهم حق الصغير والفقير والضعيف؟ لهذا، كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون؛ ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين، أمرا ضروريا في هذا الزمن الذي الْتَوَتْ فيه مقاييس التقدير.

لمن يستخفّ أو يتّهم هذا الرسول !

وإنه لحقٌّ للمسلم أن يُقدّر ويعظّم محمدًا بالشواهد والبينات التي يراها؛ وأن يذكرها لغير المسلم، أو لمن يستخفّ أو يتّهم هذا الرسول؛ لأن مسلمًا يقدّر محمدًا ويذكر إنجازاته العظيمة للبشرية على هذا النحو؛ فهو يحبّ محمدًا مرتين: مرة بحكم أنه رسول الله الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية العظيمة التي امتاز بها عن جميع الناس.

خاسرون بهذا الانحراف

وحسبُنا أن نقيم الدليل والبرهان على أن محمدًا عظيمٌ في كل ميزان؛ فهو عظيم في ميزان الدِّين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الأخلاق، وعظيم في ميزان الشعور الإنساني، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية، لأنهم إن اختلفوا في ذلك فقد ابتعدوا عن هذه الطبائع، وهم خاسرون بهذا الانحراف وحدهم.

أمَّة العرب!!

كانت في ذلك الوقت أمَّة ليست بذات دولة وجيش نظامي مؤثر؛ كما كان للفرس والروم، ولكنها تتأهب لإقامة دولة ونظام، هي أمَّة العرب؛ وقد تيقّظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر على نفسها وبمواضع النقص منها. ومصطلح العرب قبل الإسلام كان للتعبير عن الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية للقبائل في شبه الجزيرة العربية والمناطق التي سكنوها؛ وتقع جغرافيا ضمن حدود الجزيرة العربية.

بين يديها تجارة العالم كله

كان الحال في الجغرافيا القديمة؛ إذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهي تسير في بادية العرب؛ وإذا سارت السفن من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم(الأحمر) إلى بحر الروم(الأبيض المتوسط)، فهي في بحار العرب من كلتا الطريقين. أمَّة العرب تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يُحْدِقون بصحرائها الراقدة النائمة. ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها؛ فهرقل الرومي يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشي يزحف إلى مكة ليهدم كعبتها ثم بناء كنيسة، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها؛ خطرٌ من خارجها يزيد الأمة يقظة وانتباهًا لوجودها، وخطرٌ من داخلها وصراعاتٌ تدفع بها إلى الزوال؛ مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصابة من سادة القوم تجتمع ثروتها في أيديها.

تسلسل نسب النبيّ ﷺ إلى آدم

اتفق أهل السير والأنساب على صحة نسب النبيّ ﷺ وهو إلى عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم.

ماذا قبل عدنان؟

أما عدنان؛ فهو ابن أدّ بن هميسع بن سلامان؛ بن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا؛ بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم؛ بن ناحش بن ماخي بن عيض بن عبقر، بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر، بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوي، بن عيض بن ديشان بن عيصر، بن أفناد بن أيهام، بن مقصر بن ناحث، بن زارح بن سمي، بن مزي بن عوضة، بن عرام بن قيدار، بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ماذا قبل إبراهيم؟

أما إبراهيم عليه السلام، فهو ابن تارح؛ واسمه آزر بن ناحور بن ساروع أو ساروغ؛ بن راعو بن فالخ بن عابر؛ بن شالخ ابن أرفخشد؛ بن سام بن النبيّ نوح عليه السلام؛ بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ؛ يقال هو النبيّ إدريس عليه السلام؛ ابن يرد بن مهلائيل بن قينان؛ بن آنوشة بن شيث بن آدم عليه السلام.

عظيم نسبه ﷺ

روى الترمذي أنه ﷺ قام على المنبر، فقال: « **مَن أنا؟** فقالوا: أنتَ رسولُ اللهَّ عليكَ السَّلامُ. قالَ: **أَنا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِّ بنِ عَبدِ المطَّلبِ، إنَّ اللهَّ خَلقَ الخلقَ فجَعلَني في خيرِهِم ثمَّ جَعلَهُم فِرقتَينِ فجعلَني في خيرِهِم فِرقةً، ثمَّ جعلَهُم قبائلَ فجَعلَني في خيرِهِم قبيلةً، ثمَّ جَعلَهُم بُيوتًا فجعلَني في خيرِهِم بيتًا وخيرِهِم نَفسًا**». وروى مسلم من حديث وائلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ عن نفسه: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**». صحيح مسلم.

أربعون عاما قبل النبوة

ولد النبيّ بشِعب (حيّ) بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ويوافق ذلك الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حققه علماء مؤرخون كبار. وقد روي أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة قرب نهر الفرات بالعراق.

مائة من الإبل !!

والد النبيّ هو عبد الله بن عبد الُمطلب بن هاشم، وهو أصغر إخوته، وأحبّ الناس إلى قلب والده، وقد نذر والده إن أعطاه الله عشراً من الأولاد أن ينحر أحدهم عند الكعبة، ولّما رزقه الله بعشرِ أولاد أخبرهم بنذره وأطاعوه، فرمى بالقداح -وهي تشبه القرعة، فخرج القدح على ابنه عبد الله، فلما كان وقت الذبح أمرته قريش بعدم

ذبحه، وأشاروا عليه بالذهاب إلى الكهنة اليهود في خيبر، والبحث هناك عن الحلّ. فلما توجّه إليهم سألوه عن مقدار الدية عندهم، فأجابهم: عشرةٌ من الإبل، فأخبروه بزيادة عشرةٍ من الإبل إن خرج اسم أحد الأبناء حتى يخرج قدح الفداء بالإبل، فظلّ يرمي بالقدح ويدعو الله ألا تخرج على عبد الله، فلما خرج قدح الإبل كانت قد بلغت المائة، وأعاد عبد المُطلب القُرعة ثلاث مرات، كلها تخرج قدح الإبل، ونحر الإبل المائة أمام الكعبة؛ فِداءً لابنه عبد الله.

النبيّ يتيم قبل ولادته !

عبد الله والد النبيّ؛ توفّي وهو في عُمر الخامسةِ والعِشرين؛ وكان النبيّ جنيناً في بطن أُمه، وعمره شهرين فقط، كما جاء عن عمّه أبي طالب قوله: (فإنه ابنُ أَخِي مات أَبُوهُ وأُمُّهُ حُبْلَى به)، وكانت وفاته بعد رُجوعه من تجارةٍ لِقُريش من الشام، وفي طريق عودته أصابه المرض، فبقي عند أخواله بالمدينة شهراً. وعند وصول القافلة إلى مكة، سألهم عبد المُطلب عن ابنه، فأخبروه، فبعث بابنه الأكبر الحارث إلى المدينة ليطمئنّ عليه، فوَجَدَه قد توفّي.

(آمنة) والدة النبيّ محمد

اسم والدة الرسول محمد ﷺ هي (آمنة بنت وهب) وتُلقب بأمّ رسول الله، واسمها كاملاً هو آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة، وقد توفيت وكان عمر النبيّ محمد ستّ سنوات.

لحظة مولد النبيّ

لما ولدته أمه؛ أرسلت إلى جدّه عبد المطلب تبشّره بحفيده، فجاء مستبشرا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمد؛ وهذا الاسم لم يكن معروفا في العرب؛ وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون.

ها هو ذا النبيّ ﷺ قد حضر

عالم يتطلع إلى نبيّ، وأمّة تتطلع إلى نبيّ، ومدينة تتطلع إلى نبيّ، وقبيلة وبيت وأبوان كانا ينتظران لإنجاب هذا النبيّ. ثم ها هو ذا النبيّ قد حضر، لا يُشركه آخر في صفاته، ولا يُدانيه آخر في مزاياه الفضلى التي هيّأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في مكة وفي المدينة، وفي الجزيرة كلها، وفي العالم بأسره. إنه رجل نبيل عريق النسب، ليس بالمتواضع الخامل، فيصغر قدره في مجتمعه. فقير وليس بالغني المترف، فيطغيه جشع الأغنياء، يتيم بين رحماء، فليس هو بالمدلل، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تَقتل فيه القسوة عزّة النفس.

كان التاريخ شيئًا فأصبح شيئًا آخر !!

بين عالم كيف كان، وعالم آخر كيف صار، بين هذا الشيء وذاك الشيء؛ توسّط بينهما وليد مستهلّ في مهده بتلك الصيحات التي سُمعت في مهد؛ خرج من رحم امرآة في مكان ما في الجزيرة العربية، توفي زوجها قبل أن يراه. كانت يومئذ صيحات في الهواء ما أضعفها! ثم ما أقواها بعد ذلك أثرًا في التاريخ! ما أضخم هذه المعجزة! وما أعظمنا كلما مضت على ذلك المولود أجيال وأجيال، ما كنا نبحث عنها نحن

العرب، حيثما بحث عنها كهّان اليهود وانتظرها بنو إسرائيل وأهل الكتاب قبل ذلك بمئات السنين! كنا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان؛ بمقدار ما فيها من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان.

أول امرأة أرضعته

أول من أرضعت الرسول محمد ﷺ بعد أمه؛ امرأة يُقال لها (ثويبة) وهي مولاة أبي لهب؛ بلبن ابن لها، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب.

السفر الأخير

إذا كان عبد المطلب جدًّا صالحًا لنبيّ كريم، فابنه عبد الله نِعم الأب لذلك النبيّ؛ فهو الفتى الذي اسمه عبد الله، وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات بوسامته وحيائه، وودّت مئات منهنّ لو نعمنَ منه بالزواج، وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام، وكانت تلك العادة عندهم، ثم سافر ليتَّجر؛ فإذا هي السفرة الأخيرة، وهو الفتى الذي مات وهو غريب، ووُلد له نسله الأول الوحيد وهو دفين.

الطفل الرضيع في بني سعد!!

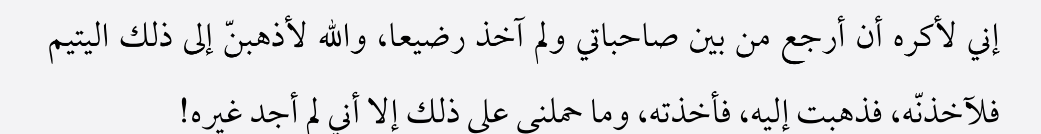
كانت العادة عند العرب في المدن أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويُتقنوا اللسان العربي منذ الصغر، فالتمس عبد المطلب لابن أخيه امرأة من بني سعد بن بكر ترضعه؛ وهي حليمة السعدية، وزوجها المكنّى بأبي كبشة، من نفس القبيلة؛ ورأت حليمة من برك هذا الطفل ما قصّت منه العجب.

حوادث الكون وحقائق التاريخ

المؤرخون يُجهدون أقلامهم في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية؛ يَسردون ما أكّده الرواة، وما قَبِلَه الثقات، وما أيدته الحوادث، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت أو صاحبت ميلاد هذا النبيّ؟ لأن الذين شهدوا العلامات يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤدّاها، ولا عرفوا أنها علامة على شيء سيحصل، أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة!! أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة ما وقع في هذا الكون وما سجّله التاريخ. فحوادث الكون قالت: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة، وحقائق التاريخ قالت: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ.

ماذا قالت حليمة؟

كانت حليمة تُحدّث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها في نسوة من بني سعد تلتمس الرضعاء؛ وذلك في سنة جافة لم تُبق لنا شيئا، فخرجتُ على أتان (حمار) لي، والله ما ننام ليلنا بسبب بكاء الصبية الرضّع من الجوع، ما في ثديي شيئا، كنا نرجو الغيث والفرج، حتى قدمنا مكة نلتمس الأطفال الرّضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها الرضيع محمد فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو الأموال والهدايا من أبي الطفل، فكنا نقول: يتيم! فلا نقبله، ونرفضه! فكنا نكرهه، حتى ما بقيت امرأة قدِمَتْ معي إلا أخذت رضيعا، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي: والله



إني لأكره أن أرجع من بين صاحباتي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فذهبت إليه، فأخذته، وما حملني على ذلك إلا أني لم أجد غيره!

ثم ماذا؟!

قالت: فلما أخذته ووضعته في حجري؛ أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شاة ضعيفة عجفاء فإذا هي تنضح بالحليب، فحلب منها وشرب وشربت معه حتى اكتفينا شبعا، قال زوجي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة! لقد أخدتِ نسمةً مباركة!

اتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة من السماء، واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة. كان من الممكن أن ينتظر العالم هذا الرسول ثم لا يظهر. وكان من الممكن أن يظهر الرسول، ثم لا تتهيأ له الصفات في المكان والبيئة المناسبة التي يتم بها أداء الرسالة. ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب التوافق، وكانت المعجزة التي تفوق المعجزات؛ لأنها مع ضخامتها، وتعدد أجزائها، وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولًا سائغًا بغير استكراه. فكان محمد مستكملًا للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

أبقته حليمة عندها

قالت حليمة: فلم نزل كذلك حتى مضت سنتان، وكان يشبّ شبابا لا يشبُّهُ الغلمان، فقدمنا به على أمِّهِ ونحن أحرص على مكثه فينا، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يكبر ويغلظ. فلم نزل بها حتى وافقت وردّته معنا، وهكذا بقي النبيّ في بني سعد، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة من عمره.

هذه صفات للرسول غير أحوال الرسول

كانت له فصاحة اللسان واللغة، وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغَيرته البالغة على نجاحها، وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول، ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال. أما فصاحة محمد؛ فقد تكاملت له في كلامه، وفي موضوع كلامه، فكان أعرب العرب، ولكن الرجل قد يكون عربيًّا قرشيًّا ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، وقد يكون سليمًا في كلامه سليمًا في نطقه؛ ثم لا يقول شيئًا يستحق الاستماع. أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه وفي تعبيره وفي معناه، قالت عائشة: «**مَا كانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذا ؛ وَلَكنّه كانَ يتكلّمُ بكلامٍ بَيِّن فَصلٌ، يحفظُه منْ جَلَسَ إليه** ». إسناده جيد، أخرجه أبو داود والترمذي.

حادث شق صدره

روى مسلم عن أنس أن محمدا أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان

منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا: إن محمدا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردّته إلى أمّه، فكان عند أمّه إلى أن بلغ ست سنين.

توفيت أمه وعمره ستّ سنوات

رأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا، ومعها ولدها اليتيم محمد ﷺ وخادمتها أم أيمن، وخادم آخر، فمكثت شهرا، ثم رجعت، وبينما هي راجعة أصابها المرض في أوائل الطريق، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة نحو سنة ٤٧ ق.هـ الموافق ٥٧٧م، وكان عمرها يوم وفاتها عشرون عاما، وكان عمره ﷺ ست سنوات. فأصبح يتيم الأب والأم معا.

دَعُوا ابني هذا فوالله إن له شأنا

عاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنوّ في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، الذي أصيب بمصاب جديد، فكان لا يدعه لوحدته؛ بل يُؤْثره على أولاده، كان يوضع لعبد المطلب فراشٌ في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، فكان محمد يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنا. ثم يُجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده.

الوسامة

ومع هذه الفصاحة والبلاغة؛ كانت له إشراقة في وجهه وملامحه يحبّه كل يراه، وتجمع إليه قلوب من عاشروه، وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الشرفاء والأقوياء على السواء. وحسبك من حبّ الضعفاء إياه؛ أن فتى مستعبدًا يفقد أباه وأسرته؛ كزيد بن حارثة؛ ثم يظهر له أبوه بعد طول غياب، فيُؤْثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه!! وحسبك من حبّ الأقوياء إياه؛ أنه جمع على محبته أناسًا بينهم من التفاوت في المزاج والخصال؛ ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة، وهم جميعًا من عظماء الرجال.

أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة؟

لما جاء القائد الحبشي يهدم الكعبة؛ ويسطو على الإبل والشاء؛ سأله عبد المطلب زعيم مكة أن يردَّ إليه إبله، قال له مقال السياسي المُحرج: «أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة؟»، فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن: «أما الإبل فأنا ربُّها(صاحبها)، وأما البيت فله ربٌّ يحميه!» فكان إيمانه إيمانًا يعكس دهاءه السياسي، ولم يكن إيمان العجز والتواكل والاستسلام؛ ومن كان له هذا الخلق، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فليس من عجب أن يُنجب نبيًّا في زمان يستدعي ظهور الأنبياء، والمكان مهيأٌ لهم دون كل مكان؛ بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

بعد وفاة جده عبد المطلب

لما بلغ النبيّ ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام، توفي جدّه عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه، ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمّه إلى ولده، وقدّمه عليهم، واختصّه بفضل احترام وتقدير، وظل على ذلك أربعين سنة يبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله.

(جرجيس) الراهب

لما بلغ النبيّ اثنتي عشرة سنة؛ ارتحل به عمّه أبو طالب تاجرا إلى الشام، وكانت في ذلك الوقت منطقة عربية تحت حكم الرومان؛ وكان فيها راهب عُرف ببحيرا واسمه (جرجيس) فأكرمهم بالضيافة، وكان قد عرف النبيّ بصفته كما وردت في الإنجيل، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجدا، ولا تسجد إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرجع به خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.

قد تتفق الخصال وقد تختلف

الرجل قد يكون وسيما وليس محبوبًا، وقد يكون على العكس، وقد يكون وسيما ومحبوبا ولا يكون له ثقة بين الناس، ولا يأتمنوه على أمورهم وأموالهم، وإن اتفقت هذه الخصال حينًا فمن الجائز أن تفترق حينًا آخر؛ أما محمد فقد كان جامعًا لها جميعا

في وقت واحد. لقد كان مشهورًا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه، كما شهد أحبابه، وامتلأ هو مِن العلم بمنزلته مِن ثِقَة القوم، فأحبَّ أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم في دعوته؛ فكان يسألهم: **«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الجَبَل؛ أَكُنْتُمْ تُصَدّقُونَني؟»**. فيقولون: نَعَم. صحيح ابن حبّان. وإنما كان بهم أنهم يَنْفِرون من التصديق بدعوته للإسلام كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه؛ ولا مهرب من التصديق به أخيرا؛ سواء كان راضيا به أو غاضب.

حرب الفجار

لما بلغ النبيّ خمس عشرة من عمره؛ كانت حرب الفجار بين قريش وبين قبائل عربية أخرى؛ كان قائد قريش حرب بن أمية، وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان يجهّز النبل لعمومته للرمي.

ادعاء يعكس جهل المستشرقين

بعض المستشرقين زعموا أن النبيّ قد اشترك في حرب الفجّار بتجهيز السهام، لأنه عمَلٌ أقرب إلى الانزواء والهروب عن مواجهة العدوّ في أرض المعركة، وكأنهم أرادوا أن النبيّ محمد لم يكن قادرًا على المشاركة في ساحات القتال ساعة التحام الجيش. هذا الزعم وهذا الادعاء يعكس جهل هؤلاء أو ربما التواءهم عن مواجهة حقائق كثيرة في تاريخ النشاط العسكري للجيش الإسلامي زمن النبيّ محمد، فالنبيّ

محمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب. وكان عليٌّ فارس فرسان المسلمين يقول: «كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ ... فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو». ولولا ثباته في وقعة حنين، وقد ولّت جموع الجيش، وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة، لوقعت الهزيمة بالمسلمين.

حلف الفضول

تعريفه: هو اتفاقٌ وقع في مكة المكرمة قبل البعثة النبوية؛ بين عشائر بارزة من قريش، وقد شهِده النبيّ ﷺ. حيث اجتمع القوم فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مظلمته، كان هذا الحلف روحه تُنافي الحميّة الجاهلية. ويقال في سبب هذا الحلف إن رجلا قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، فلم يعطه حقه، فاستنجد بالناس فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى رافعا صوته يصف مظلمته، فاجتمع كبار القوم في مكة فأبرموا حلف الفضول، وانتزعوا له حقه.

محمدٌ تاجرٌ

لم يكن للنبيّ عمل معين في أول شبابه، إلا أنه كان يرعى الغنم، وفي الخامسة والعشرين من عمره خرج تاجرا إلى الشام في مال خديجة بنت خويلد، كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدقه وأمانته وعظيم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج تاجرا في مالها إلى الشام، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبل النبيّ ذلك.

زواجه خديجة

لما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها ما لم تر من قبل، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه من صفات، وجدت خديجة ضالتها المنشودة، بعد أن كان السادات والرؤساء والتجار يحرصون على زواجها، فتأبى عليهم ذلك، فأرسلت إلى صديقتها نفيسة تعرض عليه أن يتزوج بها، فرضي بذلك، وكلم أعمامه وخطبوها إليه، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وكانت تبلغ من العمر إذ ذاك أربعين سنة، وكانت أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

أولاده ﷺ

كل أولاده من خديجة سوى إبراهيم، ولدت له أولا القاسم وبه كان يُكنى(أبا القاسم) ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه الذكور كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهنّ أدركتهنّ الوفاة في حياته، سوى ابنته فاطمة، فقد تأخرت بعده ستة أشهر.

خديجة خير نساء زمانها على الإطلاق

روى البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت: ما غِرْتُ على نساء النبيّ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: **«أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»**، قالت: فأغضبته يوما، فقلت: خديجة!! فقال: **«إني قد رُزقتُ حبّها»**. متفق عليه. وروى أحمد في مسنده عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد

يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوما من الأيام، فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزا، قد أبدلك الله خيرا منها؟ فغضب ثم قال: **«لا، والله ما أبدلني الله خيرا منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء»**. مسند أحمد.

بناء الكعبة وقضية التحكيم

لما كان عمرُه ﷺ خمسا وثلاثين سنة، قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن الكعبة كانت ركاما فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت لأحداث أوهت بنيانها وصدعت جدرانها، ولما كان عمرُه خمسا وثلاثين سنة؛ أي قبل بعثته بخمس سنين؛ جرفت مكة سيول عارمة، فأوشكت الكعبة على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها، واتفقوا على أن لا يُدخلوا في بنائها إلا مالا حلالا، فلا يُدخلوا فيها مهر بغيّ، ولا بيع ربا، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد ابن المغيرة المخزومي، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم.

رؤساء القبائل يُمسكوا جميعا بأطراف الرداء

ثم لما أرادوا إعادة البناء، جزّأوا الكعبة، وخصّصوا لكل قبيلة جزءا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا بالبناء، وتولى البناء بنّاء رومي اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع أيام أو أكثر، واشتدّ حتى كاد يتحول إلى حرب دامية في أرض

الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكّموا في حلّ هذا الخلاف أول رجل يدخل عليهم من باب المسجد؛ فارتضوا ذلك، وشاء الله أن يكون هذا الرجل رسول الله، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، هذا محمد؛ رضيناه. فلما أخبروه طلب رداءً، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه، وبهذا انتهى الخلاف.

أَبعاد الكعبة في ذلك الوقت

لما نقص المال الحلال في بناء الكعبة، اختصروا في مساحة البناء، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع (٣ أمتار)، ورفعوا بابها عن الأرض لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعا سقفوه على ستة أعمدة؛ وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠ أمتار، والحَجَر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ مترا فوق الأرض. والضلع الذي في الباب والمقابل له ١٢ مترا، وبابها على ارتفاع مترين فوق الأرض، ويحيط بها من الخارج إطار من البناء في أسفلها، متوسط ارتفاعه ٢٥ سنمترا، ومتوسط عرضها ٣٠ سنتمترا، وهي من أصل البيت.

أهمّ ما تعاقب على الكعبة من الهدم والبناء

بُنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات، ووقع خلاف وشك في ذلك:

أما المرة الأولى منها: فهي التي قام بأمر البناء فيها نبيّ الله إبراهيم يُعينه ابنه إسماعيل، وذلك استجابة لأمر الله، وقد ثبت ذلك بصريح القرآن والسنة. قال الله

تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وأما المرة الثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل الإسلام، واشترك النبيّ ﷺ في بنائها، وقصّرت النفقة بقريش فلم يتمّموا البناء على قواعد إبراهيم عليه السلام. فذلك الذي حمل ابن الزبير على هدمه، وقد رأى أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل.

وأما المرة الثالثة: فقد كانت عند ما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزتها جيوشه من أهل الشام، عندما حاصروا عبد الله بن الزبير سنة ٤٦ للهجرة، ورموا البيت بالمنجنيق، فتهدّم واحترق؛ فأنقضها ابن الزبير ثم بناها، فقال له ابن عباس: أرى أن تصلح ما انهدم وتدع بيتا أسلم الناس عليه، وأحجارا أسلم الناس عليها، فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يعيد بناءه، فكيف بيت ربكم؟ ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام حتى بلغوا به الأرض، ثم باشروا في رفع بنائه، وزاد فيه ما أخرجت قريش منه؛ وزاد في ارتفاعه إلى السماء عشرة أذرع، وجعل له بابين.

وأما المرة الرابعة: فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير؛ روى مسلم عن عطاء أنه لما قُتل ابن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فنقضه وأعاده إلى بنائه؛ أما ما زاد في ارتفاعه فأقرّه، وأما ما زاد فيه من الحِجْر فردّه إلى بنائه، وسدّ الباب الذي فتحه.

وهناك روايات وآثار أخرى، إلا أن جميعها لا يخلوا من ضعف.

في غار حراء

لما بلغ النبيّ الأربعين، كانت تأملاته الماضية قد زادت النفور بينه وبين قومه، وقد حُبب إليه الخلاء، فكان يأخذ معه الماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النّور (طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان) على مسافة نحو ميلين من مكة، يقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الوثنية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ولا منهج محدد يطمئنّ إليه ويرضاه. وهكذا دبّر الله لمحمد وهو يعدّه لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ، دبّر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات.

جبريل ينزل بالوحي

ولما تكامل له أربعون سنة؛ وهي رأس الكمال، ولها تُبعث الرسل؛ بدأت آثار النبوة تلوح له من وراء آفاق الحياة؛ تلك الآثار هي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا تحققت، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة؛ حتى مضت على ذلك ستة أشهر أكرمه الله بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن. يمكن لنا أن نحدّد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين؛ وكان عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و ١٢ يوما؛ ويوافق ذلك اليوم ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م.

لم يتعجل الأمر تعجُّل من يخدع نفسه

قضى محمد ﷺ شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وسخافة الأوثان؛ ولما آمن برسالته هو، ودعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة، لم يهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم، ولم يتعجل الأمر تعجُّل من يخدع نفسه، ولكنه تردد حتى

استوثق، وجزِع حتى اطمأن، وخطر له في فترة من الوحي أن الله أعرض عنه، ولم يأذن له في دعوة الناس إلى دينه، ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن نصرة أصحابه، فصَدع بما أُمِر، ورضي ضميرُه بما أوتي من الهداية على النحو الذي رضيتْ به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية السليمة.

نقَلَهُم محمد من عبادة تماثيل إلى ربّ عظيم

هذا الرجل؛ نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله، لم تكن أصنامًا كأصنام اليونان، يشعر المعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب خسارة الوقت وضياع الضمير؛ لكنها أصنام بليدة؛ حائرة تائهة كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول؛ نقلهم محمد من عبادة هذه التماثيل الصمّاء إلى عبادة ربّ عظيم؛ خالق الكون الذي لا خالق سواه، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية.

العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة، وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التي بلغت، وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة، أو يتغافلون عنها لهوًى في الأفئدة، وحجبوا بأيديهم على أعينهم عامدين.

لم يشهد تاريخ الإنسانية مثلا له

ولم يشهد تاريخ الإنسانية منذ القدم حتى عصرنا الحاضر مثلا له، حتى الأنبياء والرسل كانت دعواتهم ينقصها الكمال؛ ولم ينقل هذه الفكرة الإصلاحية للشعوب

قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات والثورات الإصلاحية في شعوبهم؛ أمثال الفيلسوف الإغريقي بارمينيدس، أو الروماني القديم ماركوس بورسيوس، أو الفيلسوف اليوناني ما قبل الميلاد أرسطو؛ وأستاذه أفلاطون، أو الإله صاحب الثقافة السلمية بوذا. وغيرهم من أصحاب الفكر والنظريات الثورية المعاصرة أمثال: كارل ماركس، وفلاديمير لينين، ومارتن لوثر كينج.

أيّ إرهاب وأيّ سيف؟!

إن الرجل حين يقاتل من حوله؛ إنما يقاتلهم بالمئات والألوف ممن معه؛ وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد هم الذين يتعرّضون لسيوف المشركين ولا يُعرِّضون أحدًا لسيوفهم! وكانوا يَلقون خطرا ولا يصيبون أحدًا بخطر! وكانوا يَخرجون من ديارهم لِياذًا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين، ونقمة الناقمين، ولا يُخرجون أحدًا من داره. فهم لم يسلموا على حدّ السيف خوفًا من النبيّ الأعزل بين قومه الغاضبين عليه، بل العكس؛ أسلموا على الرغم من سيوف المشركين وتهديد الأقوياء؛ ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى عن أنفسهم، ويُبطلوا الإرهاب والوعيد. هؤلاء لم يحملوا السلاح ليبدأوا مجتمعا آخر بعدوان، أو يستطيلوا على الناس باستعمار بلادهم ونهب خيراتها. فلم تكن حروب النبيّ كلها حرب هجوم؛ ما كانت إلا حروب دفاع.

محمد ﷺ هل هو عبقري أم فيلسوف؟

أما الرسول محمد؛ هل هو عبقري أم فيلسوف؟ إننا نمضي خطوة وراء هذا، حين نقول إن التعظيم لشخصية محمد لم يقترن بعمل محمد في ذاته، لأن العبقرية قيمة في النفس تظهر في سلوك صاحبها؛ ثم تظهر أمام الناس وتنتشر ويُكتب لها التوفيق. فإذا ظهر بهذا الرجل ميزان الفكر والعبقرية، وميزان السلوك والعمل، وميزان العقيدة؛ فهو نبيٌّ عظيم؛ وبطلٌ عظيم، وإنسانٌ عظيم. وحسبنا أن نشهد هذه العظمة في أرقى درجاتها وأعظم آفاقها، وقد اعترف بهذه العظمة البعيد قبل القريب، وشهد لها العدوّ قبل الصديق.

اقترب إلى عامة الناس وأحوال الدنيا

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة، تربّى في الصحراء وألِف المدينة، ورعى قطعان الشاة، واشتغل بالتجارة، وشهد الحروب والأحلاف، واقترب إلى عامة الناس ولم يبتعد عن الفقراء. وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه؛ فلا هو يجهلها فيغفل عنها، ولا يغامسها كل المغامسة فيغرق في شهواتها.

واقعة غيّرت مجرى التاريخ!!

عائشة تروي لنا قصة هذه الواقعة التي غيرت مجرى التاريخ؛ قالت: أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه (وهو التعبد)

الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. قال: فجاءني الملك فقال: ﴿اقرأ﴾: فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ﴾، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [سورة العلق: ١-٣]. فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على زوجته خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الورع، فقال لخديجة: «**مالي**»؟ وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدا، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان راهبا في الجاهلية، يكتب التوراة والإنجيل بالعبراني، وكان شيخا كبيرا قد عَمِي؛ فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّله الله على موسى، ليتني أكون حيا إذ يُخرجك قومك؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أو مُخْرِجِيّ هُمْ؟**». قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، والذي نفسي بيده، إنك لنبيّ هذه الأمة، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وتوقف الوحي.

مدّة توقّف الوحي

كانت أياما، وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال، وقد بقي النبيّ ﷺ في أيام فتور الوحي كئيبا محزونا، تعتريه الحيرة والدهشة، فقد روى البخاري ما نصه: وفي فترة توقف الوحي حزن النبيّ حزنا؛ عدا (ذهب بسرعة) مرارا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وصل ذروة جبل

لكي يلقي نفسه منه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك وتقرّ نفسه، فيرجع.

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية

كان انقطاع الوحي أياما، ليذهب ما كان النبيّ وجده من الروع، وليحصل له التشوّف إلى العود. عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي، قال: «**فَبَيْنا أَنَا أَمشِيْ إِذْ سَمعتُ صَوتًا منَ السّماء، فرَفَعتُ بَصَري قِبَل السّماء، فإذا المَلَكُ الذي جَاءَني بحراء قَاعِدٌ عَلى كُرسيّ بَيْنَ السّماء والأَرْض**». صحيح البخاري.

عالَمٌ فَقَدَ أسباب الطمأنينة

قبل ظهور محمد؛ كان عالَمًا متداعيًا قد شارف النهاية؛ خلاصة ما يُقال فيه إنه عالَم فقد العقيدة كما فقد النظام؛ أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في كل أشكالها؛ فقد طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلى قوة في الغيب، طمأنينة تنشر العدل، وتحمي الضعف، وتجازي الظالم، وتختار الأصلح والأكمل من جميع الأمور. كما فقد طمأنينة الظاهر التي نشأت من الركون إلى دولة تقضي بالأحكام والقوانين العادلة، فهي لا تفصل بين الأشقياء والأبرياء، ولا تحرس الطريق للمسافرين من اللصوص، ولا تحاسب الطغاة والعائثين بالفساد.

موقف المستشرقين !!

الوحي هو المدخل إلى الإيمان بسائر ما جاء به النبيّ ﷺ؛ ويترتب عليه جميع حقائق الدين، من أجل هذا؛ يهتمّ محترفوا التشكيك بالإسلام التلبيس في حقيقته، والخلط

بينه وبين الإلهام، أو حديث النفس، أو الصرع. وقد تبارى المشرقون، وتنافسوا في إطلاق الكلمات، وسَرَحَ بهم الخيال، فمنهم من تصوّر أن محمدا لم يزل يفكر إلى أن تكونت في نفسه عقيدة، كان يراها الكفيلة بالقضاد على الوثنية، ومن قائل إن محمدا إنما تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب، ومن قائل إنه كان رجلا عصبيا مصابا بداء الصرع!!

إغراء بالجنّة وخمورها وقصورها ونسائها؟!

أما إغراء النبيّ للمسلمين بالجهاد طمعا بلذات النعيم؛ ومتعة الخمر والحور العين، وقصورها ونسائها؛ فلو كان هذا باعثًا للإيمان؛ لكان أحرى الناس أن يستجيب إليه هم فسقة المشركين وفجرتهم؛ وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقائها بعد الموت. فإن حياة النعيم بعد الموت مرغوبة أكثر لدى الأغنياء والأثرياء، ولعلهم أحرص عليها أكثر من المشرّدين الفقراء. هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب مثلا، وهذا ما فيها من الوعيد والإغراء؛ خرج بالسيف ليقتل محمدًا ولم يردّ عليه أحد من المسلمين بسيف، ولا طمع في إسلامه أحد من المسلمين في تلك الساعة، بل كانوا يحسبون كيف يتّقون شرّه. ولم يكن في إسلام الضعفاء والفقراء الذين هم على النقيض من عمر، وأضعف منه بأسًا، لم يكن جبنٌ منهم ولا طمع لهم.

عالم يتطلع إلى حال غير حاله

بيزنطة (روما) قد خرجت من دين النصرانية؛ ثمّ إلى الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك عبئا وشقاء عليها، وتضاءلت سطوتها في البر والبحر؛ حتى طمع فيها من كان

يحتمي بجوارها. وفارس قد سَخِرَ فيها المجوس من دين المجوس! وكمُنت حولها كمائن عرشها، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات. والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة والمستوردة تارة من الحضارة الرومانية وتارة من الفارسية، وتارة من الهمجية، وتارة من التوحيد الزائف إلى الثالوث المقدس. ثم هي بعد هذا التشويه؛ ليست بذات رسالة دينية ولا بذات رسالة في التاريخ؛ ولا بذات عمل باق في سجل الأعمال الباقيات. إنه عالم يتطلع إلى حال غير حاله؛ عالم يتهيأ للتغيير والتبديل أو للهدم؛ ثم ينتظر مرحلة جديدة للبناء.

أما نحن المسلمون، ماذا نقول؟

نقول: لماذا النبيّ محمد ﷺ رأى جبريل بعينيّ رأسه لأول مرة؟ وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب. لماذا قذف الله الرعب في قلبه؟ مع أن مقتضى محبة الله لنبيه أن يلقي السكينة في قلبه، ويربط على فؤاده، فلا يخاف. لماذا خشي النبيّ على نفسه أن يكون هذا الشيء الذي تمثّل له في الغار آتيا من الجن، ولم يرجّح أن يكون ملكا من عند الله؟ لماذا فتر الوحي، ثم نزل مرة ثانية، وكان من مقتضى الوحي أن يستمر دون انقطاع؟ لقد فوجىء النبيّ وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، قائلا له: اقرأ، حتى نتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرا ذاتيا داخليا، مردّه إلى حديث النفس، وإنما هي استقبال وتلقّي لحقيقة خارجية؛ ولقد داخَلَه الخوف مع الرعب مما سمع ورأى، لكي يتضح أن الرسول ﷺ لم يكن متشوّفا أو منتظرا للرسالة التي سيُدعى إلى حملها وبثّها في العالم. ثم إن الإلهام أو حديث النفس الذي يدّعيه هؤلاء لا يستدعي الخوف والرعب، وهذا ينطوي على إبطال كل ما يحاول المشكّكون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة.

المرحلة الأولى من الدعوة

بدأت من مكة في ثلاث سنوات من الدعوة السرّيّة، ومعلوم أن مكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة، والإشراف على الأوثان والأصنام المقدّسة عند سائر العرب، وهذه المرحلة من الإصلاح يزداد فيها عسرا وشدة، فكان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يُفاجأ أهل مكة بما يثير نفوسهم ويهيّج مشاعرهم.

من أسلم في أول يوم

كان من الطبيعي أن يعرض النبيّ ﷺ الإسلام أولا على أقرب الناس به، وأصدقائه، وكل من توسّم فيهم خيرا ممن يعرفونه بتحرّي الصدق والصلاح، وفي مقدمتهم زوجته خديجة، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وكان صبيا يعيش في كفالته، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة.

السابقون الأولون وطليعة الإسلام

نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلا محبوبا سهلا، ذا أدب وخلق، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام. ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني

الحارث، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلي وكثير سواهم، وأولئك هم السابقون الأولون، وهم من جميع بطون قريش، وعدّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرا. ثم دخل الناس في الإسلام تباعا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدّثوا به.

أسلموا سرّاً

أسلم هؤلاء سرا، وكان النبيّ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفّيا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحميَ نزوله بعد نزول أوائل سورة المدثر، وكانت الآيات والسور التي تنزل في هذا الزمان قصيرة، ذات فواصل رائعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو، تشتمل على تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها بأوساخ الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

سبب السرّيّة في بدء الدعوة

لم تكن سرية الدعوة في أول أمرها خوفا من النبيّ ﷺ على نفسه، ولكنه إلهام من الله لتعليم الدعاة من بعده، وإرشادهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة. فالنبيّ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل على الأمر بالمعروف، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه فإنه لا يجوز إنكاره، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة

بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة. فإنكار المنكر أربع درجات. الأولى: أن يزول هذا الشر. الثانية: أن يقلّ هذا الشر. الثالثة: أن ينتج عنه ما هو مثله. الرابعة: أن ينتج عنه ما هو شرّ منه. فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة. ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه! وقلت له: إنّما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس وسبي النساء ونهب الأموال؛ فدعهم. [إعلام الموقعين، ٣/ ١٥].

أول أمر بإظهار الدعوة

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا التفصيل إنما جيء به حين أُمر النبيّ ﷺ بدعوة قومه إلى الله، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجا لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم، وبما سيلقون من معارضة إن استمروا على التكذيب. وأول ما فعل النبيّ بعد نزول هذه الآية؛ أنه دعا بني هاشم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلا. فبادره أبو لهب وقال: وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصّباة. واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة... فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشرّ مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس!!

ثم دعاهم ثانية!

ثم دعاهم ثانية وقال: «**الحمدُ لله أحمدُه، وأستعينُه، وأؤمنُ به، وأتوكلُ عليه. وَأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ له. ثمّ قال: إنّ الرائدَ لا يكذبُ أهلَه وَاللهُ الذي لا إلهَ إلا هو، إنّي رَسولُ الله إليكم خاصّة، وَإلى النّاس عَامّة، وَالله لتمُوتُنّ كما تَنامون، وَلتُبعَثُنّ كَما تَستيَقظون، وَلتُحاسَبُنّ بما تَعْمَلون، وَإنّها الجنّةُ أبدًا أو النّارُ أَبَدَاً**». فقال أبو طالب: ما أَحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحبّ، فامض لما أُمرت به. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب. فقال أبو لهب: هذه والله السَّوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنَمْنَعَنّه ما بقينا.

على جبل الصفا

وبعد ما تأكد النبيّ ﷺ من تعهّد أبي طالب بحمايته، قام يوما على الصفا فصرخ: (**يا صَبَاحَاه**): فاجتمع إليه بطون قريش، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر. وقد روى البخاري طرفا من هذه القصة عن ابن عباس؛ قال: لما نزلت: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ صعد النبيّ على الصفا، فجعل ينادي: (**يا بني فهر!. يا بني عدي!**) لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: (**أرأيتكُم لَو أخبَرتكم أنّ خَيلا بالوَادي تُريدُ أنْ تُغيرَ عَليكُم، أكُنتُم مُصدّقيّ؟**) قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقا، قال: (**فإنّي نذيرٌ لكُم بينَ يديّ عذابٌ شديدٌ**). فقال أبو لهب: تبّا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿**تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ**﴾. صحيح البخاري.

يا معشر قريش: أنقذوا أنفسكم من النار

وروى مسلم طرفا آخر من هذه القصة عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعمّ وخصّ فقال: **«يا مَعشرَ قريشٍ أنقذُوا أنفسكم منَ النّار، يا مَعشرَ بَنِي كَعبٍ أنقذُوا أنفُسَكُم مِنَ النّار، يا فَاطمَةَ بِنْتَ محمّد أنقذِي نَفسَكِ منَ النّار، فإنّي وَاللهِ لا أملِك لكُم مِنَ الله شَيئا، إلا أنّ لكُم رَحماً سَأَبُلّهَا بِبلالِها»**. متفق عليه. هذه الصيحة العالية أوضح بها الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب قد ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله. ولم يزل هذا الصوت يرتجّ مدوّيا في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. فقام رسول الله ﷺ يبعثر خرافات الشرك ويذكر حقائق الأصنام، وأنّ من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال وضياع.

ردود فعل المشركين

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتا يجهر بإنكار الشرك وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادىء، وقامت قريش تستعدّ لحسم هذه الثورة التي اندلعت فجأة، للقضاء على تقاليدها وموروثاتها.

لكن، ماذا سيفعلون أمام رجل صادق؟!

عرفوا كل ذلك جيدا، ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين؟ لم يعرفوا له نظيرا ولا مثيلا خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟ تحيّروا في ذلك،

وحقّ لهم أن يتحيّروا. لم يجدوا سبيلا إلا أن يأتوا إلى عمّه أبي طالب، فيطلبوا منه أن يكفّ ابن أخيه عمّا هو فيه.

ماذا قالوا؟

مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا؛ فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه (ليصدّوه)، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردّهم ردّا جميلا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه.

اجتماع المجلس الاستشاري

خلال هذه الأيام، أهمّ قريشا أمرٌ آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد، حتى لا يكون لدعوته أثرٌ في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أَجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا، ويردّ قولكم بعضه بعضا، قالوا: فأنت فقل، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو منهم. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السّحرَةَ وسِحرَهُم. قالوا: فما نقول؟ أرنا رأيك.

ماذا قال؟

قال لهم الوليد بن المغيرة: أمهلوني حتى أفكر في ذلك، فظلّ الوليد يفكر ويفكر، حتى قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فاتفقوا على ذلك. وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار جلسوا في طرق الناس لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه محمدا، وذكروا لهم أمره.

ماذا ردّ القرآن على هذا القول؟

وفي هذا الرجل، الوليد بن المغيرة؛ أنزل الله تعالى آيات في سورة المدّثّر؛ من خلالها صوّر كيفية تفكيره، فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾. [المدثر:١٨-٢٥].

أبو لهب

والذي تولى التحريض على الرسول محمد هو أبو لهب، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس في الأسواق والمحافل والمناسبات الدينية والأدبية، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب. ولكن ما أبو لهب؟ وما قريش؟ وما العرب؟ وما الدنيا كلها؟ بإزاء رجل يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض، يريد أن يعيد بها الفكر السليم لعالم فقد هذا الفكر. إن الطحالب الناعمة لا توقف السفن الضخمة، فالقافلة تسير والكلاب تنبح؛ أدى ذلك إلى أن انتشر ذكر محمد في بلاد العرب كلها.

كيف نجحت الدعوة؟!

نجحت دعوة الإسلام؛ لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهّدت لها الحوادث، وقام بها داعٍ تهيَّأ لها بعناية ربه وموافقًا أحواله وصفاته، فلا حاجة بها إلى قوى خارقة ينكرها العقل، أو إلى معجزات تلو المعجزات يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء فَهْمًا لمن أحب أن يفهم. فالإسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردّد أعداؤه المغرضون، نريد أن نقول إن محمدًا مع اجتنابه العدوان؛ إلا أنه كان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وإنه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف، ولكنه اجتنبه؛ لأن نظرته إلى الحرب كانت ضرورة بغيضة يلجأ إليها؛ ولا حيلة له في اجتنابها؛ وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر في الذهن بعض الحقائق التي تُظهر لنا الاختلاف بين الدين الإسلامي والأديان الأخرى في مسألة القتال، لنثبت أن للإسلام شأنًا في اجتناب استخدام القوة.

الحقيقة الأولى

أن تشكيك القائلين بأن الإسلام دين حرب وقتال؛ إنّما يُصدق في بداءة عهد الإسلام؛ يوم كان هو المُعتَدى عليه، ولم يَعتدي على أحد؛ وظل كذلك، فإنهم كانوا يقاتِلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. وكانوا يحاربون من لا يُؤْمَنْ عهدُه ولا يُتّقى شرُّه: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]. وقد صبر المسلمون على اعتداء وقهر المشركين سنوات طويلة؛ حتى هاجروا من وطنهم مكة إلى بلاد الحبشة مرتين،

ثم إلى المدينة وبقوا فيها، وصبروا هناك على مطاردة وملاحقة المشركين مرات ومرات. وحروب النبيّ ﷺ كانت كلها حروب دفاع، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع عن النفس؛ بعد أن نكث اليهود العهود، والإصرار منهم على قتال المسلمين، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه أو مع الروم، ففي غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة، وكانوا يحشدون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما انسحبوا انسحب الجيش الإسلامي؛ على ما تكلّف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره.

الحقيقة الثانية

أن الإسلام؛ إنما يُعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تُحارب بالإقناع. ولكن لا يُعاب عليه إذا حارب بالسيف جيشا يقف في طريقه، فمحاربة جيش لجيش بالقوة يختلف عن محاربة جيش لفكرة بالقوة، ولا بد من التمييز بين العملين؛ سادة قريش استخدموا القوة والعنف ضد رسول الله لأنه صاحب فكرة، وآذوه في نفسه وأهله، وتآمروا على قتله ليردعوه عن فكرته، كما آذوا فقراء المسلمين وضعفاءهم وعبيدهم، وجرّوهم إلى الصحارى وعذبوهم ليردعوهم عن فكرتهم، حاصروا محمداً وأهله بني هاشم وبني المطلب سنة سبع من البعثة، حاصروهم في شعب أبي طالب نحو ثلاث سنوات حتى أكلو ورق الشجر وجلود الحيوانات، ثم تآمرت قبائل قريش على قتل هذا النبيّ، فلما انسحب هاربا من مكة لحقوه ليقتلوه،

فماذا يفعل؟ هل يستسلم للموت؟ هل يستسلم أصحابه للموت؟ أم لهم حق للدفاع عن أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمواجهة السيف بالسيف!؟

هؤلاء تصدّوا للمسلمين بالقوة الحديدية

ولما قصد النبيّ ﷺ بالدعوة عظماءَ الأمم وملوكَها وأمراءَها؛ وجدهم قادة جيوش وأصحاب سلطة تأبى العقائد الجديدة، هؤلاء تصدّوا للمسلمين بالقوة الحديدية وتجييش الجيوش، ليس بأفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء؛ فكان ردّ الرسول عليهم بالقوة والحديد أيضا، ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث؛ كما دلّ عليها التاريخ القديم؛ أن القوة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب؛ ومن تلك تجربة فرنسا خلال ثورتها الإصلاحية في القرن الماضي، وتجربة روسيا في القرن الحاضر، وتجارب سائر الدعاة في سائر الدنيا. فمحاربة السلطة العسكرية بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة؛ ولا بد من التمييز بين العملين؛ لأنهما مختلفين.

الحقيقة الثالثة

أن محمد ﷺ لم يحتكم إلى القوة قط إلا في الأحوال التي أجمعت القوانين العسكرية على تحكيم القوة فيها، فالدولة التي يثور عليها من يخالفها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفُضُّ الخلاف

بينهم إن لم تَفُضَّه بقوة السلاح؟ هذا ما قضى به القرآن الكريم أيضًا حيث جاء فيه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر خيار.

الحقيقة الرابعة

الأديان الكتابية بينها فروق، فاليهودية كانت أشبه بالعصبية المحصورة في بني إسرائيل فقط لا الدعوة العامة لجميع الناس، فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها، كما يكره أصحاب القبيلة الواحدة أن يشاركهم غيرهم فيها، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم لتعميم الدين اليهودي وإدخال الأمم الأخرى فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام في هذا الاعتبار. أما المسيحية فهي قد عنيت أولًا بالآداب والأخلاق، ولم تُعن بالمعاملات ونظام الحكومة؛ لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين. وقد ظهرت بعض المعاملات والنظم الحكومية فيما بعد؛ وقوانين الكهّان المدعومون بالقوة للضرورة. أما الإسلام؛ كان ظهوره منذ البداية لإصلاح المجتمع وسنّ القوانين والمعاملات، وتقرير الأمن والنظام في جميع نواحي الحياة، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب الذين كانوا يفتقدون هذا الأمن والنظام؛ بل هم في أمسّ الحاجة إليه، ثم فيما بعد امتدّ وراء الحدود العربية.

الحقيقة الخامسة

أن الإسلام شَرع الجهاد، وأن النبيّ ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بحَقِّ الإسْلَامِ، وحِسَابُهُمْ علَى اللهِ**». صحيح البخاري. وجاء في القرآن الكريم: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى الله أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا والله أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا**﴾ [النساء: ٨٤]. وحدث فعلًا أن المسلمين فتحوا بلادًا غير بلاد العرب، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح. إلا أن هذه الفتوح تأخرت، ولم يتمّ شيء منها قبل استقرار الدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال إنها كانت هي وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكّن في أرضه، واجتمعت له جنود تؤمن به، وتُحارب من أجل الدفاع عنه، وتكفّ عن بلاد المسلمين تلك الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم، كان يجب أن تكفّ الشر الذي يوشك أن ينقضّ من كلتيهما. هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أدنى ما يطلبه منتصر قوي من مهزوم.

الحقيقة السادسة

ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها؛ تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقتناع، فقد استقرّ السلام بين تلك الشعوب ولم يكن لها استقرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام، واطمأنّ الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من الغزاة وقادة

الجيوش القريبة والبعيدة. فإذا قيل إن المدعوِّين إلى الإسلام لم يقتنعوا به في البداية، هذا لا ينفي أنهم اقتنعوا به متأخرين، وأن الإسلام مقنع لمن يحسن الاختيار، إلى جانب قدرته على ردع من يركب رأسه ويقف في طريق النظام والإصلاح. وبالمختصر؛ أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوّغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك، وشتان بين رحمة الإسلام والأديان الأخرى.

درجات المسؤولية

لو أمعنّا النظر في بداية حياة البعثة؛ دعوة سريّة، ثم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ثم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. هذا الترتيب يلمّح إلى درجات المسؤولية المتعلقة بكل مسلم عامة، وأصحاب الدعوة خاصة. فأول درجات المسؤولية هي مسؤولية الشخص من نفسه ونلاحظها في سيرة الرسول في امتداد فترة ابتداء الوحي، تلك المدة الطويلة التي علمناها، أي ريثما يطمئن رسول الله إلى أنه نبيّ مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله، ويوطّن نفسه لقبول كل ما سيتلقاه من مبادىء ونظم وأحكام. وأما الدرجة الثانية: فهي مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذ به من ذويه وأقاربه، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ [التحريم: ٦]. وأما الدرجة الثالثة، فهي مسؤولية الداعية في بلده، ومسؤولية الحاكم عن دولته وقومه، وكل منهما ينوب في ذلك مناب رسول الله.

دار الأرقم

لما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة؛ قابلت قريش دعوته بأساليب شتى، تتلخص فيما يأتي:

١- السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب، والقصد منها: تخذيل المسلمين، وإضعاف قواهم المعنوية.

٢- تشويه تعاليم الرسول ﷺ، وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة حول ذات النبيّ ﷺ وشخصه.

٣- معارضة القرآن بأساطير الأولين، ومحاولة إشغال الناس بها عن القرآن.

٤- مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبيّ ﷺ بعض ما هو عليه.

لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلا

ولما رأى المشركون أن هذه الأساليب لا تجدي لهم نفعا في كف الدعوة الإسلامية، اجتمعوا وكونّوا لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلا، وبعد التشاور والتفكير اتخذت اللجنة قرارا حاسما: محاربة الإسلام، وإيذاء رسول الإسلام، وتعذيب الداخلين فيه، هنا لجأ المسلمون إلى مكان بعيد عن أعين المشركين يتعبدون فيه. نتج عن ذلك اضطهادات منع رسول الله ﷺ المسلمين إعلان إسلامهم جهرا قولا أو فعلا، وأن لا يجتمع بهم إلا سرا؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا ربما يُفضي ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل وقع ذلك فعلا في السنة الرابعة من النبوة، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلّون فيها سرا، فرآهم نفرٌ من كفار

قريش، فسبّوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا منهم فسال دمه، وكان أول دم أهريق في الإسلام.

ما الحكمة من ذلك؟

معلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت؛ لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة الاختفاء، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم. أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرا؛ نظرا لصالحهم وصالح الإسلام، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي على الصفا. وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، فكان أن اتخذها مركزا لدعوته، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة.

القائد البصير

لم يكن الإسلام إذن دين قتال، ولم يكن النبيّ رجلًا مقاتلًا يطلب الحرب من أجل الحرب، أو يطلبها ولديه خيار السلم، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير؛ إذا وجبت عليه الحرب ودعته إليها المصلحة للضرورة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالتعلم والدورات العسكرية، ذلك في اختيار الوقت المناسب لتسيير جيشه ورسم خططه، وقد يكون الأخذ بالمشورة من دلائل حسن القيادة تقترن بالمرونة والابتكار؛ لأن القيادة الناجحة هي التي تستفيد من خبرة الخبير الذي سبقه في هذا المجال، كما تستفيد من شجاعة الأبطال، وهي التي تجمع قوى الآراء

والقلوب والأجسام. وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي في إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة أصحابه حين اقترح عليهم الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه، ثم وَعَى من تجربة واحدة ما قلَّ أن يَعِيَهُ القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى، فلو تتبّع حروبه ناقد عسكري من عباقرة فنّ الحرب في العصر الحديث؛ لِيقترح عليه مقترحًا أو يرشده إلى خطأ؛ لأعياه ذلك. ونجد نابليون بونابرت وهو أبرز القادة المعاصرين إتبع الأسلوب الغالب في العصور الماضية، والذي ظهر في الحرب العالمية الأولى، يبيّن لنا إتباع خطط النبيّ العسكرية، ومضاهاة هذا القائد العظيم.

عبر ودلالات

يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وهذا مشروط بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية إضرارا بالدعوة الإسلامية؛ أو تغييرا لبعض أحكام الدين، أو سكوتا عن اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجُز للمسلم الدخول فيها. دليل ذلك: موقف النبيّ حينما رفض العرض الذي قدّمه عمه أبو طالب بالتنازل عن دعوته؛ وألّا يحمّله مالا يطيق، ودليل جواز الاستجارة: استجارة النبيّ بالمطعم بن عدي يوم رجع من الطائف، وكان هذا الرجل مشركا.

اضطهاد المسلمين والتفكير با لهجرة

كانت بداية الاضطهادات في السنة الرابعة من النبوّة ضعيفة، ثم لم تزل يوما فيوما حتى اشتدّت وتفاقمت في السنة الخامسة، حتى أوعزتهم الحاجة أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم. وفي هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة

الكهف، تُرشدهم إلى الهجرة من مراكز العدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلا على الله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

الأرض لله يورثها عباده الصالحين

قصص كثير في القرآن؛ فيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضدّ المسلمين ستنعكس تماما، وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء؛ وأن الله لا يزال يبعث من عباده بين آونة وأخرى؛ من يقوم بإنجاء الضعفاء؛ وأن الأحق بإرث الأرض إنّما هم عباد الله الصالحون. ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله واسعة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

الهجرة الأولى إلى الحبشة

كان النبيّ ﷺ قد علم أن ملك الحبشة (أصحمة النجاشي) ملك عادل، لا يُظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الفتن. وفي سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان يضمّ اثني عشر رجلا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله، وقد قال النبيّ فيهما: إنّهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام. كان رحيل هؤلاء تسللا في ظلمة الليل خوفا من قريش؛ خرجوا إلى البحر، وهيأت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطيء كانوا قد انطلقوا، وأقام المسلمون عند ملكها في أحسن ضيافة.

لم يتمالك أحدٌ نفسه حتى سجدوا

في رمضان من نفس السنة خرج النبيّ ﷺ إلى الحرم، وهناك جمع كبير من قريش، كان فيه ساداتها وكبراؤها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم، أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله من قبل، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضا، من قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلامٌ إلهيٌّ رائع، بقي كل واحد مصغيا إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]. ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى سجدوا معه، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخرّوا لله ساجدين.

هل آمنوا بعد ذلك؟

لا، لم يؤمنوا، بل لما انتبهوا أخذتهم العزة بالإثم، ذلك لما أحسّوا أن عظمة كلام الله لوى رقابهم؛ ارتكبوا جريمة الاستمرار في محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك افتروا على النبيّ وكذبوا عليه، واخترعوا تبريرا أنه مدح أصنامهم بكلمة، وأنه قال عنها: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى»، جاءوا بهذا الإفك المبين، ليعتذروا عن سجودهم مع النبيّ.

أثر هذه القصة على مهاجري الحبشة

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة مختلفة تماما عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشا أسلمت، فرجعوا إلى مكة من نفس السنة، فلما كانوا قبل وصولهم مكة ساعة من نهار، وعرفوا حقيقة الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيا، أو في حماية رجل من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

ثم اشتد على المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وكان صعُب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم يَرَ النبيّ ﷺ بُدّاً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وكانت هذه الهجرة الثانية أشقّ من سابقتها، فقد تيقّظت لها قريش، وقرّرت إحباطها، بَيْدَ أنّ المسلمين كانوا أسرع، ويسّر الله لهم السفر بسهولة، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة؛ ووصلوا إليه قبل أن يُدْرَكوا. وفي هذه المرّة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا، وثمان عشرة امرأة.

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة

لم يقبل المشركون أن يجد المسلمون مأمنا لأنفسهم، فاختاروا رجلين أقوياء، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة- قبل أن يسلما- وأرسلوا معهما الهدايا الثمينة للنجاشي وبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا، وزوّداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمين، اتّفقوا مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، ثم قالوا له: أيها الملك، إنه قد دخل إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد جاءك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فأسلمهم إليهم.

ماذا كان ردّ الملك النجاشي؟

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنا ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟ قال جعفر بن أبي طالب: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وأدبه، فدعانا إلى الله ونترك ما كنا نعبد من الحجارة والأوثان، وأَمرنا بصدق الحديث، وأَداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأَمرنا أن نعبد الله وحده، فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه؛ فاعتدى علينا قومُنا، فعذبونا ليردّونا إلى عبادة الأوثان؛ فلما قهرونا وظلمونا خرجنا إلى بلادك، واخترناك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

هل معك مما جاء به من شيء؟

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم! فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ؛ فقرأ عليه صدرا من ﴿كهيعص﴾ فبكى النجاشي حتى تبللت لحيته، وبكت أساقفته حتى تبللت أناجيلهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، انطلقا، فلا والله لا أسلّمُهُم إليكما.

قالوا: إنهم يقولون في المسيح قولا عظيما

فلما كان الغد؛ قال البطارقة للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح أنه عبد الله وليس ابن الله، فأقرّوا ذلك وأجمعوا على الصدق كائنا ما كان، وأقرّهم النجاشي على هذا القول، فهاجت بطارقته، ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي؛ ثم قال لحاشيته عن وفد قريش: ردّوا عليهما هداياهما لا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الرشوة، فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءوا به، وأقام المسلمون عنده بخير وأمان.

النجاشي استخدم حيلة!

اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظَفرتُ فاثبتوا. ثم كتب رسالة ذكر فيها: هو يشهد أن لا إله إلا لله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله، ثم أخفاها في مكان فوق الكتف الأيمن، وخرج إلى قومه فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحقّ الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقتَ ديننا، وزعمتَ أن عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله، فوضع النجاشي يده على كتفه الأيمن ثم قال: وأنا أشهد؛ لم يزد على هذا شيئا، كأنه يشهد على قولهم، وإنما يعني ما كتب، وبهذا تخلص من معاداة قومه، فرضوا منه وانصرفوا عنه.

إخفاق المهمة

أُخفقت حيلة المشركين، وفشلت مكائدهم ضد المسلمين، وعرفوا أنهم لا يملكون نفوذهم إلا في حدود بلادهم، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة! رأوا أن التخلص من هذه المصيبة لا يمكن إلا بكفّ النبيّ ﷺ عن دعوته والتوقف عنها تماما، وإلا فبإعدامه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وعمّه أبو طالب يحميه؟

سادات قريش يهدّدون أبا طالب

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك منزلة وشرفا فينا؛ وإنا قد منعناك أن تحمي ابن أخيك وأنت تحميه، وإنا لا نصبر على هذا، يشتم آباءنا، ويستخفّ أحلامنا، ويعيب آلهتنا، لا نكفّ عنه حتى تكفّه عنا، أو نتصادم وإياك في ذلك حتى يهلك أحدّ الفريقين. عظم هذا الوعيد والتهديد على أبي طالب، فبعث إلى النبيّ وقال له: يا ابن أخي؛ إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فَأَبْقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، فظنّ رسول الله ﷺ أن عمّه خذله، وأنه تراجع عن نصرته، فقال: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، ثم عزّت عليه نفسه وبكى، وقام، فلما ولّى ناداه أبو طالب؛ فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلّمك لشيء أبد.

هذا والله ما لا يكون أبدا

في أواسط السنة السادسة من النبوة، لما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله؛ وأنه أجمع على عداوتهم في ذلك، ذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة

وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أجمل فتى في قريش، فخذه واتّخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أطعمه وأسقيه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبدا، واصنعوا ما بدا لكم.

فكرة إعدام النبيّ ﷺ

بعد فشل قريش وخيبتهم؛ عادوا إلى تنكيلهم بأشدّ مما كان من قبل، وخلال هذه الأيام نشأت في طغاتهم فكرة إعدام النبيّ بطريقة أخرى، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي كانت سببا في تقوية الإسلام ببطلين من أبطال مكة، وهما: حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

قتلني محمد وهو بمكة، وأنا بالشام

فمن تلك الضراوة أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوما إلى النبيّ ﷺ فقال: أنا أكفر ب ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ وبالذي ﴿دَنا فَتَدَلَّى﴾ ثم تسلط عليه بالضرب وشق قميصه، وتفل في وجهه، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبيّ وقال: «**اللهُمّ سَلّطْ عَليهِ كَلباً مِنْ كِلاَبِك**»، وقد استجيب دعاء النبيّ ﷺ، فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويلي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة، وأنا بالشام، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

إذا سجد في صلاته ضربه بالحجر

ذُكر أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان. ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتل النبيّ ما رواه ابن إسحق في حديث طويل، قال: قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنّ له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد.

ثمّ ماذا حدث؟!

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس النبيّ ينتظره، وغدا النبيّ ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله؛ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما مرعوبا قد يبست يداه، وقام إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثله ولا مثل أنيابه، فهمّ بي أن يأكلني. قال رسول الله ﷺ: «**ذلكَ جبريلُ عَليه السّلامُ لَو دَنا لأَخَذَه**». ما فعله أبو جهل هذا، أدّى إلى إسلام حمزة عمّ الرسول ﷺ.

أتقتلون رجلا أن يقول ربّي اللّه؟

أما طغاة قريش؛ فلم تزل فكرة الإعدام تنضج في قلوبهم، روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتُهُم وقد اجتمعوا، فذكروا رسول الله فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع النبيّ فأقبل يمشي، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه النبيّ، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله؟ ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشا نالوا منه قط.

وضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص؛ أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبيّ، قال: بينا النبيّ ﷺ يصلي في حِجر الكعبة؛ إذ أقبل عُقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبيّ، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟

إسلام حمزة بن عبد المطلب

أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة، خلال هذا الجو الملبد بأنواع الظلم والطغيان؛ وقد أضاء أسلامه نورا للمقهورين، أما سبب إسلامه أن أبا جهل مرّ برسول الله يوما، فآذاه، ورسول الله ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في

رأسه حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، وكانت امرأة من قريش ترى ذلك، ولما أقبل حمزة أخبرته بما رأت، فغضب حمزة، وكان أشدّ وأقوى فتى في قريش، فخرج يسعى يبحث عن أبي جهل، فلما دخل المسجد الحرام ورآه قال له: تشتم ابن أخي؟ ثم ضربه بالقوس حتى سال دمه، فثار بنو مخزوم وهم قوم أبي جهل؛ وثار بنو هاشم وهم قوم حمزة؛ فقال أبو جهل: دَعُوه فإني سَبَبْتُ ابن أخيه سبّا قبيحا. أسلم حمزة عمّ الرسول، وكان إسلامه أمرا عظيما، تفاخر به المسلمون أيّما افتخار.

إسلام عمر بن الخطاب

خلال هذا الجوّ نفسه الملبد بأنواع الظلم، أضاء بريق آخر أشدّ من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم سنة ست من النبوة. بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة. وكان النبيّ قد دعا الله لإسلامه. عن ابن مسعود وأنس أن النبيّ ﷺ قال: «**اللهُمّ أعزّ الإسلامَ بأحبّ الرّجلينِ إليكَ: بعُمَر بن الخطّاب؛ أو بأبي جَهلٍ بنَ هشَام**». فكان أحبّهما إلى الله عمر. أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وصححه.

بقايا نزعات جاهلية

خلاصة الروايات في إسلام عمر، أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبيّ قائم يصلي، وقد استفتح سورة الحاقة؛ فجعل عمر يستمع إلى القرآن ويعجب منه، قال: فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ**﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]. قال: قلت: كاهن. قال فقرأ: ﴿**وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾ [الحاقة:٤٢]. إلى آخر السورة. قال فوقع الإسلام في

قلبي. لكن كانت بقايا النزعات الجاهلية والتعاظم بدين الآباء غالبة على قلبه، فبقي مستمرا في عمله ضد الإسلام.

أريد أن أقتل محمدا

كان من حدّة طبعه وفرط عداوته لرسول الله أنه خرج يوما شاهرا سيفه، يريد القضاء على النبيّ ﷺ، فلقيه رجل من بني مخزوم فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدا قال: كيف تأمن من بني هاشم وقد قتلت محمدا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك؟ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وزوجها قد أسلما، فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة يقرأ سورة طه، اختبأ خباب وسترت فاطمة أخت عمر الصحيفة، فقال له صهره: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر ليقتله، فجاءت أخته ورفعته عن زوجها فضربها عمر بيده، وسال الدم من وجهها، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.

قال حمزة: إن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه

فلما يئس عمر، ورأى أخته يسيل منها الدم ندم واستحى، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك نجس، ولا يمسّه إلا المطهّرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**». ثم قرأ سورة طه، فقال: ما أحسن هذا الكلام؟! دلوني على محمد. أشهر عمر سيفه ثم انطلق حتى أتى دارا فيها الرسول ﷺ، فضرب الباب، فقام رجل ينظر فرآه شاهرا سيفه، فأخبر رسول الله، واستثار القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، فقال:

وعمر؟! افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد شرّا قتلناه بسيفه، خرج رسول الله إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وجبذه جبذة شديدة فقال: أما أنت منتهيا يا عمر. ثم قال: اللهمّ هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فكبّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل الحيّ.

أثر إسلام عمر على المشركين

عن عمر قال: لما أسلمتُ تذكّرتُ أيّ أهل مكة أشدّ لرسول الله عداوة؛ قلت: أبو جهل، فأتيتُ حتى ضربتُ عليه بابه فخرج إليّ، وقال: أهلا وسهلا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد. فضرب الباب في وجهي، وقال: قبّحك الله، وقبّح ما جئتَ به. قال عمر: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت حين أسلمت إلى خالي وهو العاصي بن هاشم فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش فأعلمته فدخل البيت.

أثر إسلام عمر على المسلمين

أما بالنسبة إلى المسلمين؛ روى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب، لأي شيء سُمّيْتَ الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام؛ ثم قصّ عليه قصة إسلامه وقال في آخره: قلت حين أسلمت يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «**بلى! والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متّم وإن حييتم**»، قال:

قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنّ، فأخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرتْ قريش إلينا، فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها، فسمّاني رسول الله الفاروق يومئذ. وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر. وعن صهيب بن سنان الرومي قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، وصرنا ندعو إليه علانية، ونطوف حول البيت ونجلس حلقا. وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر.

عتبة بن ربيعة يحاور الرسول ﷺ

بعد إسلام هذين البطلين حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، أخذت الأمور تتضح، وأَفاق المشركون عن سكرهم في إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين، وحاولوا مساومة أخرى مع النبيّ ليكفّوه عن دعوته، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا. عتبة بن ربيعة كان سيدا، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، قال يوما: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه؟ وأعرض عليه أمورا فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله يَكثرون ويَزيدون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله فقال: يا ابن أخي، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: **«قل يا أبا الوليد أسمع»**.

ماذا قال أبو الوليد؟

قال: يا ابن أخي، إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا أو مُلكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا (هاجسا) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه: قال: «**أَوَقَدْ فرغتَ يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاسمع مني**»، قال: أفعل، فقال: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ**﴾ [فصلت:١-٥]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنتَ وذاك؛ فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

ماذا ردّ؟

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصبه قبائل العرب فقد كفيتموه

بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

الرّد على المستشرقين

ومع هذا، فقد بقي البعض ممن احترف الغزو الفكري يؤْثر القول بأن محمدا كانت له دوافع سياسية، وكانت رغبته في السيادة والملك، وممن قال هذا القول من المستشرقين، (كريمر) الألماني، و(فان فلوتن) الهولندي. والرد عليهم واضح من خلال قصة عتبة بن ربيعة، ومن جواب النبيّ ﷺ: **«مَا جئْتُ بمَا جئْتُكُم بهِ أطلُبُ أموَالكَمْ وَلا الشّرفَ فيكُمْ وَلا المُلكَ عليَكُمْ، وَلكنْ اللهَ بَعَثَني إليكمْ رَسُولا، وَأنزلَ عليّ كتابًا، وَأمَرَني أنْ أكُونَ لكُم بَشيرًا ونَذيرًا، فإنْ تَقبَلُوا منّي مَا جئتُكمْ بهِ، فهُو حظّكُم في الدّنيا وَفي الآخرَة، وإنْ تردّوهُ عَليّ أصبر لأمرِ الله حَتّى يحكُمَ اللهُ بَيني وَبَينكُم»**.

ماذا يفعل أبو طالب مع هذا التهديد الواسع!؟

بالرغم من تغيّر مجرى الظروف وتبدل الأوضاع والأحوال، لكن أبا طالب لم يزل يتوجّس من المشركين خيفة على ابن أخيه، إنه كان ينظر في الحوادث الماضية أن قريشا هددوه، ثم حاولوا مساومته بأبن أخيه ليقتلوه، وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه، وإن عقبة بن أبي معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله، وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضي على ابن أخيه؛ كان أبو طالب يتدبّر في هذه الحوادث، ويشمّ منها رائحة شرّ يرجف له فؤاده، وتأكد عنده أن أسياد قريش عازمون على قتل ابن أخيه، وما يغني حمزة أو عمر أو غيرهما مع هذا التهديد الواسع!؟

فماذا يفعل أبو طالب إذن؟!

إنه لما رأى تآلب وتكالب قريش على ابن أخيه؛ قام في أهل بيته من بني هاشم وبني المطلب وبني عبد مناف، ودعاهم إلى حماية ابن أخيه، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم، حمية للجوار العربي، إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارَقَهَم، وكان مع قريش.

مقاطعة بني هاشم وعبد المطلب

سببها: وقعت أربع حوادث ضخمة بالنسبة إلى المشركين خلال أربعة أسابيع، منها: أسلام حمزة، ثم أسلام عمر، ثم رفض محمد مساومتهم، ثم تواثق بنو المطلب وبنو هاشم كلهم مسلمهم وكافرهم على حماية محمد، احتار المشركون، وحق لهم أن يحتاروا، إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد يسيل وادي مكة بدمائهم، بل ربما يُفضي ذلك إلى استئصالهم. عرفوا ذلك فانحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل، ماذا فعلوا؟

تحالفوا على بني هاشم وبني المطلب

اجتمعوا في بني كنانة، فتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق: أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل. قال ابن القيم: كتبها بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله فشُلّت يدُه. تمّ هذا الميثاق، وعُلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب، وحُبسوا في شعب أبي طالب سنة سبع من البعثة.

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب

اشتدّ الحصار، وقُطعت عنهم مواد التموين والأغذية، فلم يكن المشركون يتركون طعاما يدخل مكة إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغ النبيّ ومن معه الجوع، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرّا؛ وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء. وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحا إلى عمته خديجة وقد تعرّض له مرة أبو جهل ليمنعه، فتدخّل رجل من قريش ومكّنه من ذلك.

أبو طالب يخاف على رسول الله

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناسُ مضاجعهم يأمر رسول الله أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحدَ أبنائه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله، ثم أمر رسول الله فيما بعد أن ينام في مكان آخر.

نقض صحيفة الميثاق

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، وفي سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق، وذلك أن قريشا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارها لها. وكان القائم بذلك هشام بن عمرو، وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيا بالليل بالطعام. وبعد أن دار الكلام بين القوم

وبين أبي جهل، قام رجل إلى الصحيفة ليشقّها، فوجد الأرضة (حشرة الأرض) قد أكلتها إلا «باسمك اللهم». وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله. تم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ومن معه من هذا الحصار البغيض.

صور من واقع الحصار الاقتصادي

كان الصحابة إذا قَدِمت قافلة إلى مكة، يأتي أحدُهم السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله، فيقوم أبو لهب، فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن، لا خسارة عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع أحدهم الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيُربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعُرِيّا.

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ وقومه من حصار الشعب، وقريش لم يزالوا يعملون بالضغط على المسلمين بالطرق السياسية، أما أبو طالب فهو لم يزل يحمي ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات؛ لا سيما حصار الشعب؛ قد أضعفت قواه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهرا معدودة، وإذا هو يلاحقه المرض، وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبيّ بين يديه، ويعطوه ويرضوه أكثر مما كان من قبل، فقاموا بوفادة أخيرة إلى أبي طالب.

ماذا قالت قريش؟

قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعُمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فتعيّرُنا به العرب، يقولون تركوه، حتى إذا مات عمه قتلوه. مشوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم؛ وهم خمس وعشرون تقريبا فقالوا: يا أبا طالب، قد حضرك ما ترى، وتخوّفنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر.

ماذا كان جواب الرسول؟

قال لهم رسول الله ﷺ: «**أرأيتُم إن أعطيتكم كلمة تكلمتُم بها، ملكتُم بها العرب، ودانت لكم بها العجم**»، قال: وإلى ما تدعوهم؟ قال: «**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين له بها العرب، ويملكون بها العجم**»، فلما قال هذه المقالة، توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية، ثم قال أبو جهل: ما هي؟ لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: «**تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجب. ثم تفرقوا. وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ**﴾ [ص:٥].

عام الحزن

وفاة أبي طالب، كانت سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من حصار الشعب بستة أشهر، وقيل: توفي قبل وفاة خديجة بثلاثة أيام. وفي الصحيح: أنّ أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبيّ وعنده أبو جهل، فقال: «**أيْ عَمْ، قُلْ: لا إلهَ إلا الله، كلمة أُحَاجّ لكَ بهَا عندَ الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء: على ملة عبد المطلب. فقال النبيّ ﷺ: «**لأستغفرَنّ لكَ مَا لمْ أُنهَ عَنْك**»، فنزلت: ﴿**ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ**﴾ [التوبة: ١١٣]. ونزلت: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص: ٥٦].

صحيح البخاري.

ما مصيره؟

لا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من حماية النبيّ ﷺ، فقد كان الحصن الذي يحتمي به النبيّ والدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبيّ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: (**هُوَ فِي ضَحضَاحٍ مِنْ نَار، وَلوْلا أنَا لَكَانَ فِي الدّرْكِ الأسفَلِ منَ النّار**). صحيح البخاري.

خديجة إلى رحمة الله

بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين؛ توفيت أم المؤمنين خديجة، كانت وفاتها في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من

عمره. إن خديجة كانت من نعم الله على رسول الله، بقيت معه ربع قرن تحنو عليه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتواسيه بنفسها ومالها، كان النبيّ ﷺ إذا ذكَرَ خَديجةَ، قال: (**ما أبدَلَني اللهُ عزَّ وجلَّ خَيرًا منها، قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ، ورزَقَني اللهُ عزَّ وجلَّ ولَدَها إذ حرَمَني أولادَ النِّساءِ**). صحيح البخاري. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: «**أتَى جبْريلُ النبيّ ﷺ، فقال: يا رَسُول الله هذِهِ خديجة قَدْ أتَت مَعَها إناء فيهِ إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هيَ أتتكَ فاقرَأ عَليْها السّلام منْ ربّها، وَبشِّرها بِبَيْتٍ في الجنّة مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فيهِ وَلا نَصَب**». صحيح البخاري.

حادثتان مؤلمتان

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه، فقد كانوا تجرّأوا عليه، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب، فازداد غمّا على غمّ، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ ناصرا، وآذوه مع ذلك أشدّ الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه. ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله من الأذى، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سماه رسول الله عام الحزن، وبهذا اللقب صار معروفا في التاريخ.

إيذاء المشركين للنبيّ ﷺ بعد وفاة عمه

روى البخاري عن ابن مسعود قال: بينا رسول الله يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا (أوساخ) جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه. فلما سجد النبيّ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا؛ بعضُهم يميل على بعض، والنبيّ ساجد ما يرفع رأسه، حتى جاءت ابنته فاطمة وهي صغيرة فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم.

اللهمّ عليك بقريش

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته؛ رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات، وإذا سأل سأل ثلاثا. ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاثا، فلما سمعوا ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته. ثم قال: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**». فو الذي بعث محمدا بالحق، لقد رأيت الذين سمّاهم صرعى يوم بدر. الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد. تحمل النبيّ الأذى، ولكنه أخذ يفكر في التوجه برسالته إلى بلدة أخرى، علها تكون أفضل، فاستصحب معه زيد بن حارثة، وولى وجهه شطر ثقيف في الطائف.

الرسول ﷺ في الطائف

سنة عشر من النبوة الموافق ٦١٩ م. خرج النبيّ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلا، سارها ماشيا على قدميه ذهابا وإيابا، ومعه مولاه زيد بن حارثة،

وكان كلما مرّ على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تُجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها)، إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا غيرك؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا. وأقام رسول الله بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالحجارة حتى سالت قدماه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه جرح في رأسه.

الدعاء المشهور

لم يزل به السفهاء حتى ألجأوه إلى حائط؛ وأتى رسول الله إلى شجرة من عنب، فلما جلس تحت ظلها واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنا مما لقي من الشدة، أسفا على أنه لم يؤمن به أحد، قال: **(اللَّهُمَّ إِلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك)**.

غلام نصراني

فلما رآه ابنا ربيعة دعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، وقالا له: خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله مدّ يده إليه قائلا: «باسم الله»، ثم أكل. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، من أهل «نينوى». فقال رسول الله من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبيّ، فأكبّ عداس على رأس رسول الله ويديه ورجليه يقبلها. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.

ملك الجبال يستأمره!

رجع رسول الله في طريق مكة بعد خروجه من الطائف كئيبا محزونا مكسور القلب، فبينما هو عائد بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يُطبق الأخشبين على أهل مكة. والأخشبان: هما جبلا مكة، قال النبيّ ﷺ: **(بَل أرجُو أن يُخرِج اللهُ عزّ وَجلّ منْ أصلابِهِم مَنْ يَعبُدَ اللهَ عَزّ وَجلّ وَحدَهُ لا يُشرِكْ بِهِ شَيئا)**. صحيح البخاري. وفي هذا الجواب تتجلى شخصيته، وما كان عليه من الخلق العظيم.

هناك بعث اللّه إليه نفرا من الجن

أفاق رسول الله ﷺ واطمأن قلبه؛ ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أياما. وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة لما بهما من الماء والخصب،

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرا من الجن، ذكرهم الله في موضعين من القرآن، في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]. وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾ [الجن:١٥].

في جوار مطعم بن عدي

سار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلا من خزاعة إلى رجل من قريش ليجيره فرفض، ثم إلى رجل آخر فرفض، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح، فإنّي قد أَجَرْتُ محمدا، ثم بعث إلى رسول الله: أن ادخل، فدخل رسول الله ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام وصلى ركعتين، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجُهُ أحد منكم، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وبنوه محدقون به يحملون السلاح حتى دخل بيته.

عرض الإسلام على القبائل

سنة ١٠هـ- ٦١٩ م، عاد رسول الله إلى مكة ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولاقتراب الموسم، كان الناس يأتون إلى مكة من كل فج عميق لقضاء فريضة الحج، فانتهز رسول الله هذه الفرصة، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم

الإسلام، ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة. وكانت قبائل كثيرة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، فلم يستجب منهم أحد!! وهذه القبائل لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة، ولا في موسم واحد، بل إنما كان في سنوات كثيرة.

كيف ردّت عليه القبائل؟

بنو كلب: أتى النبيّ ﷺ إلى بطن منهم يُقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وتقرّب منهم، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه.

بنو حنيفة: أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم!!

وأتى إلى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، فقال رجل منهم: لا حاجة لنا بأمرك!!

من غير أهل مكة

كما عرض رسول الله الإسلام على القبائل والوفود؛ وعلى الأفراد والأشخاص، وآمن به عدة رجال؛ منهم: سويد بن صامت؛ كان شاعرا حكيما من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل، لشرفه ونسبه، جاء مكة حاجا أو معتمرا، فدعاه رسول الله إلى الإسلام، فقال: لعلّ الذي معك مثل الذي معي؛ معي حكمة لقمان. فقال له رسول الله ﷺ: الذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم. كان هذا في أوائل سنة ١١ من النبوة.

إياس بن معاذ

ومنهم أيضا إياس بن معاذ؛ كان غلاما من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج، وذلك في أوائل سنة ١١ من النبوة، فلما

علم رسول الله بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: أيْ قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم له، فأخذ رجل كان في الوفد حفنة من تراب فرمى بها وجه إياس غاضبا، وقال: دعنا منك، لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله، وانصرفوا إلى المدينة، وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن أسلم، وكان يهلل ويكبر ويحمد، ويسبح عند موته.

أبو ذر الغفاري

كان من سكان يثرب. روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلا من غفار، فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبيّ، يأمر بالخير، وينهى عن الشر، ثم أقبلتُ إلى مكة، فجعلتُ لا أعرفه، وأكرهُ أن أسأل عنه، فمرّ بي عليّ بن أبي طالب فقال: كأنّ الرجل غريب؟ قلت: نعم. فانطلقتُ معه، لا يسألني عن شيء، ثم قال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت له: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبيّ الله، فأردت أن ألقاه. فقال له: ادخل حيث أَدخل، ومضيتُ معه حتى دخل، ودخلتُ معه على النبيّ، فقلت له: إعرض عليّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك. فقلت: لأصرخنّ بها.

ضربوه حتى كادوا يقتلوه!

يقول أبو ذرّ: فجئت إلى المسجد فقلت: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء. فقاموا، فَضُربتُ لأموت، فأدركني العباس، ثم أقبل عليهم فقال، ويلكم تقتلون رجلا من غفار؟

ومتجرُكم وممرّكم على غفار. فأقلَعوا عنّي، فلما أن أصبحتُ الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فصُنع بي ما صُنع بالأمس، فأدركني العباس، وقال مثل مقالته بالأمس.

طُفيل بن عمرو الدّوسي

كان رجلا شريفا في قومه؛ شاعرا رئيس قبيلة دوس، وكان لقبيلته إمارة في نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلّ تحية وأكرم التقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد فرّق شملنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرّق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلّ بنا، فلا تكلمه ولا تسمعنّ منه شيئا.

قال: ما يمنعني أن أسمع ما يقول؟

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، فغدوت إلى المسجد الحرام، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقلت في نفسي: ما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته، فاتّبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ثم سماع بعض كلامه، فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه، فأسلمت، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا له. وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورا في وجهه مثل المصباح، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأسلم معه سبعون أو ثمانون بيتا من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسنا، وقُتل شهيدا.

ضماد الأزدي

كان من اليمن، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، فلقيه، فقال رسول الله ﷺ: (**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد**). فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات، فقال: لقد سمعتُ قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه.

يخرج إلى القبائل في ظلام الليل !

وفي موسم الحج من سنة ١١هـ/ ٦٢٠ م وجدتْ الدعوة الإسلامية بذورا صالحة، وكان من حكمة النبيّ ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب؛ أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يدركه أحد من أهل مكة المشركين. خرج ذات ليلة ومعه أبو بكر وعليّ، فمرّ على قبائل وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل منهم أسئلة وردود طريفة، غير أنهم توقفوا عن قبول الإسلام.

ستة نفر من شباب يثرب

ثم مرّ رسول الله على ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، وابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن رئاب، وكان من

سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من اليهود أن نبيا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان، سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه!

أفلا تجلسون أكلمكم؟

فلما لحقهم رسول الله قال لهم: من أنتم، قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي اليهود؟ أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا. ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها اسم محمد.

حادثة الإسراء والمعراج

اختلف المؤرخون في السنة التي وقعت فيها هذه الحادثة على أقوال منها: قيل: كانت في السنة الأولى التي بعثه الله فيها، وقيل: كانت بعد البعثة بخمس سنين، وقيل: كانت سنة ١٠ من النبوة، وقيل غير ذلك. ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء. أما سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء كان متأخرا جدا.

تفاصيل هذه الحادثة

روى أئمة الحديث تفاصيل هذه الحادثة. وفيما يلي نسردها بإيجاز:

قال ابن القيم: أُسري برسول الله بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في فلسطين بأرض الشام، راكبا على البراق، صحبة الملك جبريل، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماما، وربط البراق بحلقة باب المسجد

الأقصى في بيت المقدس، ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فرأى هنالك آدم أبا البشر، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فرأى فيها أنبياء الله يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها نبيّ الله يوسف، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها نبيّ الله إدريس، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها النبيّ هارون بن عمران، ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها نبيّ الله موسى، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاما بُعث من بعدي يُدخل الجنة من أمته أكثر مما يَدخلها من أمتي. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها نبيّ الله إبراهيم، فسلم عليه، ورحّب به، وأقرّ بنبوته. ثم رُفع إلى سدرة المنتهى، ثم رُفع له البيت المعمور. ثم عُرج به إلى الله الجبار جلّ جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة.

قال موسى : إن أمتك لا تطيق ذلك

فرجع النبيّ حتى مرّ على موسى، فقال له: بِمَ أمرك؟ قال بخمسين صلاة: قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أنْ نَعَم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه فوضع عنه عشرا، ثم أُنزل حتى مرّ بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييتُ من ربي، ولكني أرضى وأُسلّم.

هل رأى رسول الله ربّه؟

ذكر ابن القيم خلافا في رؤية النبيّ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلاما لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلا، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة.

هل رأى جبريل على صورته الحقيقية؟

قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]. فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه النبيّ ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

ماذا رآى أيضا؟

رأى ضمن هذه الرحلة أمورا عديدة منها: عُرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هُديتَ الفطرة، أو أَصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غَوَتْ أمّتك. ورأى أربعة أنهار في الجنة: نهران ظاهران، ونهران باطنان، والظاهران هما: النيل والفرات، ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطّن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلا بعد جيل، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة. ورأى (مالك) خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بِشْرٌ وبشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار. ورأى أكلة أموال اليتامى ظلما، يَقذفون في أفواههم قطعا من نار، فتخرج من أدبارهم. ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم، ويمرّ بهم آل فرعون فيطأونهم. ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غثّ منتن، يأكلون من الغثّ المنتن، ويتركون الطيب

السمين. ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن.

ما موقف قريش والمشركين؟

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاّه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردّوا عليه شيئا، وأخبرهم عن عيرهم وقوافلهم في ذهابه وإيابه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا. يُقال سُمّي أبو بكر صدّيقا؛ لتصديقه هذه الحادثة حين كذّبها الناس.

هل كان الإسراء والمعراج بالجسد والروح؟

قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: والحقّ الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين أن النبيّ أُسرى بجسده، والآثار تدل على ذلك، وقال ابن حجر في شرحه على البخاري: إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة. ومن الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح معا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ فكلمة «عبد» تُطلق ويُراد بها الإنسان الكامل جسدا وروحا.

ثمّة دليل آخر ظهرت به قريش !!

كما أن استعظام مشركي قريش للإسراء والمعراج، وتعجّبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له، إذْ لو كانت المسألة مسألة رؤيا، لما تعجّبوا أو استنكروا مسيرة شهر ذهابا وشهر إيابا إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ولما سألوا النبيّ ﷺ عن هذا المسجد وصفاته وأبوابه وسواريه!!

أهل الأرض تخلوا عنه ، والسماء تفتح له أبوابها

كما أن ثمة دلالات وعبر يمكن استنتاجها من هذه الحادثة؛ لقد عانى رسول الله ﷺ ألوانا كثيرة من المحن التي لاقاها من المشركين، وكانت آخرها ما عاناه لدى هجرته إلى الطائف. فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريما من الله تعالى له، وتجديدا لعزيمته وثباته، فإذا كان أهل الأرض قد تخلوا عنه فإن السماء تفتح له أبوابها. وتُبدّل ضعفَه إلى قوة، وقلة الحيلة إلى حسن التدبير، والهوان على الناس إلى إكرام من الله.

بيعة العقبة الأولى

ذكرنا أن ستة نفر من شباب أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله إبلاغ رسالته في قومهم. وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي سنة ١٢ من النبوة / ٦٢١ م، اثنا عشر رجلا، فيهم خمسة من الستة، وسبعة سواهم وهم: معاذ بن الحارث، وذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة ؛ الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج. اتصل هؤلاء برسول الله عند العقبة بمنى، فبايعوه.

على ماذا بايعوه؟

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فَمَن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعناه على ذلك.

مصعب بن عمير سفير الاسلام في المدينة

وبعد أن تمت البيعة، وانتهى الموسم، بعث النبيّ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب، ليُعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويُفَقّههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مصعب بن عمير العبدري.

لم تكن نطقا بالشهادتين فحسب

إحدى عشرة سنة من التعب والجهاد والصبر، وكان من السهل على الله أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدون هذا التعب، ولكن تلك هي سنّة الله في عباده. فبنود البيعة الأولى لم تكن نطقا بالشهادتين فحسب، بل هي سلوك وتصرف في حياة الفرد مع الآخرين، وهذه هي غاية العبادة ومقصودها، كما بيّن الله عز وجل ذلك في كل عبادة، إذ قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. كما أن مهمة الدعوة ليست قاصرة على الأنبياء وحدهم، بل هي مهمة كل مسلم.

بيعة العقبة الثانية (الكبرى)

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة سنة ٦٢٢م، حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون رجلا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم وهم لم يزالوا في يثرب، أو كانوا في الطريق إلى مكة؛ حتى متى نترك رسول الله يُطرد في جبال مكة ويخاف؟ فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبيّ اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يتجمّعوا، وأن يتمّ هذا الاجتماع في سرّيّة تامة في ظلام الليل.

اجتماع تاريخي في صراع الوثنية والإسلام

أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي، الذي حوّل مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام، يقول كعب بن مالك الأنصاري: خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم أمرنا عن قومنا من المشركين، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا، فأسلم، وشهد معنا هذا الاجتماع.

اجتماع وسط الظلام

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل مستخفين وسط الظلام، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب أم عمارة من بني النجار، وأسماء بنت

عمرو من بني سلمة. فاجتمعنا في أطراف مكة ننتظر رسول الله حتى جاءنا، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، وكان أول تكلم.

بداية المحادثة

بعد أن تكامل المجلس؛ بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله. تكلم ليشرح لهم بكل صراحة خطورة المسؤولية التي ستُلقى على أكتافهم نتيجة هذا التحالف. قال: «يا معشر الخزرج (الأنصار)، إن محمدا منا، وقد منعناه من قومنا، فهو في عزّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن دعوه. قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمّل هذه المسؤولية العظيمة، وتحمّل عواقبها الخطيرة. وألقى رسول الله بعد ذلك بيانه، ثم تمّت البيعة.

بنود البيعة

روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصّلا. قال جابر: قلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل؛ وعلى النفقة في العسر واليسر؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم

في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

هل ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال كعب: نعم، والذي بعثك بالحق نبيّا لنمنعنّك مما نمنع أنفسنا منه، فبايِعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، ورثناها كابرا عن كابر. قال: فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال (يعني اليهود) حبالا (أي علاقات)، وإنا قاطعوها؛ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدّم الدّم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّي، أُحارب من حاربتم، وأُسالم من سالمتم.

التأكيد من خطورة المسؤولية

وبعد أن تمت المحادثة وأجمعوا على الشروع في عقدها، قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا، ليؤكدا للقوم خطورة المسؤولية، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية؛ قال العباس بن عبادة بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهكت أموالكم مصيبة، وأَشرافكم قتلا أَسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. قال جابر: فقمنا إليه رجلا رجلا نبايعه، يعطينا بذلك

الجنة. وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الاجتماع فكانت قولا؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

انتخاب اثني عشر نقيبا

وبعد أن تمّت البيعة، طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثني عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أَخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم. فتم انتخابهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. ولما تمّ انتخاب هؤلاء أخذ عليهم النبيّ ميثاقا آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين. قال لهم: أنتم على قومكم كفلاء، وأنا كفيل على قومي (يعني المسلمين)؛ قالوا: نعم.

لم تكن مجرد عواطف تزول على مرّ الأيام

لم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مرّ الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله، إيمان لا يزول أمام أيّ قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبّت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجّلوا على أوراق الدّهر أعمالا، ويتركوا عليها آثارا، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

تأسيس أول وطن للإسلام

وبعد أن تمّت بيعة العقبة الثانية، نجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة، وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته، ثم أذن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن. لم يكن معنى الهجرة إهدار المصالح

والتضحية بالأموال والنجاة بالنفس فحسب، بل هو السير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخّض عنه من قلاقل وأحزان. بدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم، لما كانوا يحسّون من الخطر.

أبو سلمة

كان من أول المهاجرين أبو سلمة؛ هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج أخذ أصهاره منه زوجته، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم فقالوا: لا نترك ابننا معها وأخذوا الغلام منها بالقوة فخلعوا يده وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل صباح إلى الجبال تبكي حتى المساء، ومضى على ذلك نحو سنة، فعطف لها أحد ذويها وقال: هذه المسكينة؟ فرّقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها وخرجت تريد المدينة في رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا، وليس معها أحد!!

صهيب الرومي

لما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

عيّاش

تواعد عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة ليهاجرا من مكة، ولما اقتربا من المدينة؛ قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش وأمهم كانت واحدة، فقالا له: إن أمك قد

نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرقّ لها. فقال له عمر: يا عياش، أنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ويخدعوك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت، فأبي عياش إلا الخروج مع إخوته عائدا إلى أمه في مكة، حتى إذا كانوا بالطريق استخدم أبو جهل معه الحيلة كما توقع عمر، فأناخ عياش ناقته ليتحول عليها، فلما استوى بالأرض هجما عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا بالحبال، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا. بقي عياش سجينا لدى المشركين في بيت لا سقف له حتى تم تحريره بالحيلة.

ترْك الأهل والوطن والمال

خرج المسلمون من مكة يتبع بعضهم بعضا يرحلون إلى المدينة ؛ وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى، لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله وأبو بكر وعليّ؛ ومن احتبسه المشركون كرها. وقد أعدّ رسول الله نفسه ينتظر الرحيل، وأعدّ أبو بكر نفسه. وقد انتقلوا من فتنة الإيذاء والتعذيب، إلى فتنة ترك الوطن والمال.

هدف الهجرة

الهدف الأول: التخلص من إيذاء المشركين وملاحقتهم.

الهدف الثاني: التعاون على إقامة مجتمع إسلامي جديد في بلد آمن.

الهدف الثالث: البدء بالعمل على نشر الدعوة إقليميا وعالميا.

حُكم الهجرة

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام واجبة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها، فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧]. ولا تعارُض بين هذا وبين قوله ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح»** إذ إنه مخصوص بزمن النبيّ.

خطر حقيقي عظيم

لما رأى المشركون أصحاب رسول الله قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الأهل والأطفال والأموال إلى المدينة، وقعت فيهم ضجّة أثارت القلاقل والأحزان، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسّد أمامهم الخطر الحقيقي العظيم الذي يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي، وكانوا يعلمون ما في شخصية محمد من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من استعداد، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة الأعوام السابقة.

الموقع الاستراتيجي للمدينة

كما كان قادة المشركين يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى الطرق التجارية التي تمرّ بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويا، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها.

برلمان قريش في دار الندوة

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد هو محمد. وفي سنة ١٣ من النبوة، الموافق سنة ٦٢٢ م؛ أي بعد شهرين ونصف تقريبا من بيعة العقبة الكبرى؛ عَقَدَ برلمانُ مكة (دار الندوة) في أوائل النهار أخطر اجتماع له في تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعا على حامل لواء الدعوة الإسلامية، وتقطعها عن الوجود نهائيا.

أهم الشخصيات القيادية في هذا الاجتماع

كانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش: أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم. جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر، عن بني نوفل بن عبد مناف. شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس بن عبد مناف. النضر بن الحارث؛ وهو الذي كان ألقى على رسول الله أحشاء ذبيحة عن بني عبد الدار. أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام عن بني أسد بن عبد العزى. نبيه ومنبّه ابنا الحجاج، عن بني سهم. أمية بن خلف، عن بني جمح. ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، ووقف على الباب، فقالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بكم فحضر معكم ليسمع ما تقولون، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلماني

بعد أن تكامل الاجتماع؛ بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلا. قال أبو الأسود: نُخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وأُلفتنا فيما بيننا وعادت كما كانت.قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغَلَبَته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب، فيتابعوه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأيا غير هذا. قال أبو البختري: احبسوه في قيد من الحديد، وأغلقوا عليه بابا حتى يموت. قال الشيخ النجدي: لا والله؛ لئن حبستموه ليخرجنّ أمره إلى أصحابه فينزعوه من أيديكم، فانظروا في غيره.

أبو جهل وقرار قتل النبيّ ﷺ

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين؛ قدّم إليهم أبو جهل بن هشام كبير مجرمي مكة اقتراحا آثما وافق عليه جميع أعضائه، قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا، نعطيه سيفا، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فقبل المجتمعون هذا الاقتراح فورا.

هجرة النبيّ محمد ﷺ

لما تمّ اتخاذ القرار الدموي بقتل النبيّ؛ نزل إليه جبريل بوحي ربه، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدّد له وقت الهجرة قائلا: لا تبت هذه الليلة على فراشك. وذهب النبيّ إلى أبي بكر ليُبرم معه مراحل الهجرة. قالت عائشة: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر أتانا رسول الله مقنّعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: والله ما جاء به في هذه الساعة إلا لأمر. فدخل، فقال النبيّ لأبي بكر: **«إِنِّي قَدْ أُذِنَ لِيْ فِي الخُرُوجِ»**، فقال أبو بكر: الصحبة؟ يعني: تريد مني أن أصاحبك؟ قال رسول الله: **«نعم»**. صحيح البخاري. وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله إلى بيته ينتظر مجيء الليل.

حصار منزل الرسول ﷺ

أما أكابر مجرمي قريش؛ فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة في دار الندوة صباحا، واختير لذلك أحد عشر رئيسا من هؤلاء الأكابر، وكبيرهم أبو جهل بن هشام. حاصروا بيته؛ فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام، فيثبّون عليه ويقتلوه، كانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة.

أبو جهل يتحدّث في سخرية واستهزاء

وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبا لأصحابه الذين يحاصرون بيت رسول الله في سخرية واستهزاء، قال: إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره

كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم نارٌ تُحرقون فيها.

باتوا متيقظين ينتظرون تنفيذ العملية

كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، يفعل ما يشاء. فقد فعل ما خاطب به الرسول فيما بعد: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الرسول محمد ﷺ يغادر بيته

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم؛ فقد فشلوا فشلا ذريعا. ففي هذه الساعة الحرجة قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب ابن عمه: نَمْ على فراشي، فإنه لن يصيبك شيء تكرهه منهم، ثم خرج الرسول واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من التراب ورماها على رؤوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [ياسين: ٩]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا من فتحة في دار أبي بكر ليلا حتى لحقا بغار ثور؛ على بعد نحو أربعة كيلو مترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام.

المحاصِرون ينتظرون ساعة الصفر!!

بقي المحاصِرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقُبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم فقال: ما تنتظرون؟ قالوا محمدا. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مرّ بكم وخرج، وذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم. ولكنهم تطلعوا من خُرم الباب فرأوا عليا، فقالوا: والله إنّ هذا لمحمد نائما، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا.

استخدم الحيلة والخداع

لما كان النبيّ ﷺ يعلم أن قريشا ستجدّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالا، فقد سلك الطريق الذي يضادّه تماما، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن. سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهذا جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله، وقيل: بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره، وأيا ما كان؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتدّ به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل، عُرف في التاريخ بغار ثور.

إذْ هُما في الغار

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل ووجد في جانبه ثقبا فسدّه، ثم قال لرسول الله: ادخل. فدخل رسول الله ووضع رأسه في حجره ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله ولم يتحرك

مخافة أن ينتبه رسول الله، فسقطت دموعه على وجهه فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال لُدغت، فتفل رسول الله فذهب الوجع. وبقيا في الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد.

عبد الله بن أبي بكر

كان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب، يصبح مع قريش يسمع مكائدها ثم يأتيهما بخبر ذلك في الظلام. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنما له، فيشربان من ألبانها ساعة العشاء، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليُخفي أثره.

قريش جُنّ جنونها

أما قريش؛ فقد جُنّ جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله صباح ليلة تنفيذ المؤامرة. فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليّا، وحبسوه؛ ولما لم يحصلوا من عليّ على جدوى، جاءوا إلى بيت أبي بكر وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري؟ فرفع أبو جهل يده (كان لئيما) فلطم خدها، وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق في جميع الجهات تحت الرقابة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيّين أو ميتين، كائنا من كان.

معجزة!!

حينئذ؛ جدّت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، وقد وصل المطارِدون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبيّ ﷺ في الغار فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبيّ الله؛ لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما، وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيّه، فقد رجع المطارِدون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات.

في الطريق إلى المدينة

حين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرة قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله وصاحبُه للخروج إلى المدينة. كانا قد استأجرا رجلا ماهرا بالطريق، وكان على دين كفار قريش، وأمّناه على ذلك، فلما كانت ليلة الإثنين بداية ربيع الأول سنة ١ هـ/ ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢ م، جاءهما الرجل. وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بالطعام والماء، ونسيتْ أن تجعل لها ما تربطهما به، فشقت نطاقها (قطعة من ملابسها) باثنين، فسُمّيت ذات النطاقين.

طريق لم يألفه الناس!!

ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه على طريق الساحل؛ أمعن أولا باتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس؛ اتجه شمالا على مقربة من شاطىء البحر الأحمر، وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا.

سراقة بن مالك

وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك من بني كنانة، للحصول على جائزة مائتي ناقة التي وعدت بها قريش، وكان ممن عُرف باقتفاء الأثر في الجاهلية، قال سراقة: رأيت محمدا وأصحابه؛ فعرفتُ أنهم هم، حتى دنوتُ منهم، فعثرتْ بي فرسي فخررتُ عنها، فقمتُ، حتى إذا سمعتُ قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكثر الالتفات؛ ساختْ يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررتُ عنها، ثم زجرتُها فنهضتْ، فلم تكد تُخرج يديها، فلما استوتْ قائمة وجدتُ لأثر يديها غبارا في السماء مثل الدخان، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبتُ فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي أن الله سينصر رسوله، وعرضت عليهم الطعام والماء فلم يسألاني.

أبو بريدة الأسلمي

وفي الطريق لقي النبيّ ﷺ أبا بريدة من بني أسلم، وكان رئيس قومه، خرج في طلب النبيّ وأبي بكر؛ رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التي كانت قد أعلنت عنها قريش، ولما واجه رسول الله وتحدّث معه؛ أسلم مكانه؛ مع سبعين رجلا من قومه.

وصول المدينة

في السنة الأولى من الهجرة الموافق ٦٢٢ م، نزل رسول الله بقباء، قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله من مكة، فكانوا يخرجون كل صباح إلى أطراف المدينة ليتنظروه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فرجعوا يوما بعد ما أطالوا الانتظار، فلما أووا إلى بيوتهم،، بصر أحدُهم برسول الله وأصحابه، فلم يملك رجل يهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدّكم الذي تنتظرون، وكبّر المسلمون، وخرجوا للقائه.

كان يوما مشهودا

كانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، لقد كان يوما مشهودا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها؛ حتى إذا وصل أحدق المهاجرون به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، وجلس رسول الله صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله يبحثون عنه بين الناس ولا يعرفوه، حتى أصابت الشمس رسول الله، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه ردائه، عند ذلك عرف الناس أنه رسول الله.

ذلك محمد بن عبد اللّه

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره؛ لأنها محتاجة إليه، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟ أن يكون قومُه بحاجة إليه؛ ومجتمعُهُ وبلدُه والعالمُ أجمع، وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع؟ فإذا اجتمعت هذه العلامات، فلماذا نحتاج إلى علامات أخرى؟ وإذا تعذّر عليها أن تجتمع؛ فأيّ علامة غيرها تنوب عنها؟ لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجرًا أمينًا ناجحًا موثوقًا به في سوق التجار. ولو اشتغل زعيمًا في قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد. فالذي أعدّه له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحد قد أُعدّ في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أُعدّ لها أكمل إعداد.

عليّ هاجر ماشيا على قدميه !!

مكث عليّ بن أبي طالب بمكة ثلاثة أيام بلياليها، حتى أدّى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، مِنْ ذَهَبٍ وَمَالٍ وغيره؛ فقد كان أهل مكة يلقّبون الرسول

بالصادق الأمين؛ ثم هاجر عليٌّ ماشيا على قدميه (نحو ٤٨٠ كيلو مترا) حتى لحقهما بقباء، خرج مهاجراً لوحده يمشي في الليل ويختبئ في النهار ويستريح، وكان يومها في الثانية والعشرين من عمره، قيل إنه من كثرة المشي والتعب وطول السفر تورّمت قدماه حتى نزف منهما الدم، فالسفر سيرًا على الأقدام أمرٌ صعب، وذلك بسبب طول الطريق في أصعب الظروف، كان الحُجّاج في قديم الزمان يذهبون إلى مكة مشيًا على الأقدام، وكانت تصل فترة السفر من مكة إلى المدينة ١٠٠ ساعة متواصلة أو أكثر، فإذا اعتبرنا ساعات الليل فقط دون النهار أو العكس، حسب حاجة الجسم للراحة، فإن هذه المسافة الطويلة قد تحتاج إلى عشرة أيام على الأقل، في طرق صحراوية غير مأهولة بالبشر وأسباب الحياة.

أول مسجد في الإسلام

أقام رسول الله بقباء أربعة أيام؛ وأسس مسجد قباء وصلّى فيه، وهو أول مسجد في الإسلام، فلما كان اليوم الخامس؛ يوم الجمعة؛ ركب النبيّ وأبو بكر معه، وأرسل إلى بني النجار (أخواله) فجاؤوا متقلّدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل.

الدخول إلى المدينة

وبعد الجمعة دخل رسول الله المدينة؛ ومن ذلك اليوم انتقل اسم يثرب إلى اسم مدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها باسم (المدينة المنورة)، أو اسم (المدينة) مختصرا، وكان ذلك اليوم تاريخيا، فقد كانت البيوت والطرقات ترتجّ بأصوات التهليل والتحميد، والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة؛ إلا أن كل واحد منهم

كان يتمنّى أن ينزل رسول الله عليه. فكان لا يمرّ بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته؛ فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة (من ربّها)، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركتْ، فنزل عنها.

زوجته وبنتاه فاطمة وأم كلثوم

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر. قالت عائشة: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فجئت رسول الله فأخبرته، فقال: **اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ حبا، وبارك في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة**. صحيح البخاري. إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ وهو الدور المكي.

أبو بكر احتملَ مالَه كلَّه

عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله؛ نحو(٥٠٠٠-٦٠٠٠) درهما، قالت: فدخل علينا جدّي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه، قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا، قالت: فأخذت أحجارا فوضعتها في كوّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبتِ (أي جدّي) ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، قال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، قالت: والله ما ترك لنا شيئا، ولكني أردتُ أن أُسكت الشيخ (جدّي) بذلك.

لم تكن عملا عشوائيا ارتجاليا

إن هجرة النبيّ ﷺ لم تكن عملا عشوائيا ارتجاليا، وإنما كانت خطة حكيمة متكاملة تمت في غاية الحكمة والأناة؛ فقد اشترك في رحلة الهجرة ستّ لجان:

١- **لجنة تموينية:** تعدّ الطعام للمهاجرين، وهي أسماء بنت أبي بكر.

٢- **لجنة تموهية:** للنوم في فراشه، وهو علي بن أبي طالب.

٣- **لجنة إعلامية:** لنقل أخبار قريش وتحركاتهم، وهو عبد الله بن أبي بكر.

٤- **لجنة تضليلية:** لمحو آثار الأقدام إلى الغار، وهو عامر بن فهيرة.

٥- **لجنة إرشادية:** للدلالة على الطريق، وهو عبد الله بن أبي أريقط.

٦- **لجنة المرافقة:** للقيام بخدمة النبيّ، وهو أبو بكر الصديق.

الخطبة الأولى في المدينة

كَانَتْ أَوَّلُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعدَ وُصولِهِ المدينة، قَال:

«أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ. تَعَلَّمُنَّ وَاللَّهِ لَيُصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ لَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ، وَآتَيْتُكَ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ؟ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا، ثُمَّ لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ. فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقٍّ مِنْ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

أول من وصل من أهله للمدينة

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر. قالت عائشة: لما قدم رسول الله المدينة؛ أصاب بعضَ المسلمين حمّى يثرب، وكان ممن أصيب، أبو بكر وبلال، فجئتُ رسول الله فأخبرته، فقال: **(اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ حبا، وبارك في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة)**. صحيح البخاري. إلى هنا انتهى قسم من حياته؛ وهو الدور المكي.

بناء المسجد النبوي

أول نزول رسول الله ﷺ بالمدينة كان في بني النجار (اخواله) يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م، نزل في أرضٍ أمام دار أبي أيوب الأنصاري. وأول خطوة خطاها النبيّ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي، ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وساهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل الطين والحجارة، وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء، وكانت في ذلك المكان قبور المشركين، وكان فيه بيوت خربة ونخل وشجرة من غرقد، فأمر رسول الله بقبور المشركين فنُبشت، وبالخرب فهدمت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصُفّت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعل سُقُفَه من جريد النخل، وفُرشت أرضُه بالرمال والحصباء، وجُعلت له ثلاثة أبواب، طوله مائة ذراع، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع؛ وبنى

بيوتا إلى جانبه من الحجر واللبن، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها للسكن فيها. صحيح البخاري.

قاعدة وبرلمان لإدارة جميع الشؤون

لم يكن بناء هذا المسجد موضعا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية. وكان مع هذا كله؛ دارا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

صوت الآذان لأول مرة

في أوائل الهجرة شُرع الأذان، ذلك الصوت الذي دوّى وما زال يدوّي في الآفاق حتى اليوم، صوتٌ مرتفع ومستمر خمس مرات كل يوم لا ينقطع على مدى ٢٤ ساعة في أنحاء العالم، يرتجّ لسماع هذا الصوت أنحاء عالم الوجود من الإنسن والجنّ والملائكة. وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بهذا الصدد معروفة. رواها الترمذي وأبو داود وأحمد وابن خزيمة.

المؤاخاة بين المسلمين

كما قام النبيّ ﷺ ببناء المسجد كمركز التجمع والتآلف؛ قام أيضا بعمل آخر من أروع ما شهده التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. قال ابن القيم: ثم آخى رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين

رجلا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على التعاون والمواساة، وتقاسم الممتلكات والأموال، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]. ردّ التوارث، مع بقاء الأخوّة. ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بأدبه وأخلاقه وتقواه. وقد جعل النبيّ هذه الأخوّة عملا وسلوكا لا لفظا فارغا، ولا كلاما تثرثر به الألسنة. وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين من التضحية والإيثار، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم، فلم يستغلّوه إلا بقدر الحاجة فقط.

ميثاق التحالف الإسلامي

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية، والنزعات القبلية، ولم يترك مجالا لتقاليد الجاهلية، جاء فيها: هذا كتاب من محمد النبيّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، وأهمّ بنودها ملخصا: أن أمة المسلمين أمة واحدة من دون الناس؛ وأنهم مهما اختلفوا فيه من شيء، فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى رسوله محمد.

أثر المعنويات في المجتمع

بهذه الحكمة، وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، وكان النبيّ يتعهد هذا المجتمع بالتعليم والتربية وتزكية النفوس، والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدّبهم بآداب الودّ والإخاء، والمجد والشرف، والعبادة والطاعة.

نماذج من معاني الإسلام في المجتمع الجديد

سأله رجل: أيّ الإسلام خير؟ قال ﷺ: **«تُطعِمُ الطّعَامَ، وَتُقرىءُ السّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»**. صحيح البخاري. قال عبد الله بن سلام: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة جئتُ؛ فلما تبينتُ وجهَه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: **«يا أيّها النّاسُ أفشُوا السّلام، وَأطعمُوا الطّعَامَ، وَصِلُوا الأرحَامَ، وَصَلّوا باللّيلِ وَالنّاس نيَام، تَدخُلوا الجنّة بسَلام»**. رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي.

وكان يقول: **«لا يَدخُل الجنّة مَنْ لا يَأمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَه »**. رواه مسلم.

ويقول: **«المسلمُ مَن سَلمَ المسلمُون منْ لسَانِهِ وَيَدِه »**. صحيح البخاري.

ويقول: **«لا يُؤمنُ أحدُكُمْ حتّى يُحِبَّ لأخيه مَا يحبّ لنَفسه»**. صحيح البخاري.

ويقول: **«المؤمنُون كَرَجل وَاحد، إنِ اشْتكَى عَينَه اشْتكى كُلّه، وَإنِ اشْتكى رَأسُه اشْتكى كُلّه»**. رواه مسلم.

ويقول: **«المؤمنُ للمُؤمن كالبُنيان يَشُدّ بَعضَهُ بَعضا»**. متفق عليه.

ويقول: **«لا تَباغَضوا، وَلا تحاسَدوا، وَلا تَدابَروا، وكُونُوا عبادَ الله إخوَانا وَلا يحلّ لمسلم أنْ يهجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلاثة أيام»**. صحيح البخاري.

ويقول: **«المسلمُ أخُو المسلمِ لا يَظلمُهُ وَلا يُسلمُهُ، ومَن كانَ في حَاجة أخيهِ كَانَ اللهُ في حَاجته، وَمَن فرّج عَنْ مُسلم كُربَةً فرّجَ اللهُ عَنْهُ كُربةً من كُرُبات يَوم القيامَة، وَمَنْ سَتَرَ مُسلما سَتَرَه اللهُ يَومَ القيامَة»**. متفق عليه.

ويقول: **«ارحمُوا مَن في الأرض يَرحمكم مَن في السّماء»**. سنن أبي داود وجامع الترمذي

ويقول: **«ليسَ المؤمنُ بالذي يَشبَعُ وجَارُهُ جَائعٌ إلى جَانبه»**. صحيح البخاري

ويقول: «**سبابُ المؤمنُ فسوقٌ، وَقتالُهُ كُفر**». صحيح البخاري

وكان يجعل: إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ويعدّها شعبة من شعب الإيمان. متفق عليه.

الدعوة إلى الانفاق وعدم البخل

كان الرسول ﷺ يحثّ المسلمين في المجتمع الجديد على الإنفاق، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب، فكان يقول: «**الصّدَقةُ تُطفىءُ الخطايا كَمَا يُطفىءُ الماءُ النّار**». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. ويقول: «**أيما مُسلمٌ كسَا مُسلما ثَوبا عَلى عُريّ، كسَاه اللهُ من خُضر الجنة، وَأيّما مُسلمٌ أطعمَ مُسلما عَلى جُوع أطعَمَهُ اللهُ من ثمار الجنّة، وأيّما مُسلمٌ سَقى مُسلما عَلى ظَمأ سَقاه اللهُ من الرّحيق المختوم**». سنن أبي داود، وجامع الترمذي.

ويقول: «**اتّقُوا النّار وَلَو بشقّ تَمرة، فإنْ لمْ تَجد فَبكَلمَةٍ طَيّبة**». صحيح البخاري.

الاستعفاف عن سؤال الناس

وبجانب هذا كان يحثّ حثّا شديدا على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر فضائل الصبر والقناعة، كان يعدّ المسألة كدوحا أو خدوشا أو خموشا في وجه السائل. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي. اللهم إلا إذا كان مضطرا.

أعلى قمّة من الكمال عُرفت في تاريخ البشر

كما كان يحدّث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله، وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطا موثقا يقرؤه عليهم، ويقرؤونه، لتكون هذه الدراسة إشعارا بما عليهم من حقوق الدعوة، وتبعات الرسالة، فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر. وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم، وزوّدهم بأعلى القيم

والأقدار والمُثُل، حتى صاروا صورة لأعلى قمّة من الكمال عُرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء.

استطاع أن يضع حلا لمشاكل المجتمع

ثم إن هذا الرسول القائد العظيم محمد ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، بما جعلته تهوي إليه الأفئدة، وتتفانى عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته إلى امتثالها، وما يأتي برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلي به. بمثل هذا استطاع النبيّ أن يبني في المدينة مجتمعا جديدا، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلا تتنفس له الإنسانية هواء نقيا، بعد أن كانت تعبت في غياهب الزمان ودياجير الظلمات. وبمثل هذه المعنويات الشامخة؛ تكاملت عناصر المجتمع الجديد؛ حتى صرف وجهتها، وحوّل مجرى التاريخ والأيام.

معاهدة مع اليهود

بعد أن هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة، ووثِقَ من رسوخ قواعد بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين في المجتمع الجديد، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان همّه في ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي. وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود، وهم وإن كانوا يُبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا

أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التي تمّت بين المسلمين أنفسهم.

أهم بنود المعاهدة

ومن أهم بنود المعاهدة: أن اليهود أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم.والنصر للمظلوم. وإنه ما كان بين أهل هذه المعاهدة من شجار أو خلاف فإنّ مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله. وإن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب. وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، ورئيسها رسول الله، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام. ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبيّ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب الظروف.

الكفاح الدّامي

استمرت استفزازات قريش ضدّ المسلمين بعد الهجرة، مع ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين، وما فعلوا بهم عند الهجرة، مما استحقّوا لأجلها التصادم والقتال، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيّهم وغيظهم، ويمتنعوا عن عدوانهم، بل زادهم غيظا أن فاتهم المسلمون، ووجدوا مأمنا ومقرّا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس الأنصار قبل وصول النبيّ، كان أهل يثرب مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكا على أنفسهم؛ لولا أن

هاجر النبيّ وآمنوا به، كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات قاسية: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتُقاتلنّه أو لتُخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

اجتمعوا لقتال النبيّ

وبمجرّد بلوغ هذا الكتاب، قام عبد الله بن سلول ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة، وقد كان يحقد على النبيّ محمد، لمّا رآه يسلب منه ملكه، اجتمع ابن سلول ومن كان معه من عبدة الأوثان لقتال النبيّ، فلما بلغ ذلك النبيّ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبيّ تفرّقوا. وامتنع عبد الله بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك؛ لما رأى رشدا في أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشرّ بين المسلمين والمشركين، وكان يضمّ إليه اليهود أو ينضمّ إليهم ليعينوه على ذلك.

الصدّ عن المسجد الحرام

انطلق سعد بن معاذ إلى مكة معتمرا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من معك؟ فقال: هذا سعد، فقال أبو جهل لسعد: أراك تطوف بمكة آمنا؛ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالما، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشدّ عليك منه؛ طريقك إلى المدينة.

قريش تهدد المهاجرين

ثم إن قريشا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم في عقر داركم. ولم يكن هذا كله وعيدا مجرّدا، فقد تأكد عند رسول الله من مكائد قريش وإرادتها على الشرّ. عن عائشة قالت: سهر رسول الله أول مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئتُ أحرسه، فدعا له رسول الله، ثم نام. صحيح مسلم.

كان ذلك أمرًا مستمرّا

ولم تكن هذه الحراسة مختصّة ببعض الليالي؛ بل كان ذلك أمرا مستمرا، فقد رُوي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلا، حتى نزل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]. فأخرج رسول الله رأسه من القبة، فقال: «**يا أيّها النّاسُ انصرفُوا عنّي فقَد عَصَمَني اللهُ عزّ وَجَلّ**». جامع الترمذي. ولم يكن الخطر مقتصرا على رسول الله وحده، بل على المسلمين كافة، فقد روى أبيّ بن كعب، قال: لما قدم رسول الله وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، عاداهم العرب جميعا، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه.

الإذن بالقتال

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، والتي كانت تنبىء عن قريش أنهم لا يفيقون عن شرّهم وعدوانهم، ولا يمتنعون عن تمرّدهم بحال،

أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يكن من قبل يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. نزل الإذن بالقتال، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف التي مبعثها الوحيد هو قوة قريش وتمرّدها؛ أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدّية من مكة إلى الشام.

دوريات عسكرية استطلاعية

بدأ المسلمون النشاط العسكري فعلا بعد نزول الإذن بالقتال، وقاموا بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها هو الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدّية إلى مكة، وعقْد المعاهدات مع القبائل التي تسكن على هذه الطرق، وإشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، وإنذار قريش عُقبى طيشها، حتى تفيق عن غطرستها التي لا تزال تتوغل في أعماقها، وعلّها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن تعذيب المسلمين المستضعفين في مكة، حتى يصير المسلمون أحرارا في إبلاغ رسالة الإسلام في ربوع الجزيرة.

سريّة سيف البحر

وقعت في رمضان سنة ١ هـ الموافق سنة ٦٢٣م، أمّر رسول الله على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلا من المهاجرين، يعترض قافلة لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر ناحية

البحر الأحمر؛ التقوا واصطفّوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتتلوا.

سيف البحر: موقع على ساحل البحر الأحمر من ناحية العِيص.

سريّة رابغ

وقعت في شوال سنة ١ من الهجرة؛ أبريل سنة ٦٢٣م، بعث رسول الله عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكبا من المهاجرين، فلقي أبا سفيان وهو في مائتين على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال. وفي هذه السريّة انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين، خرجا مع الكفار؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين.

رابغ: تقع في غرب السعودية، بين مدينة جدة ومحافظة ينبع، وتبعد عن جدة حوالي ١٤٠ كيلومترا في اتجاه الشمال.

سريّة الخرّار

وقعت في ذي القعدة سنة ١ هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث رسول الله سعد بن أبي وقاص في عشرين راكبا، يعترضون عيرا لقريش، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخرار، فوجدوا العير قد مرّت بالأمس.

منطقة الخرّار: أو وادي نعمان، هو أحد أكبر أودية المملكة العربية السعودية، يقع في الجهة الشرقية لمكة المكرمة.

غزوة الأبواء

وقعت في صفر سنة ٢ هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله ﷺ بنفسه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة، في سبعين رجلا من المهاجرين خاصة، يعترض عيرا لقريش حتى بلغ (الأبواء- ودان)، فلم يلق أحدا يقاتله. وفي هذا

الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشي الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهاك نص المعاهدة: هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، وإن النبيّ إذا دعاهم لنصره أجابوه. وهذه أول غزوة غزاها رسول الله، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

الأبواء: تقع قرب منطقة ودّان بين مكة والمدينة جنوب غربيّ المدينة، تبعد عن مكة نحو ٢٠٠ كيلو مترا.

غزوة بواط

وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض قافلة لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي؛ ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطا ولم يلق كيدا أو أحدا يقاتله؛ واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ.

بواط: قرية تقع شمال غرب المدينة المنورة على بُعد ٤٠ كم على طريق تبوك، وتبعد حوالي ١٣٠ كم شمال شرق ينبع.

غزوة سفوان

وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله في سبعين رجلا من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزا وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى. واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة.

وادي سفوان: يقع بناحية مدينة بدر، و لا يعرف اليوم موضع بهذا الاسم، وإنما هناك وادي سفا في منتصف المسافة بين المدينة و بدر التي تبعد ١٥٠ كلم عن المدينة.

غزوة ذي العشيرة

وقعت في جمادي الأولى، وجمادي الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣ م، خرج رسول الله في خمسين ومائة، ويقال: في مائتين من المهاجرين، ولم يُكره أحدا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعترضون عيرا لقريش، ذاهبة إلى الشام، فيها أموال لقريش، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سببا لغزوة بدر الكبرى.

سرية نخلة

وقعت في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلا من المهاجرين، كل اثنين على بعير. وكان رسول الله كتب له كتابا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. فسار عبد الله، ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قافلة قريش، وتعلم لنا من أخبارهم». فقال: سمعا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحبّ الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه.

الأوامر المختومة!!

في الحروب الحديثة؛ يتردّد ذكر الأوامر المختومة التي تُصدَر إلى قادة الجيوش والسفن ليفتحوها عند الوصول إلى مدينة معينة، أو بعد السير ساعات بعدد معين، أو في عرض البحر وفق درجة معينة من درجات الطول والعرض، إلى أمثال ذلك

من العلامات التي تُعيّن بها الجهات. ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعًا على سرّ البعثة، ورجاله جميعًا يجهلونه ولا يعرفون أَهُمْ خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع، وهنالك تَصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة، ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار؛ هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة؛ فقد عُرفت في المأثورات النبوية، ومنه أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين.

لماذا الأوامر المختومة، وما الفائدة؟

أولها: كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبيّ ﷺ، فلا يَبْعُد أن يكون منهم مَنْ هو عَيْنًا (جاسوسا)عليه وعلى أصحابه من قِبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر عن حسن نية ولا يدرك الخطر من ذلك، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون، وإن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان سُنَّة حكيمة من سنن النبيّ في جميع الأمور، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها (تمويه) على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن.

لماذا قال النبيّ: لا تكرهنّ أحدًا من أصحابك؟

قد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتّقيه؛ إذْ يفرّ من القتال إلى جانب العدو؛ فيُطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه. وها هنا تتجلى حكمة النبيّ ﷺ في اشتراط الرغبة والطواعية، واجتناب الإكراه في القتال. مع أن القتال

والجهاد يكون فرضا على كل مسلم إذا هاجم الأعداء أرض المسلمين، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومحمد ﷺ لا يعلم هزائم هتلر ونابليون جراء الفشل الذي لاقوه بسبب ذلك، لكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ الذي ارتكبوه في جميع غزواته وحروبه.

محمدٌ قائدٌ حربيٌّ بغير نظير

عند المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية؛ ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى شكليات المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها، لأننا إذا نظرنا إلى الشكليات فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف، وأن حربًا إلكترونية تُدار بالاتصالات اللاسلكية والتواصل عبر الأقمار الصناعية في زماننا اليوم، أعجب من حرب تُدار بالكلام والإشارة، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل، وأن المدفع أمضى من السيف، والرصاصة أمضى من السهم، فلا معنى إذن للمقارنة بالشكليات، والنظر إلى القيادة القديمة كأنها شيء صغير بالمقارنة مع القيادة الحديثة والمعاصرة التي اكتسبت هذه الضخامة. لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل في الزمن القديم قد يدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون في الزمن الحاضر، وهذه الفكرة هي التي تُرينا محمدًا قائدًا حربيًّا بين أهل زمانه بغير نظير، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة، هذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول القائد الخبير بفنون القتال.

رسالة النبوّة تغلّبت على القيادة العسكرية

فمن كانت عنده هذه الأدوات والطاقات العسكرية، فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري، فذلك هو الرسول الذي تغلبت فيه النبوّة على القيادة العسكرية، ويزيد هذه الشهادة عِظَمًا أن القائد العسكري الذي يجتنب القتال في غير ضرورة؛ هو رجل شجاع لا يهاب، وليس كبعض الدعاة المصلحين الذين يُحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال.

أول قتيل وأول أسيرين في الإسلام

سار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرّت قافلة لقريش تحمل زبيبا وزيتا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب؛ الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالقافلة والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام. وأنكر رسول الله ما فعلوه، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ووقف التصرف في العير والأسيرين.

فرصة لاتهام المسلمين

وجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحي حاسما لهذه الأقاويل، وأنّ ما عليه المشركون

أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون؛ قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة الإعلامية التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا تبرير لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتُهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله، فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة؟ لكن بعد ذلك أطلق رسول الله سراح الأسيرين، وأدّى دية المقتول إلى أوليائه.

خطر حقيقي !!

بعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين، وتجسّد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقّظ والتربّص، تترقّب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا، (أي ما يعادل ٤٨٣ كيلوا مترا)، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا من غطرستهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة؛ ازدادوا حقدا وغيظا، وصمّم كبراؤهم على ما كانوا يوعِدون ويهدّدون به من قبل، من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر.

فرض القتال على المسلمين لأول مرة

أما المسلمون، فقد فُرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش، في شهر شعبان سنة ٢ هـ، وأنزل في ذلك آيات بينات: ﴿وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠- ١٩٣].

طريقة القتال

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلمهم فيها طريقة القتال، ويحثّهم عليه، ويبيّن لهم بعض أحكامه، قال تعالى: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد: ٤-٧].

فضح الجبناء!!

ثمّ ذمّ الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفُق حين سمعوا الأمر بالقتال: ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]. فالتوجّه للقتال والحضّ عليه، والأمر بالاستعداد

له؛ هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارىء، فكيف بالربّ الحكيم العليم بأمور العباد، فالظروف كانت تقتضي عراكا داميا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلمتهم، وتركتهم يتقلبون على الجمر.

إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيا

وآيات الأمر بالقتال؛ تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلّمهم أحكام الجند في الأسارى، والإثخان في الأرض، حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيا. ولكن ترك كل ذلك مستورا إلى وقته؛ حتى يستخرج كل رجل بما عنده، وما فيه من التحمّس في سبيل الله.

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام

وفي هذه الأيام؛ في شعبان ٢ هـ/ فبراير ٦٢٤ م- أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا، وهكذا تطهّرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة. وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد، لا ينتهي إلا بعد تخليص المسلمين هذه القبلة من أيدي الرّوم، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم؟ ولا بد من تخليصها يوما ما؟ وبعد هذه

الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتدّت عزيمتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة.

بدر: أول معركة فاصلة في الإسلام

سبب الغزوة: أن عيرا لقريش أفلتت من النبيّ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها، ومكثا حتى مرّ بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله بالخبر. كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، (ما يعادل اليوم خمسة ملايين دولارا) ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا.

ضربة عسكرية وسياسية واقتصادية

إنها فرصة ذهبية لمعسكر المسلمين في المدينة، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة، لذلك أعلن رسول الله في المسلمين قائلا: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها. ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع أنه سيصطدم بجيش مكة هذا الاصطدام العنيف في معركة بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة.

توزيع القيادات

استعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا (الأرجح ٣١٤ رجلا)، منهم ٢٣٠ رجلا من الأنصار و٨٤ من المهاجرين، ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فَرَسان فقط، فرس

للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيرا، يركب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله وعليّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرا واحدا. ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري. وكان هذا اللواء أبيض. وقسّم جيشه إلى كتيبتين: كتيبة المهاجرين، وأعطى علمها علي بن أبي طالب. وكتيبة الأنصار، وأعطى علمها سعد بن معاذ. وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامي يتحرك

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب للقتال، خرج من المدينة ومضى على الطريق الرئيسي المؤدّي إلى مكة، وانحرف ذات اليمين يريد بدرا، وهنالك بعث رجلين من رجاله إلى بدر يتجسّسان له أخبار القافلة.

النذير في مكة

أما خبر القافلة، فإن أبا سفيان وهو المسؤول عنها؛ فقد كان على غاية من الحيطة والحذر، كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسّس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدا قد استنفر أصحابه ليوقع بهم، وحينئذ استأجر أبو سفيان رجلا إلى مكة، مستصرخا لقريش بالنفير إلى عيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه، وخرج الرجل سريعا حتى أتى مكة، فصرخ واقفا على بعيره وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

أهل مكة يتجهّزون للغزو

تحفّز الناس في مكة سراعا، وخرجوا متأهّبين لحرب المسلمين، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، أرسل عوضا عنه رجلا كان له عليه دين، وحشدوا مَن حولهم مِن قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش.

عدد الجيش المكي

كان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية انطلاقته، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجِمال كثيرة لا يُعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل.

قريش بين نارين!!

لما أجمع هذا الجيش على السّير، تذكّرتْ قريش ما كان بينها وبين قبائل بني بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك أن يثنيهم، ولكن حينئذ تبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي سيد بني كنانة فقال لهم: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله: ﴿بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٤٧]. وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «**بِحَدّهم وَحَديدِهم، يُحادّونَ الله وَيُحادُّونَ رَسُولَه**»، مصرّين على الاستمرار لحرب المسلمين بلا هوادة، وعلى حمية

وغضب وحنق على رسول الله وأصحابه. تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في تجاه بدر، وهناك تلقّوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: لقد نجونا فارجعوا.

أين تقع ساحة المعركة؟

سميت غزوة بدر الكبرى بهذا الاسم نسبةً إلى منطقة بدر، وهي بئرٌ مشهورةٌ تقع بين مكَّة المكرمة والمدينة المنورة، يقع مكان هذه المعركة إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، وتبعد عنها مسافة تقدر بحوالي ١٥٠ كم، كما تبعد نحو ٣٠٠ كم عن مكة، وعن جدة نحو ٢٧٥ كم، وعن ينبع الصناعية نحو ٦٥ كم.

أبو سفيان لم يزل حذرا متيقظا

كان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرا متيقظا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر وتقدّمت قافلته، سأل رجلا عن جيش المسلمين، فقال له: ما رأيت أحدا أُنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التلّ، ثم شربا في سقاء لهما، ثم انطلقا، فتوجّه أبو سفيان إلى مكانهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعا، وضرب وجهها محولا اتجاهها نحو الساحل غربا، تاركا الطريق الرئيسي الذي يمرّ ببدر على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة بأنه قد نجا بالقافلة.

جيش مكة همّ بالرجوع

لما تلقى جيش مكة هذه الرسالة همّ بالرجوع، ولكن طاغية قريش أبو جهل قام في كبرياء وغطرسة قائلا: والله لا نرجع حتى نَرِدَ ماء بدر، فنُقيم بها ثلاثة أيام بلياليها؛

فننحر الإبل، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وترقص لنا النساء، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا. ولكن على رغم موقف أبي جهل؛ أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة وكان حليفا لهم ورئيسا عليهم، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتبطت بنو زهرة برأي الأخنس بعد هذا الموقف فيما بعد، فلم يزل فيهم بعد ذلك مطاعا معظما. وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تُفرّقنا هذه العصابة حتى نرجع. وسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة، وواصل سيره حتى نزل قريبا من بدر.

حرج موقف الجيش الإسلامي

أما استخبارات جيش المسلمين المدينة فقد نقلت إلى النبيّ خبر هذا النفير وهو لا يزال في الطريق، وتأكد لديه بعد التدبّر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن هذا اللقاء الدّامي، وأنه لا بد من الإقدام ومواصلة السير بجراءة وجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيما لمكانة قريش العسكرية، وامتدادا لنفوذها السياسي، وإضعافا لكلمة المسلمين، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدا لا روح فيه، ويجرؤ كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة. وبعد هذا كله، فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة؟ هذا سيكون له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

النبيّ عقد مجلسا عسكريا استشاريا أعلى

ونظرا إلى هذا التطور الخطير المفاجىء، عقد رسول الله ﷺ مجلسا عسكريا استشاريا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدّامي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال:٥-٦].وأما قادة الجيش؛ فقام أبو بكر فقال وأحسن القول، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه». فدعا له رسول الله.

بَرْكُ الغِماد: موضعٌ مِن وراءِ مكَّةَ على مسير خَمسِ ليالٍ بناحيةِ السَّاحلِ، والوُصول إليه شاقّ وبَعيد.

الأنصار كانوا يمثّلون أغلبية الجيش

هؤلاء القادة الثلاثة ممن أبدَوا رأيهم كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحبّ رسول الله أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأنهم كانوا يمثّلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «**أشيروا عليّ أيها النّاس**» وإنما يقصد رأي الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فأجاب قائلا:

ماذا أجاب سعد بن معاذ؟

قال سعد: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: «فقد آمنا بك، فصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، إنا لصبر في الحرب، صِدْقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله». فسُرّ رسول الله بقول سعد، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. فارتحل رسول الله بالجيش حتى نزل مكانا قريبا من بدر.

الرسول ﷺ يقوم بعملية استكشاف

هناك قام الرسول بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر، وبينما هما يتجوّلان حول معسكر مكة؛ إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله عن قريش وعن محمد وأصحابه، سأل عن الجيشين زيادة في التكتم!!

الحصول على أهمّ المعلومات

في مساء ذلك اليوم؛ بعث رسول الله استخباراته من جديد، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض وجاءوا بهما إلى النبيّ وهو في الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فضربوهما؛ حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

أخبراني عن جيش قريش؟

ثم خاطب الغلامين قائلا: أخبراني عن قريش، قالا: هم وراء هذا الكثيب(تلة من الرمل) الذي ترى بالعدوة القصوى(اسم مكان)، فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عدّتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وغيرهم. فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

نزول المطر في تلك الليلة !

وأنزل الله في تلك الليلة مطرا، فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طَلّا طهّرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبّت الأقدام، ومهّد به المنزل، وربط به على قلوبهم.

الحبّاب بن المنذر خبير عسكري

تحرك النبيّ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل ليلا أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أقرب ماء من جيش المشركين؛

فننزل فيه للسيطرة عليه، ونغوّر (أي نخرب ما بعده من الآبار الأخرى)، ثم نبني عليه حوضا (لنا) فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: لقد أشرت بالرأي.

بناء مقرّ القيادة

اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقرا لقيادته استعدادا للطوارىء، وتقديرا للهزيمة قبل النصر، حيث قال: «يا نبيّ الله؛ ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ثم نلقى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا». فأثنى عليه رسول الله خيرا، ودعا له، وبنى المسلمون عريشا على مرتفع يقع بالقرب من ميدان القتال ويشرف على ساحة المعركة. كما تمّ انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، يحرسون رسول الله حول مقرّ قيادته.

قضاء الليل، ليلة الجمعة

ثم عبأ رسول الله جيشه، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، ثم بات رسول الله يصلي، وبات المسلمون ليلهم بهدوء نفس، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة وقتا كبيرا، يأملون أن يروا بشائر ربّهم بعيونهم صباحا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]. كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه في ٨ من نفس الشهر.

حكيم بن حزام

أما قريش؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى(اسم مكان قريب من المعركة)، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله فقال: «**دَعُوهُمْ**»، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر!!

يا معشر قريش: البلايا تحمل المنايا

فلما اطمأنّت قريش، بعثوا عميرَ بن وهب الجمحي للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر إن كان لهم مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فما رأيكم؟

وقوع الانشقاق في الجيش المكيّ

حينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل المصرّ على المعركة، تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش، وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، ثم قام عتبة بن ربيعة

خطيبا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قَتَلَ ابنَ عمه أو ابنَ خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب. استخدم أبو جهل دهاءه، وتعجّل مخافة أن تقوى هذه المعارضة. فأثار قضايا عصبية قبلية بين القوم، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلّب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

لما تراءا الجيشان

لما طَلَع المشركون وترآى الجمعان قال رسول الله ﷺ: **«اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادّك وتُكذّب رسولك، اللهمّ فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة»**. ثم مدّ يديه وقال: **«اللَّهمَّ أينَ ما وَعَدْتَني؟ اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني، اللَّهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا.. »**. صحيح مسلم. وقد قال رسول الله حين رأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر: إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا. وعدّل رسول الله صفوف المسلمين.

أمرٌ غريب!

وبينما هو يعدّلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يده قدح يعدّل به، وكان سواد بن غزية مستنصلا من الصف (أي منحرفا عنه)، فطعن في بطنه بالقدح (أداة كانت بيد الرسول) وقال: «استوِ يا سواد»، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، فكشف الرسول عن بطنه، وقال: «استقد» أي خذ حقك مني، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه،

فقال: «ما حملك على هذا يا سواد»؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله بخير.

توجيه خاص في الحرب

ولما تمّ تعديل الصفوف؛ أصدر ﷺ أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقّوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال: «**إذا أكثَبوكُم** (يعني غلبوكم) **فارمُوهُم، واستبِقُوا نبلكُم، ولا تسلّوا السّيوف حتى يَغشُوكُم**»، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش. أما المشركون فقد استفتح(أي دعا) أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهمّ أَقطعُنا للرّحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنِهِ الغداة، اللهمّ أيّنا كان أحبّ إليك وأَرضى عندك فانصُره اليوم، وفي ذلك أنزل الله: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١٩].

أول وقود المعركة

اقتربت ساعة الصفر. وكان أول وقود المعركة هو الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا سيء الخلق، خرج قائلا: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه. فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه فأصاب قدمه بنصف ساقه قبل أن يصل الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دما أمام أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبرّ يمينه، ولكن حمزة ثنّى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

المبارزة

خرج ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمّنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»، فأما حمزة وعليّ فلم يُمهلا قرينيهما أن قتلاهما على الفور، وأما عبيدة وقرينه عتبة فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كرّ عليّ وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، وقد قُطعت رجلُه؛ فلم يزل صامتا حتى مات بعد أيام قليلة، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة. وكان عليّ يُقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩].

الهجوم العام

كانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة للمشركين، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبا، وكرّوا على المسلمين كرة رجل واحد. وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرّعوا إليه، تلقّوا هجمات المشركين المتوالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة.

الرسول ﷺ يناشد ربه

وأما رسول الله؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللهُمّ أنجزْ لِيْ مَا وَعدتَني، اللهُمّ إنّي أُنشدُكَ عَهْدَكَ وَوَعدَك**». حتى إذا حمي الوطيس، واستدارت رحى الحرب بشدة، واحتدم القتال، وبلغت المعركة ذروتها، قال: «**اللهُمّ إنْ تَهْلك هَذِهِ العصَابَة اليَوْم لا تُعْبد، اللهُمّ إنْ شئْتَ لمْ تُعبد بعدَ اليَوم أَبَدًا**». صحيح البخاري. وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردّه عليه أبو بكر وقال: حسبك يا رسول الله، ألححتَ على ربك. وأوحى الله إلى ملائكته: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**﴾ [الأنفال:١٢]، وأوحى إلى رسوله: ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال:١٩].أي أنهم رِدْفٌ لكم، يأتونكم متتابعين، لا يأتون دفعة واحدة.

أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل

وأغفى رسول الله إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع**» (أي الغبار). وفي رواية محمد بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع**». ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش، ويقول: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ [القمر: ٤٥]، ثم أخذ حفنة من التراب، فاستقبل بها قريشا وقال: «**شَاهَت الوُجُوه**»، ورمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله: ﴿**وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال: ١٧].

الهُجومُ المضادّ

حينئذ أصدر النبيّ ﷺ إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادّة فقال: «**شُدُّوا**»، وحرّضهم على القتال، قائلا: «**والّذي نَفسُ محمّد بيَدِه لا يُقاتِلُهُمُ اليومَ رَجُلٌ فيُقْتَلُ صَابرا مُحتسبا مُقبلا غير مُدبر إلاّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجنّة**»، وقال وهو يحضهم على القتال: «**قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السّمَواتِ وَالأَرْض**» حينئذ قال عمير بن الحمام: بخ. بخ، فقال رسول الله: «**مَا يَحمِلُكَ عَلَى قَولِكَ: بَخٍ. بَخٍ**»؟ قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فَإنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**». فأخرج تمرات من وعائه، فجعل يأكل منهنّ، ثم قال: لئن أنا حَييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل. رواه مسلم.

هجوم كاسح

حين أصدر النبيّ ﷺ الأمر بالهجوم المضاد، كانت حدّة هجمات العدو قد ذهبت، وفتر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشدّ والهجوم، وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه، قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، وزادهم نشاطا وحدّة أن رأوا رسول الله يثبّ في الدرع، ويقول في جزم وصراحة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]. فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة.

نماذج من قتال الملائكة

في رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يُقطع رأس الرجل لا يدري من ضربه! وتُقطع يد الرجل لا يدري من ضربها! وقال ابن عباس: بينما رجل من

المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فإذا هو قد قُتل!! فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله فقال: **«صَدَقْتَ، ذلكَ منْ مَدَدِ السّماءِ الثّالثة»**. رواه مسلم. وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسُه قبل أن يصل إليه سيفي! فعرفت أنه قد قتله غيري. وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: **«اسكُتْ فقَدْ أيّدَكَ اللهُ بمَلَكٍ كَريم»**.

إلى أين يا سراقة؟

إبليس كان قد جاء قريشا في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، يحرّضهم على قتال المسلمين؛ ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت، فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فرّ ونكص على عقبيه، وتشبّث به الحارث بن هشام وهو يظنه سراقة! فوكز في صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هاربا، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جارٌ(أي حليف) لنا، لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله (وهو يكذب) والله شديد العقاب، ثم فرّ حتى ألقى نفسه في البحر.

الهزيمة الساحقة

بدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين في

الانسحاب والفرار، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمّت عليهم الهزيمة الساحقة.

الآن، جاء دورك يا أبا جهل

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد، فجعل يشجع جيشه، ويقول لهم في شراسة ومكابرة: لا يهزمنّكم خذلان سراقة إياكم، ولا يهولنّكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرّنهم(نقيّدهم) بالحبال. ولكن سرعان ما انكشفت له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلا حتى أخذت الصفوف تتصدّع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم بقي حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجا من السيوف والرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين اقتلعت هذا السياج، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظره بأن يَهرق دمَه غلامان من الأنصار.

يا عم، أرني أبا جهل

قال عبد الرحمن بن عوف: التفتُّ يوم بدر، فإذا عن يميني وعن يساري فَتيان حديثا السنّ، قال لي أحدُهما سرّا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أُخبرت أنه يسبّ رسول الله. فتعجبتُ لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه.

لقد ارتقيتَ مرتقى صعبا يا راعي الغنم

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فتفرق الناس في طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه، وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه!؟ (أي ليس عليّ عار)، ماأنا إلا رجل قتله قومه. قال ابن مسعود: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود؛ وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا راعي الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة.

هذا فرعونُ هذه الأمة

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام؛ احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: «**الله الذي لا إله إلا هو**»؟ فرددها ثلاثا، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذي صدَق وعده، ونصرَ عبده، وهزَم الأحزاب وحده، انطلق أَرنيه**»، فانطلقنا فأريتُه إياه، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**».

نتائج المعركة

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمشركين، وبانتصار عظيم للمسلمين، وقد استُشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قُتل منهم سبعون وأُسر سبعون، أغلبهم من القادة والزعماء والصناديد. لما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فقال: «**بئسَ العَشيرة كُنتُم لنبَيكم، كذّبتمُوني وصَدّقني النّاس،**

وَخَذلتموني وَنَصرني الناس، وَأَخرَجْتُموني وَآوَاني النّاس». فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «**يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، فإنّا قد وجدنا ما وعدَنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقا**»؟ فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجسادا لا أرواح لها؟ قال النبيّ ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**» متفق عليه.

مشكلة جديدة لم يتعامل المسلمون معها من قبل

بعد الانتهاء من المعركة، برزت مشكلة جديدة لم يتعامل المسلمون معها من قبل، ألا وهي كيفية التصرّف في الغنائم التي غنمها المسلمون في المعركة، هل يعطونها للجيش الذي جمعها؟ أم يعطونها للذين قاموا بمطاردة فلول المشركين؟ أم أن الذين قاموا بحراسة النبيّ أثناء وبعد المعركة؟ في تلك الساعة نزل القرآن مجيباً عن تلك التساؤلات، قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفالُ لله وَالرّسُولِ فَاتّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكِم﴾ [الأنفال: ١]. وفي آية أخرى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيءٍ فَإِنّ لله خُمُسَهُ وَللرّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السّبيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقسّم النبيّ تلك الغنائم على هذه الطريقة.

ادّعاء أن المسلمين قتلوا عددا من أسرى بدر!!

ثم جاءت القضيّة الثانية، وهي كيفيّة التعامل مع الأسرى، فقد استشار النبيّ أصحابه في شأنهم، فكان رأي أبي بكر أخْذُ الفدية من الكفّار ليتقوّى المسلمون بها، ولعلّ في ترك قتلهم فرصةً للمراجعة والتفكير بالإسلام، بينما أشار عمر بن الخطّاب وسعد بن معاذ بقتلهم، وفي التخلّص منهم ضربةٌ قويّة لأهل مكّة. وأخذَ

النبيّ بالرأي الأول؛ وهو أخذ الفدية. وقد ادّعى بعض المشكّكين في وقتنا الحاضر بأن المسلمين قتلوا عددا من الأسرى بعد انتهاء غزوة بدر الكبرى؛ تعطشا منهم لإراقة الدماء، وحبّا بالانتقام، ويرمون من وراء ذلك إلى إظهار المسلمين بمظهر الإجرام.

أين العدد الذي قتله المسلمون؟!

لم يقتل الرسول من أسرى بدر سوى رجلين، هما: عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث؛ كان هذا القتل واجبا من حيث وجهة الحرب؛ لا حقدا أو حبّا للانتقام، فأين العدد الذي قتله المسلمون إذن؟! هؤلاء أثاروا هذه الضجة على قتل النبيّ لأسيرين فقط، فهل نَسُوا ما وقعت فيه جيوشهم بشأن الأسرى على مدى التاريخ؛ ابتداء من الحروب الصليبية؛ ومرورا بالحرب العالمية الأولى والثانية، ثم حروب الاستعمار الأوروبي للبلاد والشعوب الإسلامية، ناهيك عن هجمات تلك الدول على الشعوب المغلوبة، وحرق عواصم ومدن عربية وإسلامية في أفغانستان ولبنان والعراق، وما زالت فلسطين قلب الشام ومسرى رسول الله تحترق حتى الآن!!

إهدار الدماء البشرية!!

لا نقف كثيرًا عند الحوادث التي ذكرها المتعصّبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء من غير سبب، فأكثرها لم يثبت قطعا، ولا سيما القول بتحريض النبيّ على قتل (عصماء) اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين، فإنه النبيّ قد نهى في قول صريح عن قتل النساء، وكرر نهيه مرارا، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت

للقتال، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها. والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين، ويقدح في دينهم، ويؤلّب عليهم الأعداء، ويتآمر على قتل النبيّ، ويدخل في كل دسيسة للقضاء على الإسلام. وكان مع قومه بني النضير معاهدًا على أن يحالف المسلمين، ويحارب من يحاربونهم، ولا يخرج لقتالهم، فنقض العهد وزاد على تأليب العرب ضدّ النبيّ وأصحابه، وأنه رجع إلى المدينة يهجو نساء المسلمين وأعراضهم، وافترى عليهنّ ما لا يرضاه في عرضه عربي غيور.

قالوا: هذا خروج عن الأخلاق العسكرية!

وجاء في بعض الروايات: إن النبيّ أقرّ قتل كعب بن الأشرف، فعاب بعض المؤرخين الأوروبيين ذلك، وحسبوه خروجًا على سنن القتال والأخلاق العسكرية، ولا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولي في أحدث العصور على أمثال ابن الأشرف بالخيانة ونقض العهود، وإن لم يبلغ هؤلاء مبلغه من الغدر والكيد والإساءة إلى الأعراض. فقوانين العصر الحديث تعاقب بالإعدام كل جريمة أقلّ من جريمة كعب بن الأشرف بكثير، لأنه تجاوَز الغدر إلى خيانة العهود والمواثيق، والتأليب على شنّ الحروب على الحليف والصديق؛ وهو لا يعلم.

مجرمون قبل أن يكونوا أسرى

ثم اعترض بعض المستشرقين على قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر، كما اعترضوا على خروج النبيّ إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها،

وصفوا ذلك في مشهد دموي لا أخلاقي يتعارض مع حقوق أسرى الحرب، ويتعارض مع احترام حقوق الإنسان! هذا أمر لا يصحّ الحكم فيه إلا بالنظر إلى خصوصياته، لأنه ليس بالحكم العام الذي اتبعه الإسلام في جميع الأسرى وجميع الحروب، وإنما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة، وليست هي كحالة الأسرى الآخرين؛ غير معروفين بماضٍ ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند، فَقَتْلُهُمْ كان قصاصا كونهم متهمين بالتعذيب، وقد وقعوا في أيدي ضحاياهم ومن يتولى عقابهم، جاز هذا في كل قانون، وجاز أن يُحاسَبَ المجرم على جرائمه التي خرجت عن قوانين الحروب، فهم مجرمون ارتكبوا جرائم دموية بشعة قبل أن يكونوا أسرى حرب، وقد وقعوا للمساءلة وإصدار بحقهم حكم الإعدام.

اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب، فقد نسي فيها أولئك الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا اختلاف فيها. ما لم تُجاوز حدودها إلى الفرح برؤية الدماء، وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبيّ ﷺ، أو نقله أحد من المشركين أو المسلمين. كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرًا، لينظروا بعين النبيّ إلى عواقب هذه الوقعة التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام.

اعترضوا: محمد يشهد نتيجة المعركة!

محمد رجل مملوء بدوافع الحياة، وليس بناسك مهزول من نُسّاك الصوامع الذين يكتمون أحاسيسهم وانفعالاتهم، فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة أمر لم يكن بالمنتظر

من قائد في مثل موقفه، وهو القائد العام للجيش؛ في اللحظة الأولى من انتصاره، وهؤلاء مراسلو المحطات الفضائية في عصرنا اليوم، وقيادات عسكرية وسياسية يصولون ويجولون بالصوت والصورة في ساحات القتال خلال المعركة وبعد المعركة، أمام وسائل الإعلام المحلية والعالمية؛ ليشاهدوا أحداث النصر أو الهزيمة، ويسجلوا ما حدث، وما محمد إلا رجل كباقي البشر، وهو القائد العام للجيش المنتصر، لا عجب ولا غرابة إذا كان حاضرا، بل من الواجب أن يكون حاضرا.

قتل الرجال من بني قريظة

في صدد الحديث عن القسوة؛ أشاع المؤرخون الأوروبيون قتل الرجال من بني قريظة بعد معركة الأحزاب. يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفًا للقانون المتبع في الحروب، وينسون أمورًا في هذه المسألة؛ وهم في ذات الوقت يستحضروها أتمّ استحضار؛ وهي أنّ بني قريظة نقضوا وخانوا عهودهم مع المسلمين مرات كثيرة في سنوات كثيرة؛ فلا يُجدي معهم أخذ المواثيق من جديد، وأنّهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه، وأنّ سعدًا إنما حكم عليهم بنصّ التوراة التي يؤمنون بها، كما جاء في سفر التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، فإن أجابتك للصلح فكل الشعب الموجود فيها يكون لك ويُستعبد لك. وإن عملت معك حربًا فحاصرها؛ واضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة تغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك...». [سفر التثنية، إصحاح ١٠-١٥]. بعد هذا، ينبغي أن يسأل الناقدون الأوروبيون أنفسهم: ماذا لو كان العكس؟ ماذا سيكون مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب

وبنو قريظة؟ أين كان هؤلاء الناقدون حين أمر القائد الصليبي ريتشارد- قلب الأسد بإعدام ٣٠٠٠ أسير مسلم في عكا عام ١١٩١م؟!

حروب في العصر الحديث

الناقدون الأوروبيون يُشهّرون بالإسلام وأهله على مرّ العصور، وهم مبدعون بهذا التشهير، وكأن الدماء التي تُهرق في الحروب منذ آلاف السنين؛ محصورة بالحروب مع الجيوش الإسلامية دون غيرها!! لم يتحدث هؤلاء الناقدون عن دماء أبرياء أُهرقت، أو عن ملايين الضحايا في البلاد الإسلامية خلال الحروب الصليبية التي استمرت منذ ١٠٩٩–١٢٩١، وهي لم تتوقف، بل عادت في القرن السادس عشر، ثم عودتها بقوة في نهاية القرن الثامن عشر بحملة نابليون إلى مصر، ثم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين على شكل حروب شنّها الاستعمار الأوروبي على البلاد الإسلامية، والسيطرة على أرضها وسمائها، ونهب ثرواتها.

إهراق دماء ملايين البشر في القرن (٢١)

ثم في القرن الحادي والعشرين، عادت حملات صليبية أمريكية وأوروبية أخرى على البلاد الإسلامية؛ وحرق الأخضر واليابس فيها؛ لبنان وأفغانستان والعراق وفلسطين، أي أن الأمة الإسلامية ومنذ القرن الثاني عشر وحتى اليوم وهي في صراع مستمر مع القوى الصليبية الأمريكية والأوروبية والصهيونية العالمية. حملات عسكرية دموية على قوم يذودون عن أنفسهم وأوطانهم وأعراضهم، حملت من القتل والتعذيب أضعافا كثيرة جدا مما حدث في بني قريظة؛ بل تجاوز هذا القتل

أضعاف جميع الحروب التي نشبت بين النبيّ وبين أعدائه، ومع ذلك نجد هؤلاء الناقدين يتهمون النبيّ والمسلمين، ولا يتهمون المجرم الحقيقي على مرّ الزمان والعصور!!

نقيضان في وقت واحد !!

لكن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب، تلك الخصائص قد توصف بالنقيضين في وقت واحد، فيراها أناس على صورة، ويراها غيرهم على صورة أخرى، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين. فهي تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك إذا ساءت النيات. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرِمُه القدرة على القتال، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تدفعه للقتل وإهدار الدماء البشرية!! فإذا كانت شجاعته تنفي شبهة الضعف والخوف، فحياته كلها تنفي الشبهة في القسوة والجفاء؛ وجدنا عطفه وحنانه بأهله وبأصحابه وبزوجاته وبخدمه مثلًا للرحمة التي قلّ نظيرها في الأنبياء.

الدعاية الإعلامية

النبيّ ﷺ كان أشدّ الحذر من الدعاية الإعلامية المضادّة للدعوة الإسلامية، وأعرف الناس بفعل أثر هذه الدعاية في كسب المعارك، فكان يبلُغُه عن أفراد وجماعات أنهم ينقضون ما عاهدوا عليه، ويشهّرون به وبالإسلام، ويثيرون العشائر لقتاله، وهَجْو دِينِه، فيُنْفِذ إليهم من يحاربهم في حصونهم. كما اشتُهر عن نابليون فيما بعد النبيّ؛ أنه

كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام، وكان يقول: إنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف سيف، إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين؛ لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة وعقيدة، وهي في غايتها كفاح بين العدل والظلم، وبين الألوهية والوثنية، أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه كانت حرب جيوش وسلاح، وفرض هيمنة عسكرية واستعمار دول وبلدان، وسيطرة على اقتصادها وثرواتها. تلك مقابلة مجملة بين الخطط التي سبق إليها محمد، وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين. علينا أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة؛ قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح.

الله أراد غنيمة أكبر !!

الدافع الأصلي لخروج المسلمين مع رسول الله إلى بدر لم يكن القتال والحرب، وإنما كان بقصد الإستيلاء على قافلة قريش والحصول على غنائم، هذه كانت إرادة البشر. غير أن الله أراد لعباده غنيمة أكبر، ونصرا أعظم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

يستشير أصحابه في خطط القتال

كما أن التزام النبيّ ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه في أمور الدنيا. فقد شاورهم في تعيين موقع المعركة، وشاورهم في كل ما لم يثبت فيه نصّ ملزم من كتاب أو سنة. ومحمد النبيّ القائد يستشير أصحابه في خطط القتال وحيل الدفاع، ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر حين أشار عليه الحبّاب بن المنذر بالانتقال إلى

مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر، ثم بتغوير (تعطيل) الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء. كما عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق، في الجهة التي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة، وعمل النبيّ بيديه في حفره. وفي معركة أُحد جعل الجبل إلى ظهره، وأقام عليه خمسين راميًا مشدِّدا عليهم في التزام موقفهم، قائلًا لهم: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقدم على النبل».

فراسة النبيّ ﷺ

جواز الاستعانة بالجواسيس، ليكتشف المسلمون خطط أعدائهم وأحوالهم، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، ولو استلزم ذلك تكتمًا أو نوعا من المخادعة أو التحايل، فالحرب خدعة. لما رأى أصحابه يضربون عبدين من جيش قريش يستقون من ماء بدر؛ سأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل: كم بعيرا يذبحون كل يوم؟ فأجابوه، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يُحتاج إليه؛ فكانت فراسة النبيّ في ذلك مضرب الأمثال. كما كان النبيّ يتابع في استطلاع أخبار كل مكان من أقرب الناس إليه، ويَعقد ما يسمّى اليوم «مجلس الحرب» قبل أن يبدأ بالقتال، فيسمع مِنْ كِلٍّ فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع.

بعوث الاستطلاع

وقد كانت خبرة النبيّ ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال، فكانت طريقته في اختيار المكان والهدف، أو في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلًا يُحتذى في جميع العصور، ولا سيما في العصر الحديث الذي كثرت فيه خطط الاستخفاء والمراوغة، واستخدام العيون والجواسيس. ثم كثرت فيما بعد الحاجة إلى استقصاء أحوال الأعداء.

التضرّع والدّعاء

يظهر من مجريات هذه الحرب أهمية التضرع لله وشدة الإستعانة به. وقد علمنا أن النبيّ ﷺ كان يُطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير الى أماكن متفرقة في الأرض، ويقول: **«هذا مصرع فلان»**، ولقد وقع الأمر كما أخبر. ومع ذلك، رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له يجأر إلى الله داعيا ومتضرّعا، باسطا كفيه إلى السماء يناشد الله أن يؤتيه نصره الذي وعده، حتى سقط عنه رداؤه، وأشفق أبو بكر عليه. فلماذا كل هذا التضرع في الدعاء؟ لأن الاستغراق في التضرع والدعاء هي وظيفة العبودية التي خُلق من أجلها الإنسان، وعلى الإنسان ألّا يخرج عن طور العبودية مهما بلغ حاله.

الحياة البرزخية للأموات

ظهر ذلك الأمر في الحوار الذي جرى بين النبيّ ﷺ وعمر بن الخطاب، عندما وقف النبيّ ينادي قتلى المشركين، هذا دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به، لا ندري حقيقتها وكيفيتها. وأن أرواح الموتى تظل هائمة حول أجسادهم، ومن هنا

يتصور معنى عذاب القبر ونعيمه. وطريق الإيمان بذلك إنما هو التسليم، ولو لم نعرف حقيقتها، ما دام قد ثبت ذلك بدليل صحيح.

اختلاف الرأي في الأسرى

استشار النبيّ ﷺ أصحابه في أمر الأسرى، فأشار عليه أبو بكر وجماعة أن يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين، ويتركهم عسى الله يهديهم. وأشار عمر وجماعة بقتل الأسرى، لأنهم أئمة الكفر وصناديده، فمال النبيّ إلى ما رآه أبو بكر. غير أن آيات من القرآن نزلت عتابا لرسول الله في ذلك، وتأييدا للرأي الذي رآه عمر من قتلهم.

النبيّ ﷺ من حقه أن يجتهد

هذه الواقعة دلتنا على أن النبيّ من حقه أن يجتهد، وله ذلك، وإذا صحّ أن يجتهد صحّ منه بناء على ذلك أن يصيب أو يخطىء في الاجتهاد؛ غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد أن تنزل آية من القرآن تصحّح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى. وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى رسول الله؛ متوّهمين أن الخطأ هو الإثم، أو الإنحراف، أو نحو ذلك، مما يتنافى مع العصمة الثابتة للأنبياء.

مؤامرة اغتيال النبيّ ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضبا، وجعلت مكة تغلي كاللهب ضد النبيّ ﷺ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف

والشقاق، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبيّ. جلس عُمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر، وكان عُمير من شياطين قريش، ممن كان يؤذي النبيّ وأصحابه وهم بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

عُمير وصَفوان

قال عُمير: والله لولا دَيْنٌ عَلَيّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنّ لي عندهم ثأر، ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان وقال: عَلَيّ دَينُك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك. قال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسُمّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب وهو في نفر من المسلمين يتحدثون، فقال عمر: هذا الكلب عدوّ الله عُمير ما جاء إلا لشرّ. ثم دخل على النبيّ فأخبره، قال النبيّ: أدخله عليّ.

هنا حدثت معجزة!!

لما رآه النبيّ قال: ادنُ يا عُمير، فدنا وقال: أنعموا صباحا، فقال النبيّ ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية الإسلام، تحية أهل الجنة، ما جاء بك يا عُمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم. قال النبيّ: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنتْ عنّا شيئا؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك. قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية، فذكرتُما ما أصاب قريشا، ثم قلت: لولا دَيْنٌ عَلَيّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمّل صفوانُ بدَينك وعيالك على أن تقتلني!!

أسلم عُمير

قال عُمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: **«فقّهوا أَخَاكُمْ في دِينه، وأَقْرِئوهُ القُرآن، وَأَطلِقُوا لَهُ أَسيرَه»**.

صفوان ينتظر!

أما صفوان في مكة فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم في أيام تُنسيكم وقعة بدر. وكان يسأل الركبان عن عُمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبدا. ورجع عُمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير.

غزوة بني قينقاع

كانت بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود في المدينة؛ كان النبيّ حريصا كل الحرص على تنفيذ ما جاء فيها، وفعلا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفا واحدا من نصوصها. ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشّوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدسّ والتآمر والتحريش؛ وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين.

نموذج من مكائد اليهود

شاس بن قيس؛ كان شيخا يهوديا عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم؛ مرّ على نفر من أصحاب النبيّ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتى شابا من اليهود كان معه، فقال: اجلس معهم، ثم اذكر لهم أيام الحروب وما كان بينهم، وأنشدهم ما كانوا يقولونه من الشعر، ففعل، فتنازعوا وتفاخروا، وغضبوا حتى وثبوا لإشعال الحرب الأهلية التي كانت بينهم، ونهضوا أفرادا وجماعات في حالة غضب وقالوا: السلاح السلاح!!

حينما وصل الخبر رسول الله

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ، خرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف بين قلوبكم؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا.

كان لهم خطط أخرى!!

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه أو يحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية. وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل، كانوا يبثّون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشكوك في قلوب الضعفاء، وكانوا يضيّقون سبل المعيشة على من

آمن إن كان لهم به ارتباط مالي، فإن كان لهم عليه يتقاضونه بإلحاح، وإن كان له عليهم يتباطأون في دفع ماله ويأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه، وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فلا. كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله، وكان رسول الله وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصا على بسط الأمن والسلام في المنطقة.

بنو قينقاع ينقضون العهد

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرا مؤزرا في معركة بدر، وأنهم قد صارت لهم قوة وهيبة في قلوب العامة والخاصة، تميّزت نار غيظهم وكاشفوا بالشرّ، وجاهروا بالعداوة والأذى. وكان أعظمهم حقدا وأكبرهم شرا زعيمهم كعب بن الأشرف، كما أن أشرّ طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة في حيّ باسمهم، وكانوا صاغة وحدادين وصناع الأدوات والأواني، ولأجل هذه الحِرَف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

توسعوا في تحرّشاتهم واستفزازاتهم

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتدّ طغيانهم، وتوسّعوا في تحرّشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرّضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم. وعندما تفاقم أمرُهم واشتدّ

بَغْيُهُم، جَمَعَهُم رسول الله، فوعظهم ودعاهم وحذّرهم، ولكنهم ازدادوا في شرّهم وغطرستهم.

تهديد ووعيد !!

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر، وقَدِم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع. فقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا. قالوا: يا محمد، لا يغرنّك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

ازدادوا جراءة !!

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان بالحرب، ولكن كَظَمَ النبيّ ﷺ غيظه، وَصَبَرَ المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخّض عنه الليالي. وازداد اليهود من بني قينقاع جراءة، وما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقا واضطرابا، وسعوا إلى حتفهم بأيديهم، وسدّوا على أنفسهم أبواب الحياة. ماذا حدث بعد ذلك؟

كشفوا عورة امرأة مسلمة

روى ابن هشام: أن امرأة من العرب قَدِمَتْ بمصاغ لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى

حيلة، عمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع اصطدام بينهم وبين بني قينقاع، وكان هذا هو الأول من نوعه.

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء

حينئذ نفذ صبرُ الرسول والمسلمين، فاستخلف على المدينة أبا لبابة، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوهم تحصّنوا في حصونهم؛ حاصروهم أشدّ الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب الذي إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم، فنزلوا على حكم رسول الله في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكُتّفوا بالحبال والقيود.

المنافق ابن أبي سلول يتوسّل

حينئذ قام عبد الله بن أبي سلول بدوره النفاقي، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفوا، فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله، فكرر ابن أبي سلول مقالته، فأعرض عنه، لكن المنافق ابن سلول توسّل إليه وأدخل يده في جيب درعه (وسيلة للضغط عليه)، فغضب رسول الله وقال له: أرسلني، ثم قال: ويحك، أرسلني. ولكن المنافق مضى على إصراره، وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، سبعمائة مقاتل قد منعوني من الأحمر والأسود؛ وتحصدهم في ساعة واحدة؟!

أمرهم أن يخرجوا من المدينة

عامل رسول الله ﷺ هذا المنافق بالمراعاة، ولم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام (وهي مدينة درعا السورية اليوم)، فقلّ أن لبثوا فيها حتى غادرها أكثرهم أو هلكوا.

غزوة السّويق

بينما كان مشركوا مكة واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ضد النبيّ، كان أبو سفيان زعيم مكة يفكر في عمل ظاهر الأثر يتعجّل به؛ ليحفظ ماء وجهه ومكانة قومه بعد هزيمة بدر، ويُبرز ما لديه من قوة، وكان قد نذر أن لا يمسّ رأسَه ماء حتى يغزو محمدا، فخرج في مائتي راكب ليبرّ يمينه، حتى نزل قريبا من المدينة.

ماذا حدث؟

لم يجرؤ أبو سفيان على مهاجمة المدينة جهارا، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة؛ دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفيا تحت جنح الظلام، فأتى حُيي بن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف، فانصرف إلى سلام بن مشكم سيد بني النضير، وصاحب أموالهم وكنوزهم إذْ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فاستضافه وسقاه الخمر، واستقى له الأخبار، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى جيشه، فأغاروا على ناحية من المدينة، فقطّعوا وأحرقوا هناك أشجارا من النخل، ووجدوا رجلين من الأنصار في أرض زراعية لهما فقتلوهما، وفرّوا راجعين إلى مكة.

فَرّوا ببالغ السرعة

لما بلغ رسول الله ﷺ الخبر،سارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه، ولكنهم استطاعوا الفرار ببالغ السرعة، وطرحوا كثيرا من عدّتهم وعتادهم وتمويناتهم يتخفّفون منها، وتمكنوا من الإفلات؛ حمل المسلمون ما طرحه الكفار، وسمّوا هذه المناوشة بغزوة السويق. وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين.

غزوة ذي أمر

هي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣ هـ. وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله أن عددا كبيرا من قبائل المدينة تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلا، وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل من بني ثعلبة، فأُدخل على رسول الله، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وصار دليلا لجيش المسلمين إلى أرض العدو. وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة. أما النبيّ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمى «بذي أمر» فأقام هناك شهرا كاملا ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولي عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة.

كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشدّ اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله، يدعو إلى حربه. كان من قبيلة طيء وأمّه يهودية من بني النضير، وكان غنيا مترفا معروفا بجماله في العرب. لما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد

قريش في بدر قال: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها. ولما تأكّد لديه الخبر، انبعث يهجو رسول الله والمسلمين، ويحرّض عليهم، ويزيد حقدهم على النبيّ، ويدعوهم إلى حربه.

تشهير بالمسلمين !!

عندما كان كعب بمكة، سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحبّ إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلا؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلا، وأفضل، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبّب في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشدّ الإيذاء.

قرار قَتْل كعب بن الأشرف

حينئذ قال رسول الله ﷺ: من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله، تفيد الروايات: قام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله، أتحبّ أن أقتله؟ قال: نعم. فانتدب معه أبو نائلة ورجال معه، وفي ليلة مقمرة؛ ليلة الرابع عشر؛ اجتمعوا مع رسول الله، ثم وجههم قائلا: انطلقوا على اسم الله، اللهم أَعِنْهُمْ، ثم رجع إلى بيته، وطفق يصلي ويناجي ربه. وصل الرجلان إلى حصن كعب بن الأشرف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم. ثم خرج إليهم وهو متطيّب الرأس.

تفاصيل الخطة

كان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمّه، فإذا رأيتموني استمكنتُ منه من رأسه فاضربوه، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إنْ شئتم. فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو في الطريق: ما رأيت كالليلة طِيبا أعطر منك، وَزَهَى كعبٌ بما سمع، فقال: عندي أعطر نساء العرب، قال أبو نائلة: أتأذن لي أن أشمّ رأسك؟ قال: نعم فأدخل يده في رأسه فشمّه.فلما استمكن منه قال: دونكم عدوّ الله فاقتلوه، فوقع كعب قتيلا.

رموا رأسه بين يدي رسول الله

كان هذا الطاغية قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله، فلما أجهزوا عليه وشاع الخبر بين قومه، لم يبق حصن لليهود إلا أوقدت عليه النيران حزنا عليه. ورجع الرجال، حتى إذا بلغوا المسجد كبّروا، وسمع رسول الله تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبّر، ورموا برأس هذا الطاغية بين يديه.

لزموا الهدوء واستكانوا

لما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف، دبّ الرعب في قلوبهم العنيدة، وعلموا أن النبيّ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يُجدي نفعا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات؛ وعدم احترام المواثيق، فلم يحرّكوا ساكنا لقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبىء فيها. وهكذا تفرّغ النبيّ لمواجهة الأخطار التي كان

يتوقع حدوثها خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجّسونها، ويشمّون رائحتها بين آونة وأخرى.

غزوة بحران

هي دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها بحران؛ وهي بالحجاز، كان الهدف منها بسط هيبة الإسلام على القبائل العربية؛ وتمكين سيطرته في نفوس أفرادها، عامتها وخاصتها. فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى من السنة الثالثة من الهجرة ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حربا.

سريّة زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أُحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣هـ. وتفصيلها أن قريشا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام، فأخذها همٌّ آخر. قال صفوان بن أمية لقريش؛ وهو الذي انتخبته في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام: إن محمدا أصاب طريقنا إلى الشام، فما ندري كيف نصنع به وبأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوه ووادعهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. ودارت المناقشة حول هذا الموضوع.

طريق العراق

قال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: خذ طريق العراق؛ وهي طريق طويلة جدا تخترق نجدا إلى الشام، وتمرّ في شرقي المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل

هذه الطريق كل الجهل. فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان من بني بكر يكون دليلا له في هذه الرحلة.

الحرب التجارية

وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية للعدو. فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوروبية، وتحويل المعاملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا، وقد سبقه النبيّ محمد؛ هكذا كان يحارب قريشًا في تجارتها، ويبعث السرايا (المجموعات العسكرية) في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

الفرار بدون أي مقاومة!

خرجت قوافل قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن أحدهم اجتمع في مجلس شرب؛ فلما أخذت الخمر منه تحدث بالتفصيل عن قضية القافلة وخطة سيرها، فأسرع رجل إلى النبيّ يروي له القصة. فجهز رسول الله ﷺ حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة، فاستولى عليها كلها، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة. أسر المسلمون دليل القافلة فرات بن حيان ورجلين معه، وحملوا غنائم كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة، قُدّرت قيمتها بمائة ألف، قسّم النبيّ هذه الغنائم على أفراد السريّة بعد أخذ الخُمس، وأسلم الأسرى.

كذبوا وقالوا: جيش محمد قطاع طرق!!

أنكر بعض المتعصّبين من كتَّاب أوروبا هذه السرايا (المجموعات العسكرية) وسمّوها «قطعًا للطريق» وهي هي؛ قوانين المُصَادَرة بعينها التي أقرّها «القانون الدولي» وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور، ورأينا تطبيقها في الحروب المعاصرة فضلا عن الحروب الماضية. كما نرى ونسمع اليوم عن مئات مليارات الدولارات من أرصدة الدول العربية والإسلامية في البنوك العالمية تصادرها أمريكا وبعض الدول الأروبية، لمجرد اتهامها بالإرهاب المزعوم، أليست هذه القرصنة الحقيقة يا كتّاب وإعلاميّو أوروبا؟!

التفكير بالانتقام

كان مصادرة قافلة قريش في سرية زيد بن حارثة مأساة جديدة؛ ونكبة كبيرة أصابت قريشا بعد بدر، اشتدّ لها قلق قريش، وزادتها همّا وحزنا. ولم يبق أمامها إلا طريقان، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزّها القديم، وتقضي على جيش المسلمين، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ولم تنجح، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو في ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أُحد.

غزوة أُحد

استعدّت قريش لمعركة ناقمة، كانت مكة تحترق غيظا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إنّ قريشا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطّن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم. وعلى إثر ذلك اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفي غيظها، وتروي غليل حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

ألف بعير ،وخمسين ألف دينار

كان المحرّضون على هذا الانتقام هم: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة؛ هؤلاء هم أكثر زعماء قريش نشاطا وتحمّسا لخوض هذا الانتقام. وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدا قد أصابكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثارا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، وخمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

التعبئة العامة

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحبّ المساهمة في غزو المسلمين من مختلف القبائل من كنانة وتهامة، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن

أمية أغرى الشعراء بالمال الكثير والعطايا على أن يقوموا بتحريض القبائل ضد المسلمين، وكان أبو سفيان أشدّ تأليبا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السُّويق خائبا لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقدارا كبيرا من أمواله وتمويناته، اغتنمها المسلمون منه. وزاد الطينة بلة؛ ما أصاب قريشا أخيرا في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت ظهر اقتصادها، وزادها من الحزن والهمّ ما لا يُقَدّر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

عدد جيش قريش وقيادته

لما استدار العام؛ كانت مكة قد استكملت عُدّتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والمرتزقة، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تُصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة. أما سلاح النقليات في هذا الجيش كان ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد، يعاونه عكرمة بن أبي جهل، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار. تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب، الكل ينتظر عما سيقع من قتال ومواجهة؛ وما سينتج عن ذلك.

الاستخبارات النبوية

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبيّ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش. وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلو مترا في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبيّ وهو في مسجد قباء. قرأ الرسالة على النبيّ أُبيّ بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار.

إعلان حالة الطوارئ القصوى في المدينة

ظلت المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح، حتى وهُمْ في الصلاة، استعدادا لأي طارىء. قادة من الأنصار؛ فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة؛ قاموا بحراسة النبيّ، فكانوا يبيتون على بابه ومعهم السلاح. وقامت على مداخل المدينة جماعات تحرسها، خوفا من أن يؤخذوا على غرّة. أيضا قامت دوريات من المسلمين لاكتشاف تحركات العدو؛ تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش يصل أسوار المدينة

تابع جيش مكة سيره على الطريق الرئيسية المعتادة، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بنبش قبر أم الرّسول كيدا به، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، ثم واصل جيش مكة سيره نحو المدينة؛ حتى نزل قريبا بجبل أحد؛ فعسكر هناك يوم الجمعة؛ السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

خطة الدفاع

نقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرا بعد خبر، حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسا استشاريا عسكريا أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، ثم قدّم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصّنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشرّ مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي.

رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول

وافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين؛ وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه لأول مرة أمام المسلمين، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك في أحضانهم.

كبار الصحابة أشاروا على النبيّ بالخروج

وقد بادر جماعة من كبار الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، فأشاروا على النبيّ ﷺ بالخروج، وألحّوا عليه في ذلك، حتى قال قائلهم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، وقد ساقه الله إلينا وقرّب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنّا عنهم. وكان في مقدمة هؤلاء المتحمّسين حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله الذي كان قد أروى

سيفه في معركة بدر، فقد قال للنبيّ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة. واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في ساحة المعركة.

النبيّ ﷺ تدجّج بسلاحه

صلّى النبيّ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجدّ والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك. ثم صلى بالناس العصر، وقد احتشدوا، ثم دخل بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فتدجّج بسلاحه، ثم خرج على الناس. وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله على الخروج، فرُدُّوا الأمر إليه، فندموا جميعا على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل. فقال رسول الله: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمته(درع الحرب) أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

توزيع الجيش

قسّم النبيّ جيشه إلى ثلاث كتائب: كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري. كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير. كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

عدد الجيش

كان جيش المسلمين ألف مقاتل، فيهم مائة دارع وخمسون فارسا، وقيل لم يكن من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال.

النبيّ أبى أن يستعين بأهل الكفر

لما جاوز النبيّ المكان؛ رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأُخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين، فسأل: هل أسلموا؟ فقالوا: لا. فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش

استعرض النبيّ ﷺ جيشه، فردّ من استصغره ولم يره مطيقا للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وسعد بن حبة، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب، وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنّهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرا في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع. أنا أصرعه، فلما أُخبر رسول الله بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه، فتصارعا، فصرع سمرة رافعا، فأجازه أيضا.

المبيت بين أُحد والمدينة

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلّى المغرب، ثم صلّى العشاء، وبات هناك، وانتخب خمسين رجلا لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبيّ خاصة.

تمرّد عبد الله بن سلول وأصحابه

قبل طلوع الفجر بقليل، صلى النبيّ الفجر، وكان بمقربة جدا من جيش العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر(ثلاثمائة مقاتل) قائلا: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهرا بالاحتجاج بأن النبيّ ترك رأيه بعدم الخروج للقتال، وأطاع غيره بالخروج.

السبب ليس ما آبداه هذا المنافق

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما آبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى. بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد في ذلك الظرف الدقيق أن يُحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن القتال، وتنهار معنوياته، بينما يتشجّع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبيّ وأصحابه المخلصين، ويصفو له الجو بعد ذلك لعودة الرئاسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

ثم ماذا كان؟

كاد المنافق ابن سلول أن ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همّت طائفتان من أهل المدينة وهما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج أن تفشلا (تتراجعا)، ولكن الله تولاهما، فثبّتنا على الاستمرار بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمّتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

سيُغني الله عنكم

عبد الله بن حرام؛ وهو والد جابر بن عبد الله؛ حاول تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبّخهم ويحضّهم على الرجوع، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع. فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلا: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيُغني الله عنكم نبيه. وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

بقية الجيش الإسلامي

بعد هذا التمرّد والانسحاب؛ قاد النبيّ ﷺ بقية الجيش؛ وهم سبعمائة مقاتل؛ ليواصل سيره نحو أرض المعركة، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أُحد في مناطق كثيرة، فقال: « **مَن رَجلٌ يَخْرُجُ بنا عَلى القَومِ مِن كَثَب (أي من قريب) مِنْ طَرِيق لا يمرُّ بنا عَلَيهم؟**»، فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقًا قصيرًا إلى أُحد يمرُّ بأرض بني حارثة وبمزارعهم، تاركًا جيشَ المشركين إلى الغرب. ومرّ الجيش في هذا الطريق بأرض رجل اسمه (مربع)، وكان منافقا ضرير البصر، فلما أحسّ بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أُحلّ لك أن تدخل أرضي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: «**لا تَقْتُلُوه، فَهَذَا أَعْمَى القَلْب أَعمَى البَصَر**». وسار النبيّ حتى نزل جبل أُحد، فعسكر مستقبلا المدينة، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلا بين جيش المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع

هناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفا للقتال، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلا، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير، وأمرهم بالتمركز على جبل عُرف فيما بعد بجبل الرماة؛ على بعد حوالي مائة وخمسين مترا من مقر الجيش الإسلامي. والهدف من ذلك هو ما قال لقائدهم: **«انضحْ الخيلَ عَنَّا بالنَّبْل، لا يَأْتُونَ مِنْ خَلفِنا، إنْ كانتْ لَنَا أَوْ عَلينا فَاثبُتْ مَكانَكَ لا نُؤْتَيَنّ مِنْ قِبَلك».** ثم قال للرماة: **«احمُوا ظهورَنا، فإنْ رَأيتُمونا نُقتل فَلا تَنصُرونا، وَإنْ رَأيتُمونا قَدْ غَنِمْنا فَلا تُشْرِكُونَا »**. ومع هذه الأوامر العسكرية الشديدة، سدّ رسول الله الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

هكذا تمّت تعبئة الجيش الإسلامي

جعل النبيّ ﷺ في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف، وقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبيّ العسكرية، وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدقّ وأحكم من هذا، فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، وقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره حين يحتدم القتال بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعا مرتفعا يحتمي به إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين، ولا يلتجىء إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطارِدين

وأسْرهم، ويُلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدا أن يحصلوا على شيء من الفوائد إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطارِدين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوّض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين. وهكذا تمّت تعبئة الجيش الإسلامي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ.

من يأخذ هذا السيف بحقه؟

نهى الرسول ﷺ الناس عن البدء بالقتال حتى يأمرهم، وقد حرّض أصحابه وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فيهم، حتى جرّد سيفا باترا ونادى أصحابه: **«مَنْ يأْخُذْ هَذا السّيفَ بحَقّه»**؟ فقام إليه رجال يأخذوه؛ منهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب؛ حتى قام إليه أبو دجانة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: **«أنْ تَضْربَ بِهِ وُجوهَ العَدوّ حَتّى يَنْحَني»**. قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: **«إنّها لمشية يَبغضُها اللهُ إلا في مثل هَذا المَوطن»**.

تعبئة الجيش المكي

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن

الوليد؛ وكان إذْ ذاك مشركا، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة.

لواء الحرب

أما لواء الحرب؛ فكان إلى بني عبد الدار، وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك، تقيّدا بالتقاليد التي ورثوها كابرا عن كابر، بيد أن القائد العام أبا سفيان ذكّرهم بما أصاب قريشا يوم بدر حين أُسر حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ليستفزّ غضبَهم ويُثير حميتهم: يا بني عبد الدار، قد وُلّيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكْفُونا لواءنا، وإمّا أن تُخَلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه. ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشدّ الغضب، وهمّوا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلّم إليك لواءنا؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أُبيدوا عن بكرة أبيهم.

مناورات سياسية

حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين قبل نشوب المعركة بقليل؛ فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: «خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم» ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان؟ فقد ردّ عليه الأنصار ردّا عنيفا، وأسمعوه ما يكره. واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض.

محاولة أخرى!!

خرج إليهم عميل خائن يُسمّى أبو عامر الفاسق، وكان يُسمى الراهب، فسماه رسول الله الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام جاهرَه بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ويحضّهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه، فكان أول من خرج إلى المسلمين، فنادى قومه وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك يا فاسق. وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان، ويدل عملُهُم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة.

نساء قريش في المعركة

قامت بعض نسوة من قريش بالمشاركة في المعركة، تقودهنّ هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكنّ يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال، ويحرّضن على القتال، ويُثرن حفائظ الأبطال، ويحرّكن مشاعر المقاتلين.

أول قتيل في المعركة

تقارب الجيشان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسمّيه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير، ولم يمهله؛ بل وثب إليه وثبة الأسد، حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه. ورأى النبيّ هذا الصراع الرائع، فكبر وكبر المسلمون، وأثنى على الزبير.

ثِقل المعركة حول اللواء

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين. فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، وتقدم للقتال؛ فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه على عاتقه ضربة بَتَرَتْ يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرّته، فبانت رئته ومات على الفور. ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرته، فأدلع لسانه ومات على الفور. ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقضّ عليه الزبير بن العوام وقتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته. هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة بن عبد الدار، قُتلوا جميعا حول لواء المشركين.

عشرة من بني عبد الدار

ثمّ عشرة من بني عبد الدار من حملة اللواء أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء، فتقدم غلام لهم حبشي اسمه صواب فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قُتلوا قبله، فقد قاتل حتى قُطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل. وبعد أن قتل هذا الغلام سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقي ساقطا.

ماذا كان يجري في باقي المواقع؟

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان، وهم يقولون «أَمُت، أَمُت»، كان ذلك شعارا لهم يوم أحد. أقبل أبو دجانة معلما بعصابته الحمراء، آخذا بسيف رسول الله مصمّما على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركا إلا قتله، وأخذ يهدّ صفوف المشركين هدّا.

والله لأنظرنّ ما يصنع؟

قال الزبير بن العوام: وجدتُ في نفسي حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت (أيْ في نفسي): أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركني، والله لأنظرنّ ما يصنع؟ فاتّبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا أجهز عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فضرب المشرك أبا دجانة فأخطأه، فضربه أبو دجانة فقتله.

حمزة بن عبد المطلب

وقاتل عمّ الرسول حمزة بن عبد المطلب قتال الأُسُود، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين؛ فقد

فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صُرع وهو في مقدمة المبارزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجها لوجه في ميدان القتال، وإنما كما يُغتال الكرام في حلك الظلام.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب

يقول قاتل حمزة وحشي بن حرب: كنت غلاما لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد قُتل يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحد قال لي جبير: إنك إن قتلت حمزة عمّ محمد ثأرا لعمّي فأنت حرّ طليق. قال: فخرجتُ مع الناس؛ وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أُخطىء بها شيئا؛ فلما التقى الجيشان خرجتُ أنظر حمزة وأبحث عنه، حتى رأيته يهدّ الناس هدّا، فوالله إني لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، قال: وهززت حربتي، حتى إذا استمكنتُ منها دفعتُها إليه، فوقعتْ في أحشائه حتى خرجت من بين رجليه، وذهب يجري نحوي فغُلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى الجيش، فقعدتُ فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأكسب حريتي، وقد اكتسبتها.

السيطرة على الموقف

برغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله، فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالا فلّ عزائم المشركين، وأنهك قواهم.

حنظلة غسيل الملائكة

وكان من الابطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل، وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سُمّي بالفاسق، كان حنظلة حديث عهد بالعرس، فلما سمع هواتف الحرب وهو مع امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال، أخذ يشق الصفوف، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شدّ على أبي سفيان، فلما استعلاه وتمكّن منه؛ رآه شداد بن الأسود؛ فضربه حتى قتله.

الرّماة على الجبل

وكانت للفرقة التي عيّنها النبيّ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق، ثلاث مرات ليحطّموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيُحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث.

انتصر المسلمون وانهزمت قريش

هكذا دارت رحى الحرب، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطرا على الموقف كله، حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتفرق عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين. فلما أحسّت

قريش بالعجز والضعف، وانكسرت همتهم؛ حتى لم يجترىء أحد منهم أن يدنو من اللواء الذي سقط أرضا بعد مقتل صاحبه، فأخذوا بالانسحاب، ولجأوا إلى الفرار، ونسوا ما كانوا يتحدثون به من أخذ الثأر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

غلطة الرماة الفظيعة

بينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجّل مرة أخرى نصرا ساحقا على مكة؛ لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، خلال ذلك وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماما، وأدّت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سببا في مقتل النبيّ ﷺ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر. حيث تجاوز الرماة نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله إليهم، بلزومهم موقفهم من الجبل على أي حال من النصر أو الهزيمة، لكن على رغم هذه الأوامر المشددة؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يجمعون غنائم العدو، غلب عليهم حبّ الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، فما تنتظرون؟

أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟!

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكّرهم أوامر النبيّ لهم وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟ ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالا، وقالت: والله لنأتينّ الناس فلنصيبنّ من الغنيمة. ثم غادر أربعون رجلا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بالجيش ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا انكشفت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم، مصمّمين على البقاء حتى ينتصروا أو يُبادوا.

تطويق الجيش الإسلامي

انتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، وبدأ خطة تطويق الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن قتل عبد الله بن جبير وأصحابه التسعة وأبادوهم، ثم انقضّ على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحةً عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفّ حوله المشركون، وتنادى بعضهم بعضا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين فكيّ كماشة.

موقف الرسول الباسل

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مجموعة صغيرة، تسعة نفر من أصحابه في مؤخرة جيش المسلمين، كان يرقب المعركة؛ إذْ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة، فكان أمامه طريقان، إما أن ينجو بالسرعة الممكنة بنفسه وبأصحابه إلى ملجأ آخر أكثر أمنا، ويترك جيشه المطوّق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوّق إلى المرتفعات حوله. وهناك تجلت عبقرية رسول الله وتميّزه وشجاعته؛ فقد رفع صوته ينادي أصحابه: **(إليّ عباد الله)**، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مُخاطرا بنفسه في هذا الوقت الخطير. وفعلا فقد علم به المشركون؛ فوصلوا إليه قبل أن يصل إليه المسلمون.

طارت عقولهم وطار صوابهم

أما المسلمون، فلما وقعوا في التطويق طارت عقولهم وطار صوابهم، فلم تكن تهمّها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها؟ وفرّ من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميّزوا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض.

انهيار الروح المعنوية

هذه الطائفة المسلمة؛ حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون، لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحا يصيح: إن محمدا قد قتل. فطارت بقية صوابهم، وكادت الروح المعنوية تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستسلما مستكينا، وفكر آخرون في الاتصال برأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

أنس بن النضر

ومرّ بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل رسول الله!! قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتل،

فما عُرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه (أسنانه)، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم.

ثابت بن الدحداح

ونادى ثابت بن الدحداح قومه، فقال: يا معشر الأنصار، إنْ كان محمد قد قُتل، فإنّ الله حيّ لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد، فما زال يقاتلهم، حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه.

خبر مقتل النبيّ كذب مختلق

لما مرّ رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، قال له: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتل فقد بلّغ، فقاتلوا عن دينكم. وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن سلول، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبيّ كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا في الإفلات عن التطويق، وفي التجمع حول مركز قيادتهم بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

طائفة ثالثة

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمّهم إلا رسول الله. وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وغيرهم، كانوا في مقدمة المقاتلين،

فلما أحسّوا بالخطر على ذات الرسول؛ صاروا في مقدمة المدافعين عنه؛ دون النظر لأيّ اعتبار آخر.

احتدام القتال حول رسول الله

وبينما كانت كتائب جيش المسلمين تعاني إحكام التطويق، وتُطحن بين شقّي رحى المشركين، كان العراك محتدما حول رسول الله، ولم يكن مع الرسول إلا تسعة نفر، فلما نادى رسول الله المسلمين: **(هَلُمّ إليّ، أنا رَسُولُ الله)** سمع صوته المشركون وعرفوه، فتوجّهوا إليه وهاجموه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نوادر البسالة والبطولة. فلما رهقوه المهاجمون قال: **(مَنْ يَرُدّهُمْ عَنّا وَلَهُ الجنّة؟)** فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضا فلم يزل كذلك حتى قُتل الأنصار السبعة.

بقي معه مهاجران فقط!!

ورد في الصحيحين: لم يبق مع النبيّ ﷺ غير رجلين هما: طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله، وكانت فرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين لانتهازها، فقد ركّزوا هجومهم على النبيّ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة وأصيب وجهه، وجُرحت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشجّه في جبهته. وجاء فارسٌ عنيدٌ هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من اختراق الدرع، ثم ضربه على وجنته ضربة أخرى عنيفة كالأولى، وقال: خذها وأنا ابن قمئة.

كيفَ يُفلح قومٌ شجّوا وَجْهَ نبيّهم ؟!

وفي الصحيح: أنه ﷺ كُسرت رُباعيته؛ (أسنانه السفلى ولم تنقلع بالكلية)، وشُجّ في رأسه، فجعل يمسح الدم عنه ويقول: (**كَيفَ يُفلحُ قَوْمٌ شَجّوا وَجْهَ نَبيّهم؟**)، وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [آل عمرن:١٢٨]. وفي رواية الطبراني: أنه حين اشتدّ غضب رسول الله على قومه مكث ساعة ثم قال: «**اللهُمّ اغفرْ لقَوْمي فإنّهُم لا يَعلَمُون**». وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول: «**ربِّ اغفر لقَومي فإنّهم لا يَعلمُون**»، وفي رواية أنه قال: «**اللهمّ اهدِ قَومي فإنّهم لا يَعلمُون**».

كانا اثنين فقط !!

لا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ، إلا أن أصحابه القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا سبيلا إلى نجاح المشركين في تحقيق هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهضا حشود المشركين. فأما سعد بن أبي وقاص، فقد أبدى كفاءته دون أن يحسب حسابا لشيء أمامه، وأما طلحة فقد قتلهم واحدا بعد واحد كما جاء في رواية مسلم، قاتل طلحة حتى ضُربت يدُه فقُطعت أصابعه، وروى الترمذي أن النبيّ ﷺ قال فيه يومئذ: «**منْ يَنظُرُ إلى شَهيد يَمشي عَلى وَجهِ الأرضِ فلينظُرْ إلى طَلحَة بنِ عَبيد الله**». وعن عائشة قالت: كانَ أبو بكر إذا ذُكرَ يومُ أُحُد قال: ذَلكَ اليَوم كُلّه لطلحَة.

جبريل وميكائيل

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة؛ أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين عن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشدّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية يعني جبريل وميكائيل. صحيح البخاري.

تجمّع الصحابة حول الرسول ﷺ

كانت وقعت هذه الأحداث الخطيرة كلها بسرعة هائلة؛ وفي لحظات خاطفة. فصحابة الرسول ممن كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال؛ لم يكادوا يرون تطور الموقف، أو يسمعون صوته حتى يسرعوا إليه؛ إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ما لقي من الجراح الدامية؛ فلما وصلوا أقاموا حوله سياجا من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، وردّ هجماته. وكان أول من رجع إليه هو أبو بكر الصديق.

مشهد دموي!

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت؛ قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد؛ انصرف الناس كلهم عن النبيّ، فكنت أول من رجع إلى إليه، فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، كن طلحة، فلم أمكث أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، فاندفعنا إلى النبيّ، فإذا طلحة بين يديه صريعا، فقال النبيّ ﷺ: **«دُونكُمْ أَخَاكُمْ»**، وقد أُصيب النبيّ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، فذهبتُ لأنزعهما عنه. قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه. وقد أصابته بضع عشرة ضربة.

ثم ماذا؟!

خلال هذه اللحظات الحرجة؛ اجتمع حول النبيّ عصابة من أبطال المسلمين، منهم أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وسهل بن حنيف، وأبو طلحة.

رسول اللّه ﷺ سقط في حفرة

كان عدد المشركين يتضاعف كل لحظة، وقد اشتدّت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله في حفرة كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فأصيبت ركبته، وأخذ عليّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما. قال نافع بن جبير: سمعت رجلا من المهاجرين يقول: شهدتُ أحدا، فنظرت إلى النبل يأتي من كل الجهات نحو رسول الله.

دلّوني على محمد

كل ذلك وصحابة الرسول يصرفون عنه ويحمونه، وعبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله إلى جنبه لا يراه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته! أحلف بالله أنه ممنوع منّا. فخرجنا أربعة. فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

البطولات النادرة

قام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرا. كان أبو طلحة يحيط نفسه حول رسول الله، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو. قال أنس:

لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبيّ، وأبو طلحة ثابتا معه؛ كان رجلا راميا ماهرا بالنبل؛ دقيقا شديد الدقة، كان يرمي والنبيّ ينظر إلى موقع نبله، فيقول أبو طلحة: لا تشرف يا رسول الله لئلا يصيبك سهم من سهام القوم. وقام أبو دجانة أمام رسول الله يحميه بظهره، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

حاطب يقتل عُتبة ويأخذ سيفه وفرسه

حاطب بن أبي بلتعة، تابع عُتبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية الرسول؛ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه. وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه عتبة؛ إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

نماذج بطولية أخرى!

كان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله على الموت، ثم قام بدور فعال في أرض المعركة. وكان رسول الله يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى في قوسه حتى اندقّت، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله بيده، فكانت أحسن عينيه. وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فمُه يومئذ، وجُرح عشرون جراحة أو أكثر، أحدها في رجله فعرج. وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنة الرسول حتى أنقاه؛ ثم أدبر يقاتل، فقال النبيّ ﷺ: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهلِ الجنَّةِ فلينَظُرْ إِلَى هَذا. فقُتل شَهيدا»**.

أمّ عمارة

وقاتلت أم عمارة، فاعترضت لابن قمئة؛ فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحا عميقا، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كان عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحا.

مصعب بن عمير

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبيّ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قُطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قُطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قُتل، وكان الذي قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله لشبهه به، فانصرف ابن قمئة مسرعا إلى المشركين يخبرهم، وصاح: إن محمدا قد قُتل.

إشاعة مقتل النبيّ ﷺ

لم يمض على صياح ابن قمئة دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبيّ في المشركين والمسلمين؛ في هذا الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المنشغلين بالقتال العنيف، ولم يكونوا مع رسول الله، فانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمّتها الفوضى والاضطراب، إلا أنّ هذه الصيحة خفّفت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين؛ لظنّهم أنهم نجحوا في تحقيق غاية أهدافهم، فانصرف الكثير منهم للتمثيل في قتلى المسلمين.

الانسحاب المنظم !!

لما قُتل مصعب؛ أعطى رسول الله اللواء عليّ بن أبي طالب، فقاتل قتالا شديدا، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون. حينئذ استطاع رسول الله أن يشقّ الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم، فعرفه كعب بن مالك؛ وكان أول من عرفه؛ فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه أن أصمت؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون. إلا أن هذا الصوت بلغ آذان المسلمين، فلاذوا إليه؛ حتى اجتمع حوله ثلاثون؛ وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله في الانسحاب المنظم، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم لعرقلة الانسحاب؛ إلا أنهم فشلوا.

فرس رسول الله عثرت في حفرة !!

تقدم أحد فرسان المشركين؛ وهوعثمان بن عبد الله بن المغيرة؛ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا، وتقدم نحوه لقتله؛ فقام رسول الله لمواجهته. إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة، لكن رسول الله ضرب على رجله فأقعده، ثم وقف عليه، وأخذ سلاحه. استسلم الحارث ثم أسلم والتحق برسول الله.

أبو دجانة مرة أخرى

عبد الله بن جابر؛ فارس آخر من فرسان المشركين؛ انقضّ على الحارث بن الصمة بعدما أسلم، فضربه بالسيف على عاتقه، فجرحه؛ حتى حمله المسلمون، ولكن انقضّ أبو دجانة البطل المغامر ذو العصابة الحمراء على عبد الله بن جابر، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

المسلمون يأخذهم النّعاس أمنة من اللّه!!

وأثناء هذا القتال المرير، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه.صحيح البخاري. وبمثل هذه البسالة نجحت هذه الكتيبة في انسحاب منظم، وشق بقية الجيش طريقا إلى هذا مكان أكثر أمنا ونجاة، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله.

مقتل أبيّ بن خلف

لما اطمأنّ رسول الله في مكانه الآمن؛ أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا؟ فقال القوم: يا رسول الله أيقتله رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض انتفاضة عظيمة، فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه مرارا، كان يخور خوار الثور. وكان يقول: لو كان الذي بي من وجع بأهل ذي المجاز لماتوا جميعا، ثم مات.

ذي المجاز: هو أحد أسواق العرب في الجاهلية، وكانت العرب تقيم فيه بأعداد كبيرة.

طلحة ينهض بالنبيّ ﷺ

وفي أثناء انسحاب رسول الله إلى الجبل، عرضت له صخرة، فنهض إليها ليعلوها، فلم يستطع، وقد أصابه جرح شديد، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها وقال: أوجب طلحة؛ أي الجنّة.

آخر هجوم قام به المشركون

لما تمكّن رسول الله في مقر قيادته في الجبل؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين؛ يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل. كما أن المشركين صعدوا على الجبل مرة ثانية، فقال رسول الله ﷺ لسعد: ارْدُدْهُمْ عنا؛ فقال سعد: كيف أرددهم وحدي؟ فقال ذلك ثلاثا، فأخذ سعد سهما من كنانته، فرمى به رجلا فقتله، قال: ثم رمى به آخر فقتله، ثم رمى به آخر فقتله، فهبطوا من مكانهم.

تشويه شهداء المسلمين

لما لم يكن المشركون يعرفون من مصير النبيّ شيئا؛ وكانوا على شبه اليقين من قتله، رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم (رجالا ونساء) بقتلى المسلمين، يمثّلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون، وبقرت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بطن حمزة، واسنخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف والعظام خلاخيل وقلائد.

الاستعداد للقتال حتى نهاية المعركة

في هذه الساعة الأخيرة؛ وقعت أحداث تدل على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم في سبيل الله؛ رغم نتائج المعركة. قال كعب بن مالك: لما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت أجوب المكان، فإذا رجل من المشركين

ورجل من المسلمين ينتظره، فمضيت حتى كنت من ورائه، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلمُ الكافر ضربة انقسم بها قسمين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة.

نساء المسلمين ودورهم في نهاية الحرب

جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وأنهما لتسقيان القوم، ثم ترجعان فتملآن القرب، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه الجرحى. وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة هاربين من المعركة، أخذت تحثو في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هلمّ سيفك وَعُدْ. ثم سارعت إلى ساحة القتال تسقي الجرحى، فرماها أحدهم بسهم، فوقعت وتكشّفت، فأغرق الرجل بالضحك، فشقّ ذلك على رسول الله، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما وقال: ارم به، فرمى به سعد، فوقع السهم في نحر الرجل، فوقع مستلقيا حتى تكشّف، ثم قال: انتقم لها سعد.

ساعات أولى بعد انتهاء الحرب

لما استقرّ رسول الله ﷺ في مقرّ قيادته؛ خرج علي بن أبي طالب وملأ قربته بالماء؛ فجاء به إلى رسول الله ليشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصبّ على رأسه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على من دمى وجه نبيه. وقال سهل: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووي. كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا

كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم. وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبيّ، ودعا له بخير؛ وصلى الظهر قاعدا من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعودا.

شماتة أبي سفيان

لما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. وكان النبيّ ﷺ منعهم من الإجابة، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فلما لم يسمع إجابة قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم(أي قتلتموهم)، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءَك.

أُنشدك الله يا عمر: أقتلنا محمدا؟

ثم قال أبو سفيان لقومه: اعل هبل. فقال النبيّ ﷺ: ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ. ثم قال: لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال النبيّ ﷺ: ألا تجيبونه؟ قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم. ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر سواء، والحرب سجال. فأجاب عمر وقال: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. ثم قال أبو سفيان: هلمّ إلي يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: ائته فانظر ما شأنه؟ فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا؟ قال عمر: اللهمّ لا، وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة.

اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟

ثم بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد ركبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون العودة إلى مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فركبوا الخيل وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة.

تفقّد القتلى والجرحى

فرغ الناس بعد ذلك لتفقد القتلى والجرحى، بعد انصراف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله(أي قصّرتم في حقه) وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته.

هو من أهل الجنة؛ ولم يصلّ لله صلاة قط!!

ووجدوا في الجرحى الأصيرم(عمرو بن ثابت) وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه

يرفض الإسلام، ثم سألوه: ما الذي جاء بك؟ أكراهية لقومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله فقال: هو من أهل الجنة. قال أبو هريرة: ولم يصلّ لله صلاة قط.

هذا مصير المقاتلين في سبيل الوطن !

ووجدوا في الجرحى قزمان؛ وكان قد قاتل قتال الأبطال، قَتَل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين؛ وجدوه قد أنهكته الجراح، فاحتملوه وبشّره المسلمون؛ فقال: والله إن قاتلت إلا دفاعا عن قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فلما اشتدّ به الوجع نحر نفسه. وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: إنه من أهل النار. وهذا هو مصير المقاتلين من أجل الوطن والوطنية في زماننا هذا، أو من أجل الدفاع عن أرض الوطن لمجرد أنه وطن لا أنه وطن إسلامي، فاليهودي والنصراني والبوذي والهندوسي كذلك، هم يدافعون عن أوطانهم، أو كمن يقاتل في سبيل التنظيمات والحركات والأحزاب، أو من أجل الشهرة والظهور على الشاشات أو في وسائل الإعلام، أو من أجل الرواتب والرتب!! أو في أيّ سبيل سوى إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفي جيش الرسول والصحابة!! لأن الشهادة والجنة يمتلكها الله؛ ولا يمتلكها الوطن ولا التنظيمات ولا الأحزاب، ولا وسائل الإعلام، فمن يقاتل من أجل هذه فليطلب أجره منها لا من الله!!

(مخيريق) اليهودي

وعلى عكس من هذا، كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود؛ والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدّته، وقال: إن أُصبت فمالي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: مخيريق خيرُ يهود.

دفن الشهداء

أشرف رسول الله ﷺ على الشهداء، كان عددهم سبعون شهيدا، فقال: أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يُدمى جُرحُه؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك. وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فأمر أن يردّوهم فيدفنوهم في أرض المعركة، وأن لا يُغَسّلوا، وأن يُدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع العتاد عنهم، وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، ويقول: أيّهم أكثر أخذا للقرآن؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدّمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة.

نعش حنظلة يقطرُ منه الماء!

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقّدوه، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسولُ الله أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: سلوا أهله ما شأنه؟ فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر؛ لقد كان عريسا ليلة وقوع المعركة، فخرج مسرعا للحرب وهو في حالة جنابة! ومن هنا سُمّي حنظلة: غسيل الملائكة.

ما رأيناه باكيا أشدّ من بكائه على حمزة

لما رأى الرسول ﷺ ما بحمزة؛ وهو عمّه وأخيه من الرضاعة؛ اشتدّ حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي، وذلك في الله، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله. فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه(أي دَعَتْ له) واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله بدفنه مع عبد الله بن جحش؛ وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة. قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله باكيا قط أشدّ من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى شهق من البكاء.

الرسول ﷺ يدعو ربّه

روى أحمد: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنْ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلْ**

الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

نوادر الحب والتفاني

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنين والمؤمنات، كما ظهرت في أثناء المعركة. لقيته في الطريق حمنة بنت جحش، فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان.

قالت: فما فعل رسول الله؟

ومرّ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجُها وأخوها وأبوها بأُحُد، فلما نعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها، حتى إذا رأته قالت: ما مصيبة بعدك.

ومن يبكي عليهم بعد هذا؟

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله أمّي، فقال: مرحبا بها. ووقف لها. فلما دنت عزّاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذْ رأيتك سالما، فقد قلّت المصيبة. ثم دعا لأهل من قُتل بأُحد وقال: يا أم سعد أبشري وبشّري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا، وقد شُفِّعوا في أهلهم جميعا. قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟

يغسل سيفه من الدماء

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم إلى المدينة؛ فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: اغسلي عن هذا دَمَهُ يا بنيّة، فوالله لقد صدقني اليوم. وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: وهذا أيضا فاغسلي عنه دَمَه، فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ: لئن كنتَ صدقتَ القتال، لقد صدقَ معك سهلُ بن حنيف وأبو دجانة.

عدد القتلى في معركة أُحُد

اتفقت أكثر الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار، فقد قُتل منهم خمسة وستون رجلا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربع وعشرون من الأوس، وقُتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط. وأما قتلى المشركين فقد كانوا اثنان وعشرون قتيلا، وقيل: سبعة وثلاثون.

إعلان حالة الطوارىء في المدينة

بات المسلمون في المدينة ليلة الأحد؛ وهي أول ليلة بعد الرجوع من معركة أحد؛ وهم في حالة الطوارىء، باتوا وقد أنهكهم التعب، ومع ذلك فهم يترقّبون كل حركة قد تحدث، باتوا ليلتهم وهم يحرسون أبواب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله خاصة، إذْ كانوا في حالة ترقّب؛ تلاحقهم الأخطار من كل جانب.

قرار النبيّ مطاردة جيش مكة!

بات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف، وكيف يردّ الاعتبار والهيبة للجيش الإسلامي، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئا من النصر

والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمّم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي.

استجاب له المسلمون رُغم الجراح الشديدة

ذكر المؤرخون: إن النبيّ ﷺ نادى في الناس إلى لقاء العدو، وذلك صباح الغد من معركة أحد، وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال، فقال له عبد الله بن سلول: أركبُ معك؟ قال: لا. واستجاب له المسلمون رُغم الجراح الشديدة، والخوف والتعب، وقالوا: سمعا وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إني أحبّ أن لا تشهد مشهدا إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأْذن لي أسير معك، فأذن له.

غزوة حمراء الأسد

سار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك. وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله فأسلم، وكان ناصحا لرسول الله، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك؛ فأمره رسول الله أن يلحق أبا سفيان فَيُخَذّله.

قالوا: ارجعوا حتى نستأصلهم

لم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقّا، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة عائدين إلى مكة؛ تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لَمْ تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصلهم جميعا.

خالفهم صفوان قائلا: يا قوم، لا تفعلوا

ويبدو أنّ رأيهم هذا بالدعوة لاستئصال المسلمين جاء سطحيا؛ ممن لم يكن يقدّر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرا صحيحا، ولذلك خالفهم زعيم منهم وهو صفوان بن أمية قائلا: يا قوم، لا تفعلوا؛ فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلّف من الخروج؛ أيْ من المسلمين في غزوة أحد؛ فاستمِرّوا إلى مكة، فإني لا آمن إن رجعتم لهم إلى المدينة أن تكون الغلبة لكم. إلا أنّ هذا الرأي رُفض أمام رأي الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة.

محمد خرج يطلبكم في جمع لم أر مثله قط!!

ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقرّه؛ لحقه معبد الخزاعي، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد- وقد شنّ عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيّعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟ والله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم. قال: لا تفعل، إني ناصح.

ثمّ ماذا حدث؟!

حينئذ؛ انهارت عزائم الجيش المكي، وأخذه الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة. بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي، لعله ينجح في كفّ هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعا فهو ينجح في الاجتناب عن لقائه، فقد مرّ به ركب من عبد القيس يريد المدينة،

فقال: هل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة، وأحمّل لكم راحلتكم هذه زبيبا؟ قالوا: نعم. قال: فأبلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الكرّة لنستأصله ونستأصل أصحابه.

ردّ القرآن على هذا التهديد

مرّ الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان، تهديدا ووعيدا لهم، كما ذكر القرآن الكريم هذا التهديد، وكما ردّ القرآن على هذا الوعيد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

أبا عزة الجمحي يخدع رسول الله

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وأخذ رسول الله قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحي؛ وهو الذي كان قد منّ عليه من أسارى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على أن لا يظاهر عليه أحدا، ولكنه نكث وغدر، فحرّض الناس بشعره على النبيّ والمسلمين، وخرج لمقاتلتهم في أحد؛ فلما أخذه رسول الله قال: يا محمد أطلقني؛ دعني لبناتي، وأعطيك عهدا أن لا أعود لمثل ما فعلت، فقال النبيّ: بعدها تقول: خدعتُ محمدا مرتين، لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين، ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

معاوية يتجسّس لحساب قريش

كما أن النبيّ ﷺ حكم بالإعدام على جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، جدّ عبد الملك بن مروان لأمّه، وذلك أنه لما رجع المشركون

يوم أحد جاء معاوية إلى ابن عمه عثمان بن عفان، فاستأمن له عثمان رسول الله، فأمّنه على أنه إن وُجد بعد ثلاث قتله، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسّس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربا، فأمر رسول الله زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه.

هل كانت معركة أُحد هزيمة للمسلمين؟

طالما بحث الباحثون حول نتائج هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذي لا يُشك فيه أن التفوق العسكري في المرحلة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة المؤمنين انهزمت قطعا، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي، لكن هناك أمورا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر للمشركين، لماذا:

لأن الجيش الإسلامي لم يلتجيء إلى الفرار

مما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش الإسلامي لم يلتجىء إلى الفرار؛ رُغم الارتباك الشديد والفوضى العارمة؛ بل قاوم بالبسالة حتى تجمّع حول مقرّ قيادته، وأن أحدا من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى المرحلة الثالثة من القتال؛ مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوما أو يومين أو ثلاثة أيام كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان، بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال قبل أن يتركها

المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات، وكانت مفتوحة وخالية تماما.

لم يكن أكثر من أنّهم وجدوا فرصة

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش؛ لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي بعد عمل التطويق، وكثيرا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون؛ أما أن ذلك كان نصرا عظيما للمشركين؛ فكلا وحاشا. بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف؛ أنه كان يخاف على جيشه الهزيمة لو جرت مرحلة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكيدا حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حمراء الأسد.

كانت حربا غير فاصلة

إذن؛ فهذه الغزوة إنما كانت حربا غير فاصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال، من غير أن يفرّ عن ساحة القتال ويترك مقرّه لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير الفاصلة. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. فقد شبّه أحد العسكرين بالآخر في إيقاع الألم، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا لا غالب ولا مغلوب.

القران يتحدّث حول المعركة

نزل القرآن يلقي ضوءا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، ويدلي بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيّلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

فضح المنافقين

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين؛ فضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود أصحاب الدسّ والمؤامرة؛ وقد أشار إلى الحِكَم والغايات المحمودة التي تمخّضت عنها هذه المعركة.

ستون آية من سورة آل عمران

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران، تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. وتترك في نهايتها تعليقا جامعا على نتائج هذه المعركة وحكمتها: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الفوائد والحِكم

كان في قصة أُحد وما أُصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ بأن لا يبرحوا منه. ومنها: أن عادة الرسل أن تُبتلى؛ والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل كل الناس في الإسلام، ولما وجدنا كافرا على الأرض! ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائما ما وجدنا مؤمنا على الأرض! فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصديق من العدو. ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس، وكسرا لشماختها، فلما ابتُلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون. ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في الجنة لا تبلغها أعمالهم، فقيّض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ماذا أيضا؟

ومنها أيضا: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم. ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم، وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحّص بذلك ذنوب المؤمنين، وَمحَق بذلك الكافرين.

العبر والدلالات

أولا: أن الطاعة هي قوام النظام في كل جيوش العالم، فإذا ما انعدمت الطاعة فسدت الخطة، وصار الأمر فوضى وخسارة عظيمة.

ثانيا: ضرورة التحمّل والصبر على ابتلاءات الله، وفي هذا درس لكل داعية، فلو قطع الله كل يد امتدت إلى رسول الله في حينه، لما صبر داعية، ولا تحمل مسلم أذى كافر، ولقيل: إن الله لم ينتصر لنا كما انتصر لنبيّه.

ثالثا: تأخير النصر في بعض المواقف حكمة، فهو لتربية للنفوس وكسر شموخها وتعاظمها.

رابعا: بيان حنكة رسول الله الحربية، وبراعته العسكرية، وتقديره الدقيق للموقف، مع سرعة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب، مع السيطرة التامة على سير الأحداث؛ فالتفاف جيش خالد كان كافيا لإفناء جيش المسلمين، وتحطيم كل عناصره وعتاده؛ فجاءت الحنكة والاتزان والهدوء بفكّ الطوق والانسحاب التكتيكي المنظّم إلى جبل أحد. فاستطاع النبيّ أن ينجو مع جيشه بأقل خسارة.

خامسا: كما أن شيوع خبر مقتل رسول الله كان له فائدة عظيمة، وهي ترويض نفوس المسلمين على فراقه حين موته، بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه. ولم يكونوا يتخيلون قدرتهم على التماسك من بعده، فلا يرتدّوا على أعقابهم إذا اختفى من بينهم في يوم وليلة، قال الله تعالى: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بعثات الرسول إلى القبائل

كان لمأساة أُحُد أثرٌ سيءٌ على سمعة المسلمين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم من النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية عليهم، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وأظهر اليهود والمنافقون والأعراب العداء للمسلمين، وهمّت كل طائفة منهم أن تنال منهم، بل طمعت في أن تقضي عليهم، وتستأصلهم.

قبائل العرب تستعد لاستئصال المسلمين

لم يمض على معركة أُحد شهران فقط؛ حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة، ثم قامت قبائل عربية سنة ٤ هـ بمكيدة، سببت في قتل عشرة من الصحابة، وفي نفس الشهر قامت قبيلة بني عامر بمكيدة مثلها، سببت في قتل سبعين من الصحابة، وتُعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة، ولم تزل بنو نضير (يهود) خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤ هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبيّ، وتجرأت بنو غطفان أيضا، حتى همّت بالغزو على المدينة.

النبيّ ﷺ يحفظ سمعة جيشه

المطاردة!! تلك هي حكمة النبيّ محمد التي صرفت وجوه القبائل؛ وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها مقدارا كبيرا من سمعة جيشه، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين في الدهشة والذهول، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل إنها زادت.

سريّة (كتيبة) أبي سلمة

أول من قام ضدّ المسلمين بعد نكسة أُحُد هُمْ بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات

المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله. فسارع الرسول ﷺ إلى بعث سرية (كتيبة)

قوامها مائة وخمسون مقاتلا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم أبا سلمة، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتّتوا، وأصاب المسلمون إبلا وغنما لهم، فاستاقوها وعادوا إلى المدينة سالمين لم يلقوا حربا. كان ذلك سنة ٤ هـ، وعاد أبو سلمة وقد أوجعه جُرح كان قد أصابه في أُحُد، فلم يلبث كذلك حتى مات.

ابن أنيس قتل الهذليّ وجاء برأسه

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر المحرم سنة ٤ هـ- نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل النبيّ إليه عبد الله بن أنيس ليقضي عليه. ظلّ ابن أنيس غائبا عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم عاد وقد قتل خالدا وجاء برأسه، فوضعه بين يدي رسول الله.

مائة مقاتل هاجموا عشرة مسلمين

في نفس السنة؛ قَدِم على رسول الله ﷺ قوم من قبائل المشركين. وذكروا أن فيهم إسلاما. وسألوا أن يبعث معهم من يعلّمهم أحكام الدّين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم عشرة نفر من المسلمين؛ وأمّر عليهم عاصم بن ثابت جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب، فذهبوا معهم، فلما كانوا بناحية الحجاز، هاجموهم في مائة مقاتل، فأحاطوا بهم؛ فقاتلهم عاصم وأصحابه، فقُتل منهم سبعة، وبقي ثلاثة؛ فأعطوهم العهد والميثاق.

قَتلوا (خبّاب) وصَلبُوه

لكنهم بعد ذلك غدروا بهم وربطوهم؛ فقتلوا أحد المسلمين، وانطلقوا بالاثنين فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر، أما أحدهما (خبّاب) فمكث

عندهم في السجن، ثم أجمعوا على قتله، قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فلما سلّم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا، ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مضجعي

فقال له أبو سفيان: أيسرّك أن محمدا عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرّني أني في أهلي وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثم صلبوه، ووكّلوا به من يحرس جثته، ثم جاء رجل فاحتمله بخدعة ليلا، فذهب به فدفنه.

خبيب أول من سنّ الركعتين عند القتل

كان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قتل أباه يوم بدر. وفي الصحيح أن خبيبا أول من سنّ الركعتين عند القتل، وأنّه رُئي وهو أسير يأكل قطفا من العنب، وما بمكة ثمرة. وأما الأسير الثاني واسمه (زيد) فاشتراه صفوان بن أمية، فقتله بأبيه.

الله يحفظ العبد المؤمن بعد وفاته

أرادت قريش ليأتوا بشيء من جسد عاصم ليعرفونه، وكان عاصم قَتَلَ رجلا عظيما من عظمائهم يوم بدر، لكن الله بعث عليه مثل الظلة من الدبابير(الزنابير) فحمت جسده، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهدا أن لا يمسّه مشرك، ولا يمسّ مشركا، وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته.

مأساة بئر معونة

في نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع؛ وقعت مأساة أخرى أشدّ وأفظع من الأولى، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة؛ وملخصها: أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنّة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه الرسول إلى الإسلام فلم يسلم، فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «إني أخاف عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم.

ثم ماذا؟

بعث معه سبعين رجلا، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرّائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفّة، ويتدارسون القرآن، ويصلّون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة بين مكة والمدينة؛ فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة.

قتلوا سبعين من علماء المسلمين

ثم استنفر ابن الطفيل بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله، فقاتلوهم حتى أجهزوا على آخرهم، إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه أصيب وفقد وعيه، فعاش حتى قُتل يوم الخندق.

قتلوا المنذر وأسروا عمرو

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في جمع المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأُسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر أعتقه عامر عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبيّ حاملا معه أنباء المصاب العظيم؛ مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذَكّر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

عمرو بن أمية يثأر لأصحابه ؛ ليته ما فعل !

ولما كان عمرو بن أمية عائدا في الطريق، نزل في ظل شجرة؛ وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، لكن كان معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يعلم به، فلما قدم أخبر رسول الله بما فعل، فتألم النبيّ لأجل هذه المأساة تألما شديدا، وأيضا لأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة؛ وتغلّب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه.

الرسول ﷺ يدعو في صلاة الفجر شهرا

ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبيّ في ليلة واحدة، مما ترك حزنا ومقتا في صدر رسول الله، فلجأ إلى ربه بالدعاء. جاء في الصحيح عن أنس قال: دعا النبيّ ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: «عصية

عصت الله ورسوله»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد «بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله دعاءه وقنوته.

غزوة بني النضير

اليهود في المدينة كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دسّ ومؤامرة؛ كانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعا من الحيل، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

لكنهم تجرّأوا بعد غزوة أُحُد

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين. وصبر النبيّ ﷺ على ذلك؛ ثم ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، حتى خططوا بهدف القضاء على رسول الله.

كيف تآمروا على قتل النبيّ؟!

بيان ذلك: أن النبيّ ﷺ خرج إليهم في عدد من أصحابه، وطلب أن يُعينوه في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري؛ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة؛ فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظرون وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه. وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، فتآمروا على قتل النبيّ، وقالوا:

أيكم يأخذ هذه الرّحى (حجرا كبيرا)، ويصعد فيلقيها على رأسه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هَمَمْتُمْ به، وإنه لَنَقْضُ العهد الذي بيننا وبينه، لكنهم أعرضوا عنه؛ وعزموا على تنفيذ خطتهم.

أمهلهم عشرة أيام للخروج من المدينة

نزل جبريل من عند ربّ العالمين على رسول الله ﷺ يُعلمه بما همّوا به، فنهض مسرعا، وتوجّه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همّت به يهود. وما لبث رسول الله أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجّلتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه. ولم يجد اليهود مناصا من الخروج، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل.

ثمّ ماذا حدث؟!

بيد أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول بعث إليهم أن اثبتوا وتمنّعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإنّ معي ألفي رجل مقاتل يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر:١١]. وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان. وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى النبيّ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

كانوا على درجة من القوة

لا شك أن الموقف كان حرجا بالنسبة إلى المسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم سيكون صعبا، وقد رأوا كلب العرب عليهم،

وفتك القبائل الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم أمرا صعبا بعد مأساة بئر معونة؛ وزاد حساسية المسلمين جرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعاتٍ وأفرادا، ومن ثَمَّ قرروا أن يقاتلوا بني النضير؛ بعد همّهم باغتيال الرسول مهما تكن النتائج.

فرضَ الحصار عليهم

لما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب؛ كبّر وكبّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار. والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونا لهم في ذلك، فأمر الرسول بقطعها وتحريقها، فاعترضوا على هذا الأمر؛ لكن الله تعالى أنزل قرآنا يدافع عن رسوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ [الحشر: ٥]. لينة: شجرة نخل.

خانهم عبد الله بن سلول

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ وتخلى عنهم حلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم مساعدة، أو يدفع عنهم شرا، ولهذا شبّه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦] ولم يَطُل الحصار؛ فقد دام خمس عشرة ليلة فقط؛

حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام وإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى النبيّ ﷺ: نحن نخرج عن المدينة.

شروط المغادرة

اشترط عليهم رسول الله ﷺ حين مغادرة المدينة؛ أن يخرجوا من ديارهم بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. فنزلوا على ذلك، وخرّبوا بيوتهم بأيديهم لئلا يستفيد منها المسلمون، حملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضُهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، حملوا كل ذلك على ستمائة بعير، رحلوا ورحل أكابرُهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى مدينة اليهود الثانية خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط.

كانت أموالهم وديارهم خالصة للمسلمين

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفا. وكانت أموال بني النضير وديارهم خالصة لرسول الله، يضعها حيث يشاء، ولم يأخذ منها الخُمس فقط كما سبق من الحروب، لأن الله أفاءها كلها عليه، ولم يوجف (يحارب) المسلمون عليها بخيل ولا ركاب كما في بدر وأُحُد، فقسّم هذه الممتلكات بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة كاملة، ثم جعل ما بقي من السلاح والعتاد مع جيش المسلمين في سبيل الله.

سورة الحشر بأكملها نزلت في بني النضير

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة/ أغسطس ٦٢٥ م، وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبيّن أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبيّن القرآن جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته. وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: سورة النضير.

الرسول ﷺ يتفرغ لقمع الأعراب

وبهذا النصر الذي حققه المسلمون في غزوة بني النضير؛ دون خسائر مادية أو تضحيات جسدية؛ توطّد سلطانهم في المدينة، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، ذلك أمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أُحُد، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها بلا هوادة، بلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بالهجوم على المدينة واستئصال الإسلام والمسلمين فيها. فبادر النبيّ للقيام بتأديب أولئك قبل تحقيق مخططاتهم.

هكذا أرهب المسلمون هذه القبائل

نقلت إليه استخبارات المدينة باحتشاد جموع البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، فسارع النبيّ إلى الخروج، يُلقي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة؛ حتى لا يعاودوا جرائمهم التي ارتكبوها مع المسلمين. وأضحى الأعراب الذين اعتادوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين؛ إلا تمنّعوا في رؤوس

الجبال. وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل؛ وخلطوا بمشاعرهم الرعب، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين.

غزوة نجد (ذات الرقاع)

ذكر المؤرخون بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد في شهر ربيع الثاني سنة ٤ هـ، ويُسمّون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع. إن وقوع هذه الغزوة خلال هذه المدة في هذا اللقاء الرهيب خارج المدينة؛ كانت تقتضيه الظروف، خصوصا أن ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم، لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعا، بل كان لا بد من نزع شوكتهم، وكفّ شرّهم بمثل هذه الحرب التي ما كانوا يتوقعون وقوعها.

غزوة بدر الثانية

نزع المسلمون شوكة الأعراب، وكفّوا شرّهم، ثم أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر، فقد استدار العام، وحضر الموعد المضروب مع قريش بعد غزوة أحد؛ وحقّ لمحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين؛ وأجدرهما بالبقاء.

خرج رسول الله في ألف وخمسمائة رجل

ففي شعبان سنة ٤ هـ؛ يناير سنة ٦٢٦ م، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين. أما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرسا، حتى انتهى إلى (مرّ الظهران على مسافة من مكة) فنزل قرب بئر ماء في تلك المنطقة.

أبو سفيان أخذه الرعب

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلا، يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الرهبة، فلما نزل بمرّ الظهران انهار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

المسلمون: ثمانية أيام ينتظرون!

قال أبو سفيان ما قاله لقريش، وقد بدأ الخوف والرعب يستولي على مشاعر الجيش المكّي، وقد رجع الناس ولم يُبدوا أي مصادمة لهذا القول؛ ولا أي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين. أما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام الأمر إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم في النفوس؛ وسادوا على الموقف. وتُعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، أو بدر الثانية، أو بدر الآخرة؛ أو بدر الصغرى.

غزوة دومة الجندل

عاد رسول الله ﷺ من بدر الثانية، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرّغ للتوجّه إلى أقصى حدود العرب؛ حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك القريب والبعيد، والعدو قبل الصديق. مكث بعد بدر الثانية في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل

(قريبا من الشام) تقطع الطريق هناك، وتنهب من يمرّ بها، وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فخرج النبيّ في ألف من المسلمين سنة ٥ هـ، وأخذ رجلا من بني عذرة دليلا للطريق.

أهل دومة الجندل فرّوا في كل ناحية

خرج الرسول إليهم يسير في الليل ويكمن في النهار؛ حتى يفاجىء المسلمون أعداءهم وهم يهاجمونهم، فلما دنا منهم إذا هم أول الليل، فباغت هؤلاء المجرمين قطاع الطرق، وهجم على ماشيتهم ورعاتهم، واجتاح المسلمون ديارهم ومنازلهم؛ فأصاب من أصاب، وهرب من هرب. أما أهل دومة الجندل ففرّوا في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا يقاتلونه، فأقام رسول الله فيها أياما، ولم يُصَبْ منهم أحدا، ثم رجع إلى المدينة.

تحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين

بهذه القرارات السريعة الحاسمة، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة؛ نجح النبيّ ﷺ في بسط الأمن، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالت عليهم، وأحاطتهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتمّ إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وبإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وانتهت قريش عن مهاجمة المسلمين في هذه المرحلة، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالة ربّ العالمين.

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن إلى المدينة، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود الذين كانوا قد ذاقوا ألوانا من الذلة والهوان؛ نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم؛ لم يرتدعوا ولم يستكينوا؛ ولم يتّعظوا بما أصابهم، فبعد نفيهم إلى خيبر؛ ظلوا ينتظرون ما يحلّ بالمسلمين نتيجة المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين. ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخّضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم، ازداد تحرق اليهود بالقهر والغيظ.

ماذا حدث؟!

شرعوا في التآمر من جديد، وأخذوا يُعِدّون العُدّة لتهيئة ضربة قاسية ضدّ المسلمين؛ ضربة تكون هي القاضية والقاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض. ماذا خططوا؟ لقد خططوا:

خطة رهيبة

خرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة وإلى قبائل العرب، يحرّضونهم على غزو الإسلام والمسلمين، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وقريش قد أخلفت وعدها بالقتال في بدر الثانية، فرأت في ذلك إنقاذ سمعتها. ثم توجّه وفد اليهود إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشا، فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك،

فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبيّ ودعوته والمسلمين.

جيش عظيم يبلغ عشرة آلاف مقاتل

وفعلا خرجت قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة؛ وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف مقاتل، وانضمّ معهم بنو سليم. وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، وبنو مره، وبنو أشجع. كما خرجت بنو أسد وغيرها. اتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه. وبعد أيام كان قد تجمع حول المدينة جيش عظيم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل؛ جيش ربما يزيد عدده على جميع أهل المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

أعظم خطر على كيان المسلمين

لو بلغت هذه الأحزاب المحزّبة والجنود المجنّدة إلى أسوار المدينة بغتة؛ لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين، ربما تبلغ إلى استئصال وجودهم؛ وإبادة استمرارية بقائهم، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة مستعدّة ويقظة، تمتاز بالذكاء والدهاء، لم تزل واضعة أناملها على مواطن الضعف، تتحسّس بها الظروف وتقدّر ما ينتج عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

ماذا فعل رسول اللّه؟

سارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت، اتفقوا على قرار قدّمه الصحابي الكريم

سلمان الفارسي. قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا حفرنا خندقا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك. وأسرع النبيّ إلى تنفيذ هذه الخطة.

يُقاسُون من شدّة الجوع

بدأ المسلمون في سرعة ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله يحثّهم ويساهمهم في عملهم هذا، ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على (أكتافنا). عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق. وكان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع، ما يُفَتّتُ الأكباد. وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله الجوع؛ فرفعنا عن بطوننا نربط عليها حجرا من شدة الجوع، فرفع رسول الله عن بطنه يربط عليها حجرين!!

آيات من أعلام النبوة

وبهذه المناسبة، وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله في النبيّ خمصا (جوعا) شديدا، فذبح بهيمة؛ وطحنت امرأته صاعا من شعير؛ ثم التمس من رسول الله سرّا أن يأتي في نفر من أصحابه، فقام النبيّ ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف؛ فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت كومة اللحم تغطّ كما هي؛ والخبز كما هو!!

حفنة من تمر !

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغذّى أبوه وخاله، فمرّت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدّده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه. وجعل التمر يزيد حتى شبع أهل الخندق وزاد، وإنه يسقط من أطراف الثوب!!

صخرة كبيرة

وأعظم من هذين: ما رواه البخاري عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية(صخرة) شديدة، فجاؤوا النبيّ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر؛ ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق طعاما، فأخذ النبيّ المعول، فضرب فعاد كثيبا أهيل، أي صار رملا. وفي رواية عن البراء قال: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله، فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أُعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني. سنن النسائي وأحمد في مسنده.

الرسول ﷺ خبير عسكري حاذق

ولما كانت المدينة تحيط بها المرتفعات والجبال وبساتين النخيل من كل جانب سوى الشمال، كان النبيّ ﷺ يعلم كخبير عسكري حاذق أن زحف مثل هذا الجيش

الكبير، ومهاجمة المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب. وواصل المسلمون عملهم في حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهلهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني إلى أسوار المدينة.

عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المدينة

أقبلت قريش في أربعة آلاف، حتى نزلت بالقرب من المدينة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بالقرب منهم. هذا المشهد الرهيب كان أمام أعين المسلمين، فماذا كان موقفهم؟ هل خافوا وارتعبوا؟ هل انهارت قواهم وعزيمتهم؟ كان الجواب هنا؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وأما المنافقون وضعفاء النفوس؛ فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾. [الأحزاب: ١٢].

أمّا المسلمون في المدينة؟!

فقد خرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف، فجعلوا ظهورهم إلى جبل فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة (وهي نوع من الحصون عرفها العرب). ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، كانت المفاجأة! وجدوا خندقا عريضا، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدّين له حين خرجوا من ديارهم، إذْ كانت هذه الخطة، كما قالوا.

مكيدة ما عرفتها العرب

لم يكونوا أدخلوها في حسابهم أبدا. فقد أخذ المشركون يدورون حول الخندق في حالة غضب ودهشة، يبحثون ويتحسّسون عن نقطة ضعيفة لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقا أو جسرا يمكّنهم من العبور.

فرسان قريش اقتحموا الخندق

كره فرسان من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى؛ وهم في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منهم جماعة فيها عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيمّموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له علي بن أبي طالب، وقال كلمة استفزّته وحمي لأجلها؛ وكان من شجعان المشركين وأبطالهم؛ فنزل عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ، فتجاولا وتصاولا، حتى قتله عليّ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم.

محاولات أخرى!

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولات بليغة لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيه أو الجسور، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة قوية لردّهم، ورشقوهم بالنبل،

وناضلوهم أشدّ النضال؛ حتى فشل المشركون في محاولتهم. ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله والمسلمين، ففي الصحيحين عن جابر: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسبّ كفار قريش. فقال: يا رسول الله ما كدتُ أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبيّ ﷺ: **«والله ما صليتها»**، فنزلنا مع النبيّ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس؛ ثم صلى بعدها المغرب.

تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية

إن خروج النبيّ ﷺ بالليل يطوف بالمدينة مستطلعًا؛ وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار؛ أمرٌ لو لم تدعُهُ إليه الشجاعة لم يدْعُه إليه شيء؛ لأن المدينة كانت يومئذ مزدحمة بمن يؤدّون عنه مهمة الاستطلاع وهو جالس في داره، وقد قارب الستين من عمره، ولكنه أراد أن يقوم بهذا العمل بنفسه لم يثنه خوف، ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره. ومشاركته في الغزوات الأخرى وحضوره، هي مشاركة القائد الذي لا يُعفي نفسه من هذه المهام، فهي شجاعة لا تتوارى حيث يُتاح لها أن تتوارى، وعندها العذر المقبول. وإذا كان القائد خبيرًا بالحرب قديرًا عليها لا يهاب مخاوفها، ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية، وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعًا لصفات الرسول.

النبيّ يدعو على المشركين

وقد استاء رسول الله لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففي البخاري عن عليّ عن النبيّ ﷺ أنه قال يوم الخندق: «**مَلأَ اللهُ عَليهمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلونَا عَنِ الصّلاةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْس**» صحيح البخاري. وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهنّ جميعا. قال النووي: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياما؛ فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها الآخر.

لم يحدث بينهما قتال مباشر

ومن هنا؛ يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة الدفاعية من المسلمين دامت أياما، إلا أن الخندق لّما كان حائلا بين الجيشين؛ لم يحدث بينهما قتال مباشر وحرب دامية، بل اقتصروا على المراماة من بعيد. وفي هذه المراماة قُتل رجال من الجيشين، يُعَدّون على الأصابع؛ ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف. وفي هذه المراماة؛ رُمي سعد بن معاذ بسهم، رماه رجل من قريش. فدعا سعد؛ وقال في آخر دعائه: ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

أفاعي الدسّ والتآمر

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة؛ كانت أفاعي الدسّ والتآمر تتقلب في جحورها، تريد إيصال السمّ داخل أجسادهم. انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريظة، فأتى كعب بن أسد سيد بني قريظة، وكان قد عاقد

الرسول على أن ينصره إذا أصابته حرب، فضرب عليه الباب، فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه.

ماذا قال حييّ بن أخطب؟

قال حييّ: إني قد جئتك يا كعب بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها؛ قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. فقال له كعب: ويحك يا حييّ! دعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حييّ يراود كعب بن أسد حتى نقض عهده، وبرىء مما كان بينه وبين النبيّ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين. وفعلا دخلت يهود بني قريظة الحرب ضد رسول الله.

أول امرأة مسلمة تقتل رجلا يهوديا في سبيل اللّه

قالت صفية عمّة الرسول ﷺ: مرّ بنا رجل من اليهود أثناء حصار المدينة، فجعل يحوم حولنا، وقد نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، والمسلمون منشغلون في أرض المعركة، قالت: فقلت يا حسان، إن هذا اليهودي كما ترى يحوم حول بالحصن، وإني والله لا آمنه، وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه، فانزلْ إليه فاقتله. قال: والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا، قالت: فأخذتُ عمودا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود على رأسه حتى قتلته، ثم رجعتُ إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه (عتاده)، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل.

وجدوهم أخبث ما يكون!

انتهى خبر خيانة اليهود إلى النبيّ؛ فبادر إلى التحقق منه، حتى يستجلي موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لذلك سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسبّ والعداوة، ونالوا من رسول الله، وقالوا مُستهزئين: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد!

خطر رهيب!

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة؛ فقد تجسد أمامهم خطر رهيب؛ كان أحرج موقف يقفه المسلمون، ولم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عظيم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير حماية وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١].

المنافقون ينشرون الخوف والرعب

وظهر النفاق جليّا من بعض المنافقين، حتى قالوا: كان محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؛ ينشرون الخوف والرعب في قلوب المسلمين، والبعض الآخر حرّض بعض قبائل المدينة

للانسحاب من الحرب، وبعضهم يطلب الهرب والعودة إلى بيته وأهله بدعوى أنهم بحاجة للحماية، وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النبيّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً﴾ [الأحزاب: ١٢-١٣].

لا بدّ من قرار حاسم

أما رسول الله ﷺ حين أتاه غدر قريظة، اضطجع ومكث طويلا، حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روحه العالية، فنهض يقول: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»، ثم أخذ يخطط للمجابهة، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرّة، ولكن كان لا بد من قرار حاسم يُفضي إلى تخاذل الأحزاب

ماذا كان هذا القرار؟!

تحقيقا لهذه الغاية وهذا الهدف، أراد أن يصالح قبائل غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ حتى يخلو الجو للمسلمين بإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش، فاستشار أصحابه في ذلك. فقالوا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا؛ لقد كنا نحن وهؤلاء القوم نعبد الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة، فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوّب رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة».

يا رسول الله: إني قد أسلمت ، فمرني ما شئت

ثم إن الله صنع أمرا من عنده، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي جاء إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

كيف صنع نعيم الأشجعيّ؟

ذهب من فوره إلى بني قريظة؛ وكان حليفا لهم؛ فدخل عليهم وقال: قد عرفتم وُدّي إياكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم في مكان آخر، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم، قالوا فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش، وقال لهم: تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

هل نجحت هذه المكيدة؟!

لما كانت الليلة القادمة؛ بعثوا إلى اليهود: إنّا لسنا بأرض مقام، فانهضوا بنا حتى نحارب محمدا، فأرسل إليهم اليهود: لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما

جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى اليهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحدا، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فاختلف الفريقان، واستحكمت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

أرسل الله عليهم جندا من الريح

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، قال: **«اللهُمّ مُنزلَ الكتَاب، سَريعَ الحسَاب، اهزِم الأحزَاب، اللهُمّ اهزمهُم وزلزلهُم»**. صحيح البخاري. وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبّت الفرقة في صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جندا من الريح، فجعلت تهدم خيامهم، وتكفأ قدورهم، لا تدع خيمة إلا اقتلعتها، ولا قدرا إلا كفأتها، ولا يقرّ لهم قرار، وأرسل جندا من الملائكة يزلزلونهم، ويُلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

جيش الأحزاب بدأوا بالرحيل

أرسل النبيّ ﷺ في تلك الليلة الباردة العاصفة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله وقد ردّ الله عدوه بغيظه، وكفاه الله قتالهم، فصدَق وعده، وأعزّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

كانت معركة أعصاب لا معركة خسائر

كانت غزوة الخندق(الأحزاب) سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصِرين رسول الله والمسلمين نحو شهر، لم تكن معركة خسائر؛ بل

كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال كبير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضّت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجيش أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: **«الآنَ نَغزُوهُم وَلا يَغزُونَنَا، نَحْنُ نَسيرُ إليهِم»**. صحيح البخاري.

فائدتان

الفائدة الأولى: قتلى الفريقين يُعدّون على الأصابع، ومع تلك الحقيقة، فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، إذ انتقل المسلمون بعدها من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم.

الفائدة الثانية: فكرة حفر الخندق المأخوذة من الفُرس (سلمان الفارسي) دلالة واضحة على أن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

غزوة بني قريظة

في اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاءه المَلَكُ جبريل عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أوَ قدْ وَضعْتَ السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة. فأمر رسول الله مؤذنا فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلينّ العصر إلا ببني قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية عليّ بن أبي طالب، وقدّمه إلى بني قريظة فسار عليّ حتى إذ دنا من حصونهم سمع منها شتائم قبيحة لرسول الله.

تحركوا نحو قريظة وهم ثلاثة آلاف

خرج رسول الله ﷺ في موكب من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره وتحركوا نحو قريظة (المسافة بينها وبين المسجد النبوي نحو ١١ كيلومترا، وهي تستغرق نحو ساعتين مشيا على الدوابّ)، وأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، ومنهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وصلى بعضهم قائلا: إنما أراد سرعة الخروج، فلم يعنف واحد على الآخر. هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة جماعات، حتى تلاحقوا بالنبيّ ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرسا، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

إما أن يُسلموا ،وإما أن يُقاتِلوا ،وإما أن يُقتلوا

لما اشتدّ عليهم الحصار؛ عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد: إما أن يسلموا، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم. وقد قال لهم: والله لقد تبيّن لكم أنه لنبيّ، وإنه الذي تجدونه في كتابكم. وإما أن يقاتلوا هذا النبيّ بالسيوف حتى يُقتلوا عن آخرهم، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة منها. حينئذ لم يبق لقريظة إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله، فبعثوا إليه أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره، وكان حليفا لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم! وأشار بيده إلى حلقه، يقول إنه الذبح.

ماذا فعل أبو لبابة بعدها؟

علم من فوره أنه خان الله ورسوله؛ فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله بيده جزاء فعلته، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدا. فلما بلغ رسول الله خبره قال: أما أنه لو جاءني لا ستغفرت له، أما إذْ قد فعل ما فعل؛ فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

لكن قذف الله في قلوبهم الرعب!!

لقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون، ولأن المسلمين كانوا يُقاسون البرد القارص والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذي اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وصاح عليّ: يا كتيبة الإيمان، والله لأفتحنّ حصنهم.

اعتقال الرجال وعزل النساء والأطفال

حينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوُضعت القيود في أيديهم، وجُعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

ماذا حُكم سعد بن معاذ؟

أرسل رسول الله إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة، لم يخرج معهم؛ للجرح الذي كان أصابه في معركة الخندق(الأحزاب)، فركب حمارا وجاء إلى رسول الله، فجعلوا يقولون: يا سعد، أحسن في مواليك، فإن رسول الله قد حكّمك لتُحسن فيهم، وهو ساكت لا يتكلم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم. ولما انتهى سعد إلى النبيّ ﷺ قال للصحابة: قوموا إلى سيدكم. فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله إجلالا له وتعظيما؛ قال: نعم وعليّ. قال: فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية، وتُقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين

كان حُكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع؛ كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس، وغير ذلك من العدّة والعتاد حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

تنفيذ الحكم

أمر رسول الله ﷺ فحُبست بنو قريظة في دار بنت الحارث؛ وهي دار واسعة جدا لامرأة من بني النجار، وحُفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر فجعل يذهب بهم إلى الخنادق جماعات جماعات، وتُضرب في تلك الخنادق أعناقُهم. فقال من كان بعدُ في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون!؟ أما ترون الذاهب منكم لا يرجع؟ وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة.

أكابر مجرمي الحروب

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرّون بها في حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

قتل حييّ بن أخطب

كما قُتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية زوجة النبيّ، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أُتي به قال لرسول الله ﷺ: أما والله لُمْتُ نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضُربتْ عُنُقُه.

عمرو

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قليل قبل حكم سعد بن معاذ،، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم. وخرج تلك الليلة (عمرو)؛ وكان رجلا لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله؛ فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

تقسيم غنائم بني قريظة

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخُمُس، فأعطى للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهما واحدا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري، فابتاع بها خيلا وسلاحا. واصطفى رسول الله لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقيل: أعتقها وتزوجها سنة ٦ هـ، وماتت عام حجة الوداع؛ ودفنها بالبقيع.

دعوة سعد بن معاذ

لما تمّ أمر قريظة، أُجيبت دعوة سعد بن معاذ؛ يوم دعا ربّه بأن يشفي غليله من بني قريظة قبل أن يموت بسبب خيانتهم، وقد رأى فيهم يوما أسودا. جاء في الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: **«اهتزّ عَرشُ الرّحمن لموتِ سَعدِ بنِ مُعاذ »**. وصحح الترمذي من حديث أنس: قال: لما حُملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخفّ جنازته، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الملائكة كانت تحمله»**. جامع الترمذي.

نزلت توبة (أبو لبابة)

أما أبو لبابة، فأقام يربط نفسه في سواري المسجد ست ليال، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط، ثم نزلت توبته على رسول الله وقت السَّحَر، وهو في بيت أم سلمة، فقامت على باب حجرتها، وقالت لي: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلِقوه، فأبى أن يطلِقه أحدٌ إلا رسول الله، فلما مرّ النبيّ ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه.

غزوة بني المصطلق (المُريسيع)

وقعت في شعبان سنة ٦ هـ؛ هذه الغزوة وإن كانت أقل حجما من حيث الوجهة العسكرية؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، وسببها: أن النبيّ ﷺ بلغه أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي لتحقيق الخبر، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلّمه، ورجع إلى رسول الله فأخبره الخبر.

أطلق اسم (المُريسيع) على بئر ماء، وكان منزلًا لقبيلة بني المصطلق، في منخفض من وادٍ سحيق يطلق عليه حاليًّا (وادي ستارة) على طريق الهجرة الذي يربط بين مكة المكرمة والمدينة.

ماذا فعل رسول الله؟

بعد أن تأكد رسول الله ﷺ صحة الخبر، جمع الصحابة، وأسرع في الخروج، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وكان الحارث بن ضرار قد وجّه عَينا (جاسوسا) ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ثم ماذا حدث؟

لما بلغ الحارث بن أبي ضرار خبر رسول الله وقتلِه عَينه (الجاسوس)، خافوا خوفا شديدا، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله إلى المُريسيع، فتهيأوا للقتال، وصفّ رسول الله أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانتصر المسلمون وانهزم المشركون، وقُتل من قُتل، وسَبى رسول الله النساء والصغار والأنعام والشياه والأموال، ولم يُقتل من المسلمين سوى رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنا منه أنه من العدو.

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق

عبد الله بن أبيّ بن سلول كان يحنق على الإسلام والمسلمين حنقا شديدا، ولا سيما على رسول الله. لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا ليتوجوه ملكا عليهم، فلما دخل رسول الله المدينة صرفهم عنه، وكأن رسول الله هو الذي استلبه ملكه. ثمّ بعد معركة بدر ادعى دخول الإسلام كذبا ونفاقا، وخوفا على حياته وأمواله، وفي الحقيقة كان يُخفي كراهية وحقدا. ولم يكن يفكر إلا في تفريق المجتمع الإسلامي، وتشتيت كلمة الإسلام، وكان يوالي أعداءه، وقد تدخل في أمر بني قينقاع ضدّ النبيّ، وكذلك في غزوة أحد جاء من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي !!

وكان من وقاحة هذا المنافق؛ أنه مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع؛ كان يقوم واقفا يخطب في المسجد، فلما قام مرة أخذ المسلمون بثيابه وقالوا له: اجلس أيْ عدو الله، وقد صنعتَ ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس؛ فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

غلبة الإسلام ليس بسبب التفوّق المادي

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي، وكثرة السلاح والجيوش والعدد؛ وإنما السبب متعلق بنصر من الله، والقيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي، وكل ما يمتّ بصلة إلى هذا الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ، الذي هو المثل الأعلى لهذه القيم.

جعلوا شخصية الرسول ﷺ الهدف الأول

كما عرف أعداء الإسلام أن القضاء على هذا الدين وأهله؛ لا يمكن بطريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنّوا حربا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية. ولّما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة؛ كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل وقت. تحمّل هؤلاء المنافقون نشر الدعاية، وعلى رأسهم ابن سلول.

المنافقون يحرّضون ضد رسول الله

ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب، بعد أن طلقها ابنه بالتبنّي زيد بن حارثة، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنّى مثل الابن، وحرمة زوجة المتبنّى على الرجل الذي تبناه، فلما تزوج النبيّ ﷺ بزينب؛ وجد المنافقون سببين لإثارة الشبهات ضدّ النبيّ هما:

الأول: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صحّ له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه(بالتبنّي) وهذا من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب، وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل.

اختلقوا قصصا وأساطير!!

قالوا: إن محمدا رآها بغتة، فتأثّر بحسنها فشغفه حبّها، وتعلّقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرا بقيت آثاره في كتب التفاسير والحديث إلى هذا الزمان، كما أثّرت تلك الدعاية أثرا قويا في صفوف المناكفين في عصرنا اليوم، كالملحدين والمستشرقين والمبشّرين. رُغم نزول القرآن بالآيات البيّنات، وما يُنْبىء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يا أَيُّهَا النبيّ اتَّقِ اللهَّ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَّ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ١]. هذه إشارات عابرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق، وكان النبيّ ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان المسلمون يحترزون عن شرّهم، أو يتحمّلونه بالصبر، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى،

حسب قوله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

دور المنافقين في غزوة بني المصطلق

لما كانت غزوة بني المصطلق وخرج فيها المنافقون؛ مثّلوا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧]. خبالا: يعني فسادا. ولأوضعوا خلالكم: يعني أضعفوا نفوسكم عن القتال. فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبيّ ﷺ.

وهناك بعض الأمثلة:

قول المنافقين: ﴿لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيما على المُريسيع، وورد الناس لشرب الماء، وكان مع عمر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفاري، فازدحم هو وسنان الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة. وبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول فغضب؛ وعنده رهطٌ من قومه، فيهم زيد بن أرقم وهو غلام، وقال محرّضا على المسلمين:

ماذا قال ابن سلول؟

قال محرّضا قومه على المهاجرين: أوَ قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم

بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

قال له: أوَ ما بلَغكَ ما قال صاحبكم؟

فأخبر زيد بن أرقم عمّه بالخبر، فأخبر عمّه رسول الله وعنده عُمر، فقال عمر: مُرْ عبّاد بن بشر فليقتله. فقال ﷺ: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أَذِّنْ بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحيّاه، وقال: لقد رحلت في ساعة منكرة؟ فقال له: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ يريد ابن سلول، فقال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، قال: أنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكا.

ابن سلول حلف بالله ما قلت؛ فنزل قرآن!

أما ابن سلول لما علم أن زيد بن أرقم بلّغ الخبر، جاء إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قلت ولا تكلمت به، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد اختلط في حديثه، قال زيد بن أرقم: فأصابني همّ لم يُصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون:١]. إلى قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]. إلى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فأرسل إليّ رسول الله فقرأها عليّ، ثم قال: إن الله قد صدّقك.

يا رسول الله، إن أردت قتله فمُرني بذلك

كان ابن هذا المنافق؛ وهو عبد الله بن عبد الله رجلا صالحا من الصحابة الأخيار، فتبرّأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستلّ سيفه، فلما جاء أبوه قال له: والله لا تخرج من ههنا حتى يأذن لك رسول الله، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبيّ ﷺ أَذِنَ له، فخلى سبيله، وكان قد قال ابنه عبد الله: يا رسول الله، إن أردتَ قتله فمُرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه.

حديث الافك

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عِقدا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فجاء الرجال فحملوا الهودج وارتحلوا وظنوها فيه، فلما رجعت عائشة إلى المكان لم تجد أحدا، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله؟ وكان صفوان في أخر الجيش لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، فأناخ ناقته وحملها عليها وما كلمها كلمة واحدة، ثم سار بها يقودها حتى وصل الجيش نحو الظهيرة.

ثم ماذا حدث؟!

فلما رأى ذلك الناس؛ تكلم كل منهم كما شاء، ووجد الخبيث ابن سلول فرصة ثمينة؛ فجعل ينشر الوشايات ويُذيعُها، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في

الحديث، ورسول الله ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليّ أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحا لا تصريحا، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء. فقام على المنبر يستعيذ من عبد الله بن سلول، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت سعد بن عبادة سيد الخزرج وهي قبيلة ابن سلول الحمية القبلية، فجرى بينهما كلام وارتفع صوتهما، فخفّضهم رسول الله حتى سكتوا.

عائشة لا تعلم عن حديث الإفك شيئا

أما عائشة؛ لما رجعت مرضت شهرا، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئا، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما تشافت من مرضها خرجت مع أم مسطح إلى الخلاء ليلا، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما وعرفت جلية الأمر، فجعلت تبكي، فبكت ليلتين، لم تذق طعم النوم، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك، وقال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

ماذا أجابت عائشة؟

حينئذ جففت دمعها، وقالت لكلٍ من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم، وصدّقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة لا تصدّقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمر لتصدّقنّي!

والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. ثم تحولتْ واضطجعتْ، ونزل الوحي ساعته، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أمّا الله فقد برّأك، فقالت لها أمّها: قومي إليه. فقالت عائشة: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

لماذا لم يُجلد عبد الله بن أبيّ بن سلول ؟!

وجُلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، جُلدوا ثمانين، ولم يُجلد الخبيث عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ مع أنه رأس أهل الإفك، والذي تولّى كبره منهم، والحكمة من ذلك: لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة.

افتضح ابن سلول افتضاحا لم يستطع أن يرفع رأسه !

وهكذا وبعد شهر؛ أقشعت سحابة الشك والقلق والاضطراب عن جوّ المدينة، وافتضح ابن سلول رأس المنافقين افتضاحا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، وكان إذا أحدث الحدث أو تكلم؛ كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه. فقال رسول الله ﷺ لعُمر: **كيفَ تَرَى يَا عُمَر؟ إنّي والله لو قتلتَهُ يومَ قُلتَ لي: اقْتُلْهُ، لأُرْعِدَتْ (غَضِبَتْ) له آنُفٌ**(كبار يثرب)، **لو أَمَرْتُها اليومَ بقتْلِه لقتَلَتْهُ.** حديث مرسل، أصله في الصحيحين.

براعة فائقة في سياسة الأمور والتغلّب عليها

النبيّ ﷺ عالج مشكلة ابن سلول بالشكل الذي علمناه، على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور وتربية الناس، والتغلب على مشاكلهم، فقد استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك، ولم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة. فلما وصل رسول الله

إلى المدينة، وانتظر الناس ردا شديدا منه على المنافقين؛ جاء ابن عبد الله بن أبي سلول يعرض على الرسول أن يتولى هو قتل أبيه، لكنه فوجىء بما لم يكن يتوقع، حينما سمع النبيّ ﷺ يقول: «بل نترفّق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا». وكان من نتيجة هذه الحكمة أن ترك المنافقون رئيسهم وتخلى عنه قومه، وراحوا بأنفسهم يعنّفونه ويفضحون أمره.

حقيقة رسول الله ﷺ وإنسانيته

قصة الإفك، كانت إحدى المحن التي تعرّض لها رسول الله ﷺ، ولقد كانت هذه الأذية أشدّ في وقعها على نفسه من كل المحن السابقة. ومرة أخرى تجلت الحكمة الإلهية لتظهر حقيقة رسول الله وبشريته وإنسانيته، وذلك في تأخير نزول الوحي معلقا على هذه الحادثة، كاشفا لحقيقتها، فاضحا أمر المنافقين. فكانت شخصية النبيّ ﷺ صافية غير مشوبة، وقد استقبل النبيّ هذه الشائعة كما يستقبل مثلها أي بشر من الناس، فاضطرب كما يضطربون، وشكّ كما يشكّون، لكن أخذ يقلّب الرأي على وجوهه، ويستشير أهل الرأي من أصحابه. فهو بشر من الناس، والوحي ليس تحت تصرفه، يأتي إليه عندما يطلب، كل ذلك حكمة بالغة للتدليل على عدم الغلوّ في شخص النبيّ ﷺ، وعدم الركون إلى كلام المشككين في حقيقة الوحي.

وقعة الحديبية

وذلك في ذي القعدة سنة ٦ هـ، سببها: لما تقدم التفوّق في الجزيرة العربية إلى حدّ كبير لصالح المسلمين، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئا

فشيئا، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام؛ الذي كان قد صَدّ عنه المشركون منذ ستة أعوام. وقد رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة؛ أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلَق بعضهم وقصّر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهّزوا للسفر.

استنفار المسلمين

استنفر الرسولُ العربَ ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، فأبطأ كثيرٌ من الأعراب، وغسل ثيابه، وركب ناقته، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة ٦ هـ، ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وخمسمائة رجل، ولم يحمل معه سلاحا، إلا سلاح المسافر.

المسلمون يتحركون إلى مكة

وتحرك باتجاه مكة، فلما كان بذي الحليفة أحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عينا (جاسوسا) له من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينُه، فقال: إني تركت أهل مكة جمعوا لك جموعا وهم مقاتلوك، وصادّوك عن دخول البيت الحرام. واستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال: «أترون نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنُصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين.. أم تريدون أن نؤمّ هذا البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه»؟ فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، لم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبيّ ﷺ: «فروحوا»، فراحوا.

محاولة قريش صدّ المسلمين عن البيت الحرام

كانت قريش لما سمعت بخروج النبيّ ﷺ عقدت مجلسا استشاريا، قررت فيه صدّ المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله عنهم، نقل إليه رجل من بني كعب أن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطون في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد صدّ المسلمين، حتى تراآى الجيشان، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غِرّة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين وهم في صلاة العصر ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت هذه الفرصة على خالد.

تبديل الطريق لاجتناب اللقاء الدامي

أخذ رسول الله طريقا وعرا، وسلك بهم ذات اليمين من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسي الذي يُفضي إلى الحرم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد الجيش الإسلامي قد خالف طريقه؛ انطلق يركض نذيرا لقريش. وسار رسول الله ﷺ حتى بركت راحلته، ثم زجرها فوثبت به، حتى نزل بأقصى الحديبية، في مكان قليل الماء، فشكى الناس إلى رسول الله العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالماء حتى رووا.

بديل بن ورقاء يتوسط بين النبيّ وقريش

لما اطمأنّ رسول الله؛ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، نصح لرسول الله من أهل تهامة، فقال: هم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين... وإن أَبَوْا إلا القتال فو الذي نفسي بيده

لأقاتلنّهم». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فلما انطلق إليهم قال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال عقلاؤهم: هات ما سمعته. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فبعثتْ قريش مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله قال: هذا رجل غادر، فلما جاء قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

رسل قريش

ثم قال رجل من كنانة اسمه الحليس بن علقمة: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف على النبيّ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له، واستقبله القوم بالتلبية، فلما رأى ذلك. قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قُلدت وأُشعرت، وما أرى أن يُصدّوا، وجرى بينه وبين قريش كلام.

عروة بن مسعود الثقفي

قال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عَرض عليكم خطة رُشد فاقبلوها، ودعوني آت محمدا؛ فقالوا: آته، فآتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبيّ نحوا من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أيْ محمد، أرأيت لو استأصلتَ قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وأرى أوباشا من الناس يفرّوا ويدَعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفرّ عنه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. فغضب منه وجعل يكلم النبيّ ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، وكلما أخذ بلحيته؛ ضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال: أخّر يدك عن لحية رسول الله، فرفع عروة رأسه وقال: من ذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيّ غدر!؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية

فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلا. وكان المغيرة ابن أخي عروة.

ماذا قال عروة لقريش؟!

جعل عروة يراقب أصحاب رسول الله وعلاقتهم به، فرجع إلى أصحابه، فقال: أيْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيتُ ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفّضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

هو الذي كفّ أيديَهم عنكم

أما شباب قريش الطائشون الطامحون إلى الحرب، لما رأوا رغبة زعمائهم في الصلح، فكّروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلا ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدِثوا أحداثا تُشعل نار الحرب، وفعلا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلا فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعا. ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبيّ ﷺ وعفا عنهم، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش

حينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلا: يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضبُ لي إن أوذيت، فأرسِلْ عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وأرسله وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمّارا، وادعهم إلى الإسلام. فانطلق عثمان حتى مرّ على قوم من قريش فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله بكذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره حتى بلّغ الرسالة إلى زعماء قريش. فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف الرسول والمسلمون.

إشاعة مقتل عثمان

احتبسته قريش عندها؛ للتشاور فيما بينهم ليبرموا أمرهم، ثم يردّوا لعثمان بجواب ما جاء به، وطال به الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: لا نبرح حتى نناجز القوم، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفرّوا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، في أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله بيد نفسه وقال: هذه عن عثمان، ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يُقال له جدّ بن قيس. أخذ رسول الله هذه البيعة تحت شجرة، وكان عُمر آخذا بيده، ومعقل بن يسار آخذا

بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الآية﴾ [الفتح: ١٨].

قريش أرسلت سهيل بن عمرو

أدركت قريش خطورة الموقف، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح مع المسلمين، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنّا هذا العام، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه النبيّ قال: قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلا، ثم اتفقا على تفاصيل الصلح؛ وهي:

بنود الصلح

البند الأول: أن يرجع الرسول ﷺ هذا العام، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام المقبل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا، معهم سلاح الراكب، السيوف في الأغمدة، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

البند الثاني: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

البند الثالث: من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتُعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق.

البند الرابع: من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه - أي هاربا منهم - ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد - أي هاربا منه - لم يردّ عليه.

قال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك!!

ثم دعا عليا ليكتب الكتاب، فأملى عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم. فأمر النبيّ ﷺ عليا بذلك. ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: إني رسول الله وإن كذبتموني، وأمر عليا أن يكتب محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فأبى عليّ أن يمحو هذا اللفظ، فمحاه ﷺ بيده، ثم تمّت كتابة الصحيفة، ولما تمّ الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب، فكان دخولهم في هذا العهد تأكيدا للحلف القديم، ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

يا معشر المسلمين؛ أأُرَدّ إلى المشركين؟

وبينما الكتاب يُكتب؛ إذ جاء أبو جندل بن سهيل يمشي في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن تردّه. فقال النبيّ ﷺ: إنّا لم نقض الكتاب بعد. فقال: فوالله إذا لا أقاضيك على شيء أبدا. فقال النبيّ ﷺ فأجزه لي. قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل. وقد ضرب سهيل ابنه أبا جندل في وجهه؛ وجرّه ليردّه إلى مكة، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرَدّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، فلا نغدر بهم.

النحر والحلق للحِلّ من مناسك العمرة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: قوموا، فانحروا، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملا كان لأبي جهل، كان في أنفه حَلَقٌ من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثا بالمغفرة وللمقصرين مرة. وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام، أو الصدقة، أو النسك.

رفض الرسول ﷺ ردّ المهاجرات

ثم جاء نسوة مؤمنات مهاجرات، فطلب أولياؤهن من رسول الله أن يردّهنّ عليهم بالعهد الذي تمّ في الحديبية، فرفض طلبهم هذا، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل) فلم تدخل النساء في العقد. وأنزل الله في ذلك: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾** [الممتحنة:١٠].حتى بلغ **﴿بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾** [الممتحنة:١٠]، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً﴾** [الصف:١٢] إلخ، فمن أقرّت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتُك. ثم لم يكن يردّهُنّ إلى أهلهنّ أو أزواجهنّ. وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. تزوج بإحداهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

ماذا تمخّض عن بنود المعاهدة؟

هذه هي هدنة الحديبية، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها؛ لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصالهم، وتنتظر أن تشهد يوما ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة القبلية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشا لا تقدر على مقاومتهم.

قريش لا تهمّها الآن إلا نفسها

ثم البند الثالث؛ يدل في فحواه: أن قريشا نسيت صدارتها القَبَلية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمّها الآن إلا نفسها واستمرار بقائها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهمّ ذلك قريشا، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل. أليس هذا ضعفا وفشلا ذريعا لقريش؟ وفتحا مبينا بالنسبة إلى المسلمين؟

الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين

إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم؛ لم تكن أهدافها عند المسلمين مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في اختيار العقيدة والدين ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. [الكهف:٢٩]. وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في

الحروب، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحا كبيرا في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

المعاهدة وضعت حدّا لغطرسة قريش

أما البند الثاني؛ فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وَهُم بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:١٣]. أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حدّ لهذه الغطرسة، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره.

فشل ذريع لقريش وسيادتها الدينية

كما أن البند الأول؛ وضع حدّا لصدّ قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضا فشل ذريع لقريش وسيادتها الدينية، وادعائها بامتلاك البيت الحرام بالتقرد والقوة، والسيطرة عليه دون غيرها من قبائل العرب، وليس فيه ما يشفي غليل قريش سوى أنها نجحت في الصدّ لذلك العام الواحد فقط.

إذا ارتدّ لا حاجة للمسلمين إليه

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدا، ليس فيها شيء يضرّ بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلما لا يفرّ عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفرّ إلا إذا ارتدّ عن الإسلام ظاهرا أو باطنا، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين،

وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، وأما من أسلم من أهل مكة؛ فهو إن لم يستطع البقاء بالمدينة فأرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئا؟ وهذا الذي أشار إليه النبيّ ﷺ بقوله **«وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُم سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجا وَمَخْرَجًا»**. صحيح مسلم.

كآبة وحزن شديد

هناك أمران عمّت لأجلهما المسلمين كآبةٌ وحزنٌ شديد:

الأول: أن الرسول ﷺ كان قد أخبر المسلمين أنا سنأتي البيت فنطوف به، فماله يرجع ولم يطفْ به!؟

الثاني: أنّ محمدا رسولُ الله ﷺ، وأنه على الحق، والله وعد إظهار دينه، فما لَ هذا الرسول تنازل وقَبِل ضغط قريش، ورضي بأقل شروط الصلح؟ كان هذان الأمران مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون!!

أعظمهم حزنا كان عمر بن الخطاب

صارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غَلب الهمّ والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح. ولعل أعظمهم حزنا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبيّ وقال: يا رسول الله؛ ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نُعطى الدنيّة في ديننا ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيّعني أبدا. قال: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى،

فهل أخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به (وقد تحقق ذلك في العام الذي يليه).

السياسة في صلح الحديبية

السياسة منها ما يكون بين بعض الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين رئيس الدولة وبين الأحزاب والتنظيمات والوزارات، ولكل من هذه المصطلحات معنى من هذه المعاني، وإنْ جمَعَتها كلمة واحدة. وقد تولى النبيّ ﷺ أعمالًا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلولها وخصوصها، ولكننا لا نعلم بينها أجمل ولا أجمع من عهد الحديبية في مراحله جميعًا، ففي عهد الحديبية تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد، والاعتماد على الحرب والقوة؛ حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

غاية في الحكمة والقدرة الدبلوماسية

لما اتفق الطرفان؛ المسلمون وقريش على بنود المعاهدة، كانت سياسة النبيّ في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة الدبلوماسية، دعا عليّ بن أبي طالب فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال مندوب قريش سهيل بن عمرو: «أمسك! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم». فقال النبيّ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: «أمسك! لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». ورُوي أن عليًّا تردد فمسح النبيّ ما كتب بيده، وأمره أن

يكتب «محمد بن عبد الله في موضع محمد رسول الله». ثم تعاهدوا على أنَّ مَنْ أتى محمدًا من قريش ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا من رجال محمد لم يردّوه عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة هذا العام، وأن يعودوا إليه في العام الذي يليه، ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح السيوف في أغمادها.

لا خسارة على المسلمين

فلو أن النبيّ ﷺ شَرَط على قريش أن تردّ إليه من يقصدها من رجاله؛ لنَقَض بذلك دعوى الهداية الإسلامية، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين، فإن المسلم الذي يترك النبيّ باختياره ليلحق قريشًا ليس بمسلم، ولكنه مشرك يشبه قريشًا في دينها وهي أولى به، أما المسلم الذي يُردّ إلى المشركين مكرهًا فإنما الصلة بينه وبين النبيّ هي الإسلام، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين، فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فبقي على دينه؛ فلا خسارة بذلك على المسلمين.

وعلمتْ قريش أنها هي الخاسرة

وما انقضت فترة وجيرة؛ حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط، فالمسلمون الذين نفروا من قريش؛ ولم يقبلهم محمد في حوزته، وقد خرجوا إلى طريق القوافل على تجارة قريش يأخذونها، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبيّ لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة!! وبذلك استراح النبيّ من قريش، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل

إلى عظائها بالدعوة إلى الإسلام، ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١- ٢]. لم يفقه الكثيرون معناها في حينها، ظنّوه فتح مكة (بعد سنتين)، ولكن لم يعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجّلون، ولا يحسنون النظر إلى بعيد.

عُمر طابتْ نفسُه وندم ندمًا شديدًا

ثم انطلق عمرُ متغيّظا فأتى أبا بكر فسأله؛ وردّ عليه أبو بكر كما ردّ عليه رسول الله سواء، ثم نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح:١]. فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أوَ فتحٌ هُو؟ قال: نعم. فطابت نفسه ورجع. ثم ندم عمر على ما فرط منه ندما شديدا. قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالا، مازلت أتصدّق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يؤمئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به.

صحيح البخاري.

حادثة (أبو بصير)

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة واطمأنّ بها، انفلت رجل من المسلمين من مكة، ممن كان يُعذَّب فيها، وهو (أبو بصير)؛ رجلٌ من ثقيف حليف لقريش، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبيّ ﷺ: العهد الذي جعلت لنا. فأعطاه النبيّ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون التمر، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا. فاستله الرجل، فقال: أجل. والله إنه لجيد، لقد جرّبته في مكان كذا وكذا. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى قتله.

اجتمعت منهم عصابة!!

فرّ الرجل الثاني حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعرا، فلما انتهى إلى النبيّ قال: قُتل صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير وقال: يا نبيّ الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فخرج حتى أتى طريق البحر. كما انفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بقافلة خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، يقتلوهم ويأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبيّ تناشده: أنّ من أتاه فهو آمن، فأرسل النبيّ ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة. صحيح البخاري ومسلم.

بعد مرور عام

كان في تلك السنة (سنة الحديبية)فتح يراه الناظر بعين الغيب، ثم رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر إليه، فسَرَّ قومًا وساء آخرين. ففي السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فخرجوا جميعا إلا من استُشهد في خيبر أو أدركته الوفاة خلال هذا العام، وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدي، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس، فلما انتهى الرسول وأصحابه إلى ذي الحليفة، وعلمت قريش بالنبأ؛ فزعوا وبعثوا مندوبا لهم اسمه (مكرز) في نفر منهم، فجاءوا يقولون: «والله يا محمد ما عُرِفْتَ صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر ... تَدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطوا عليك ألا تدخل إلا

بسلاح المسافر؟» فقال ﷺ: «إني لا أدخل عليهم» قال مكرز: إنما حمل النبيّ السلاح للحيطة. ثم أقبل النبيّ على ناقته وجموع المسلمين يلبّون ويهللون، وأوشك النبيّ (وقد أخذته النخوة) أن يصيح في قريش صيحة الحرب، فنهاه عمر وأمر النبيّ أن ينادي ولا يزيد: «لا إله إلا الله وحده نصر عبده، وأعزّ جنده وخذل الأحزاب وحده.» فرفع ابن رواحة بها صوته، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها النواحي والطرقات.

أبطال قريش يدخلون الإسلام

في أوائل سنة ٧ من الهجرة؛ بعد هذه الهدنة؛ أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، ولما حضروا عند النبيّ ﷺ قال: إنّ مَكّةَ قَدْ ألقَتْ إلينا أفلاذَ كَبِدِهَا. كان الفتح الذي بصر به الآن عيانًا من لم يره يوم الحديبية، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيًّا على الإسلام؛ فريق منهم بَهَرَهُم وفاء النبيّ بعهده مع استطاعة نقضه، وفريق منهم بَهَرَتْهُم رحمة الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من ودّ وطاعة، وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام، فجنحوا إلى طريق الأمن والأمان والسلامة، وحسبك أن عُمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما مثلان متكافئان.

هكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور

وهكذا تجلت عبقرية محمد ﷺ في سياسة الأمور؛ كما تجلت في قيادة الجيوش؛ فكان على أحسن نجاح في سياسته؛ إذْ نادى بين المسلمين في المدينة بأداء فريضة الحج إلى

مكة؛ وهو لم يفتح مكة حربا ولا سلما، لا بعدد ولا عُدّة، وإذْ دعا المسلمين إلى مصاحبته في رحلته، توخّى ما توخّى إلى المسالمة في طريقه رغم ما يمتلك من قوة عسكرية قادرة على الحرب والمواجهة، لكن اعتمد الحوار وتواصل الرسائل السلمية بدل أصوات السيوف وطبول الحرب، واحترم العهد بينه وبين أهل قريش؛ وهو قادر على نقضه مع ألدّ أعدائه، أو مع أقرب الناس إليه.

خط مستقيم؛أقرب موصل بين نقطتين

أما أسلوبه في الرسائل والمعاهدات والمواثيق التي كانت بينه وبين المهاجرين والأنصار واليهود؛ تلك النماذج كانت في أربعة أبواب مختلفة، تنوعت موضوعاتها كما تتنوع القصص والأوامر، ولكنها كلها بأسلوب واحد لا اختلاف فيه، وأصدق ما يُقال في تعريفه ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين؛ لا تكلف ولا غموض ولا إسهاب. فمحمد العربي القرشي العالم بلهجات القبائل؛ لم يكن في كلامه لفظ غريب يجهله السامع، وسرّ ذلك أنه يريد أن يبلغ كلامه إلى سامعه بفهم تام، بلا حواجز من اللفظ أو المعنى الغريب، كما كان يعيد الكلمة ثلاثًا، وكان يبغض التكلف والاغترار والتصنّع بالبلاغة، كلامه يخلو من الحشو والتكرار المملّ، قليل الكلام مُعرضًا عن اللغو، لا يقول إلا الحق وإن كان مازحا. وما على الرسول إلا البلاغ؛ هذا هو البلاغ في التعبير؛ كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة بمقدار، لا زخرف ولا حيلة ولا مشقة، إلا الإبلاغ الذي يليق به.

وقفة تأمّل

فيما بعد؛ كان صلح الحديبية مقدّمة لفتح مكة، فبعد هذه الهدنة أمِنَ الناس بعضُهم بعضا، واختلط المسلمون بالكفار، وراحوا يدعونهم، ويسمعونهم القرآن، ويناظرونهم جهرة آمنين، وظهر من المسلمين من كان متخفّيا. وقد دخل في سنوات هذا الصلح ناسٌ كثير. ولذلك أطلق القرآن اسم الفتح على هذا الصلح، وذلك في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧].

شؤون إدارية أم ملكات شخصية ؟!

في الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الإدارة كما نسميهم اليوم، وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات شملت سائر شئون المعيشة الاجتماعية يُقتدى بها في جميع العصور. لا يعنينا أن نتكلم عن الإدارة كأنها نصوص ولوائح تُدار بها الدواوين في مكاتب الحكومة، وإنما نعني الملكة الإدارية من حيث هي أساس في التفكير؛ من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الإدارة كلها على أسس صحيحة، نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هي ملكات شخصية وسلائق نفسية تلازمه؛ حيث كان مؤديًا رسالة السماء من سائر أعمال الإنسان. وقد كانت هذه السليقة في محمد على أتمّ ما تكون.

تطوّر جديد !!

هدنة الحديبية كانت بداية تطور جديد في حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدّها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى

رحاب الأمن والسلام، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة: قريش وغطفان واليهود. ولما كانت قريش تمثل الوثنية في ربوع جزيرة العرب، انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير.

الرئاسة حيثما وُجد العمل الاجتماعي

كان يوصي بالرئاسة حيثما وُجد العمل الاجتماعي الذي يحتاج إلى تدبير؛ ومن حديثه المأثور: « **إذا خرجَ ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمِّروا أحدَهُم**». صحيح أبي داود: حسن صحيح. ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة، إذا أُصيب من تقدمه بما أقعده عن القيادة. وكان قوام الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب، كان يقول: «**أَيُّما رجلٍ اسْتَعْمَلَ رجلًا على عَشَرَةِ أَنْفُسٍ، عَلِمَ أنَّ في العَشْرَةِ أَفْضَلَ مِمَّن اسْتُعْمِلَ، فقد غَشَّ اللهَ، وغَشَّ رسولَه، وغَشَّ جماعةَ المسلمينَ**». وكان يقول: «**أَيُّما رجُلٍ أَمَّ قومًا وَهُم لَهُ كارِهونَ، لم تُجاوِزْ صلاتُهُ أذُنَيْهِ**». وكان إلى عنايته بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصًا على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذي أوضحه النبيّ ﷺ حيث قال: «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». متفق عليه. فالأمير والوزير والمسؤول، والرجل والمرأة، والعامل والموظف، ومدير المدرسة ومدير العمل، وشرطيّ المرور وقائد الجيش؛ كل واحد من هؤلاء مسؤول على شَعبه أو مجتمعه أو موظفيه، أو أهل بيته.

جارية عجماء حضنته في طفولته

أحد الأيام في طفولته؛ حضنته جارية عجماء ليست من العرب اسمها (أم أيمن)؛ فلم ينسَ لها مودّتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يُشغل الأب من أمر بناته، فقال لأصحابه: «**مَنْ سرّه أنْ يتزوّجَ امرأةً منْ أهْل الجنّة فَليَتَزَوّج أمّ أيمَن ...**» وما زال يناديها يا أُمّي كلما رآها في شبابه وتحدّث إليها. كان هذا عطفه على كل ضعيف، فما نَهَرَ خادمًا ولا ضرب أحدًا، قال أنس: «خدمت النبيّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفّ قط، ولا قال لشيء صنعتُه: لِم صنعتَه؟ ... ولا لشيء تركتُه: لِم تركتَه؟ ...». عدا أنه كان من أضحك الناس وأطيبهم نفسًا، صافي القلب؛ إذا كره شيئًا رُؤي ذلك في وجهه، وإذا رضي عَرف من حوله رضاه.

شنّ الحرب الفاصلة على وكر اليهود

أما اليهود؛ فقد كانوا جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدسّ والتآمر. كانت شياطينهم تبيض وتفرخ، وتؤجّج نار الفتنة، وتُغري الأعراب حول المدينة، وتبيتُ للقضاء على النبيّ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبيّ والمسلمين بعد الهدنة؛ هو شنّ الحرب الفاصلة على وكر اليهود.

الدعوة للإسلام هو السبب والهدف

لكن قبل أن يبدأ؛ كان لا بدّ من نشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال، وبرز نشاطُهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري. ولذلك نرى أن نقسّم هذه المرحلة على قسمين: النشاط في مجال الدعوة، ومكاتبة الملوك والأمراء. إلى جانب النشاط العسكري. الدعوة للإسلام هو السبب طبعا، بل

هو الهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام، والحروب والفتن، والقلاقل والاضطرابات.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة؛ حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية؛ كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام. ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقبلون ذلك إلا وعليها خاتم رسميّ، فاتخذ النبيّ ﷺ خاتما من فضة، نَقْشُهُ: (محمد رسول الله)، واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك سنة سبع من الهجرة؛ قبل الخروج إلى حرب اليهود في خيبر بأيام. وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما نتج عنها:

الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة

هذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبجر، كتب إليه النبيّ ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري. وقد ذكر الطبري في آخر الكتاب ذِكْرَ المهاجرين بهذا اللفظ: **(وقدْ بَعثْتُ إليْكُم ابنَ عَمّي جَعفرا؛ وَمَعه نَفَرٌ مِنَ المسلمين، فإذا جَاءَكَ فَأَقِرَّهُمْ- أيْ أحسن ضيافتهم- وَدَعِ التَّجَبُّرَ)**. وروى البيهقي نصا كتبه النبيّ ﷺ إلى النجاشي: هَذا كتابٌ من محمد النبيّ إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم، **﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران:٦٤]. فإن أبَيْتَ فإنّ عليك إثم النصاري من قومك.

ماذا أجاب النجاشيّ؟

لما أبلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبيّ ﷺ إلى النجاشي؛ أخذه النجاشي، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب. وكتب إلى النبيّ ﷺ بذلك، وهاك نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم) إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة؛ سلام عليك يا نبيّ الله من الله ورحمة الله وبركاته، والله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فَوَ ربّ السماء والأرض؛ إن عيسى كما قلت، وقد عرفنا ما بعثتَ بها إلينا، وقد (استضفنا) ابن عمك وأصحابك؛ فأشهدُ أنك رسول الله صادقا مصدقا؛ وقد بايعتُك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين.

أرسلهم في سفينتين

وكان النبيّ ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين، فقدموا على النبيّ وهو بخيبر. توفي النجاشي هذا في سنة تسع من الهجرة، ونعاه النبيّ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب. ولما مات واستخلفه على عرشه ملكٌ آخر، كتب إليه النبيّ كتابا آخر، ولا يدرى هل أسلم أم لا؟

كتاب إلى المقوقس ملك مصر

وكتب النبيّ ﷺ إلى جُريج بن متّى(بنيامين)، الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط:

﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

رجلٌ قَبلَكَ يزعم أنه الربّ الأعلى !!

اختار النبيّ لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة؛ فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبِر بغيرك، ولا يَعتبر غيرك بك. فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

ماذا قال له حاطب؟

قال حاطب: إن هذا النبيّ دعا الناس؛ فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبيّ أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرتُ في أمر هذا النبيّ، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة. وأخذ كتاب النبيّ، وختم عليه؛ ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله:

ماذا كتب المقوقس؟

كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد

علمتُ أن نبيّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثتُ إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك. ولم يَزد على هذا ولم يُسلم، والجاريتان هما (ماريا)و (وسيرين)، والبغلة بقيت إلى زمن معاوية، واتخذ النبيّ ﷺ ماريّة سِرّية له؛ ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري.

كتاب إلى كسرى ملك فارس

وكتب النبيّ ﷺ إلى كسرى ملك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحقّ القولُ على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيتَ فإن إثم المجوس عليك. واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه إلى عظيم البحرين.

ثم ماذا حدث!؟

لما قرأوا الكتاب على كسرى مزّقه، وقال في غطرسة: عبدٌ حقيرٌ من رعيتي يكتب اسمه قبلي، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: مزّق الله ملكه، وقد كان كما قال. ثم كتب كسرى إلى (باذان) عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به. فاختار (باذان) رجلين ممن عنده، فلما قدما المدينة وقابلا النبيّ ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد بعثني إليك لتنطلق معي، وقال قولا تهديديا، فأمرهما النبيّ ﷺ أن يلاقياه غدا. ثم ماذا حدث غدا!؟

ثورة كبيرة ضد كسرى مزّقت ملكه !!

وفي ذلك اليوم؛ كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته؛ بعد أن لاقت جنودُه هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء عشر من جمادى الأولى سنة سبع، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غدا الرجلان عليه في اليوم التالي كما طلب منهما أخبرهما بذلك: فقالا: هل تدري ما تقول؟ أفنكتب هذا عنك؟ ونخبره الملك؟ قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وقولا له: إن أسلمتَ أعطيتُك ما تحت يدك، وملّكتك على قومك. فخرجا من عنده في دهشة بين تصديق أو تكذيب مما سمعا، حتى قدما على (باذان) فأخبراه الخبر، وكان قد تحقق الخبر الذي قاله رسول الله فيما أخبرهما به، وكان ذلك سببا في إسلام (باذان) على الفور، ثمّ إسلام من معه من أهل فارس باليمن.

كتاب إلى قيصر ملك الروم

روى البخاري ضمن حديث طويل نصّ الكتاب الذي كتبه النبيّ ﷺ إلى القيصر ملك الروم، اسمه هرقل (كان في إيلياء- بيت المقدس)، وهو هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أسلمْ تَسلمْ، أسلمْ يُؤتك اللهُ أجرَك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]. أي اشهدوا علينا بأنا مسلمون.

أبو سفيان مع القيصر

رسول الله ﷺ؛ اختار لحمل هذا الكتاب دحيّة بن خليفة الكلبي، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام؛ فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيّكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه، ثم قال لترجمانة: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبَني فكذِّبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليّ كذبا لكذبتُ عنه.

ماذا سأل القيصر؟

قال أبو سفيان: أول ما سألني عنه: كيف نَسَبُه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحدٌ منهم سُخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه: قلت: لا. قال: فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

ثمّ ماذا كان ردّ القيصر؟

قال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأْتسي بقولٍ قِيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرتَ أن لا، فقلت: لو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونة بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله؛ وسألتك أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضعفاءَهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ، وسألتك أيرتدّ أحدٌ سُخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقّا فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنّه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم ماذا حدث؟

ثم دعا القيصر بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط. قال أبو سفيان: وأَمَر بنا فأخرجَنا، قال: فقلت

لأصحابه حين أخرجنا، لقد أَمَّرَ(أي ارتفع وعظُم) أَمْرُ ابن أبي كبشة(يعني النبيّ محمد)، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا بأمر رسول الله أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

زيد بن حارثة يحارب قبيلة جذام

وكان قيصر قد منح دحيّة بن خليفة بن الكلبي، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وهدايا، ولما كان دحيّة في طريق عودته؛ لقيه ناسٌ من جذام فقطعوا عليه الطريق وسلبوه، فلم يتركوا معه شيئا، فجاء دحيّة إلى رسول الله قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله زيد بن حارثة يحارب قبيلة جذام في خمسمائة رجل، فقتل فيهم قتلا ذريعا، واستاق نعمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاء خمسة آلاف، والسبي مائة من النساء والصبيان. وكان بين النبيّ وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبيّ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحيّة حين قطعوا عليه الطريق، فقبل النبيّ ﷺ احتجاجه؛ وأمر برد الغنائم والسبي.

كتاب إلى المنذر بن ساوى

وكتب النبيّ ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله: أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأَحدثْ إليّ في ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكّرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإني قد شفّعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك؛ ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

كتاب إلى (هوذا)

وكتب النبيّ ﷺ إلى هوذا صاحب اليمامة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن عليّ، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأَجْعَلُ لك ما تحت يديك». واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هوذا بهذا الكتاب مختوما أنزله، وحيّاه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه ردا؛ وكتب إلى النبيّ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعلْ لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطا بجائزة، وكساه أثوابا ثمينة، فقدم بذلك كله على النبيّ فأخبره. فلما انصرف رسول الله من الفتح؛ جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذا مات، فقال النبيّ ﷺ: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ، يُقتل بَعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال: أنت وأصحابك، فكان كذلك.

كتاب إلى الحارث الغساني ملك دمشق

كتب إليه النبيّ ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقي لك ملكك». واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب قال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه. ولم يُسلم.

كتاب إلى ملك عُمان

وكتب النبيّ ﷺ كتابا إلى ملك عُمان (جيفر) وأخيه (عَبْد) ابني الجلندى، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأُنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتكما، وإن أبَيْتُما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتَظهر نُبوّتي على ملككما». واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص.

(عَبْد) كان أحلمُ الرجلين

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى (عبد)؛ كان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا؛ فقلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المُقدَّم عليّ بالسنّ والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع

أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت: مات ولم يؤمن بمحمد، ووددت أنه كان أسلم وصدّق به، وقد كنتُ أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبا.

ثم ماذا سأله؟

قال: سألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: وكيف صنع قومه بملكه، فقلت أقرّوه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلةٍ في رجل أفضحُ له من الكذب. قلت: ما كذبتُ، وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت: بلى، قال: فبأيّ شيء علمتَ ذلك؟ قلت: كان النجاشيّ يُخرج له خرجا، فلما أسلم وصدّق بمحمد قال: لا والله، لو سألني درهما واحدا ما أعطيته.

أخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟

قال عَبْد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به، قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول الله على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فيردّها على فقيرهم، قال: إنّ هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته، قال: يا عمرو، وتؤخذ من مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومي يطيعون لهذا.

ثم دفع الكتاب إلى أخيه

ثم دفع الكتاب إلى أخيه فقرأه، إلاّ أني رأيت أخاه أرقّ منه، قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحدا بقي غيرك، وأنت إن لم تسلم اليوم تُوطئك الخيلُ وتُبيدُ خضراءَك، فأسلمْ تَسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال:

دعني يومي هذا ،وارجع إليّ غدا

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يُسلم إن لم يضنّ بملكه. حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذاً أنا أضعف العرب إن ملّكتُ رجلا ما في يديّ، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغتْ خيلُه لقتْ قتالا ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غدا، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فأصبح فأرسل إليّ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا، وصدّقا النبيّ ﷺ، وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرا عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

دلالات الرسائل إلى الملوك

وبهذه الكتب كان النبيّ ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض. فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. ولكن شَغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعُرف لديهم باسمه ودينه.

كما أن الدعوة الإسلامية أصبحت بهذه الرسائل دعوة عالمية وإنسانية شاملة؛ ليست خاصة بعنصر أو بقوم خاص من البشر. يدلنا ذلك آيات من القرآن وأحاديث كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[الأعراف: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١]. وقول رسول الله ﷺ: **«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فأيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي المَغَانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكانَ النبيّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً»**. صحيح البخاري.

سجعٌ كَحِلْيَةِ الذهب

وكان النبيّ ﷺ يكره «سجع الكهان» الذي يخدعون به السامع؛ ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع تماما، ولا يخلو كلامه من سجع جميل يأتي على السجيّة، فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله: **« إنَّ اللهَّ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ عليكُم: عُقُوقَ الأُمَّهاتِ، ووَأْدَ البَناتِ، ومَنْعًا وهَاتِ، وكَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا: قيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ، وإضاعَةَ المالِ»**. صحيح مسلم. هذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب المسلمين والجاهليين، لأنهم يعرفون منه المعنى المباشر للكلام؛ دون تصنّع أو تكلّف فيه.

اختصار غير مُخلّ بالمعنى

أما رسائله إلى الملوك والقياصرة ممن لم يُسلم؛ فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر، ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المكلفين بالإجابة فيما يُسألون عنه، فهي كذلك كانت قائمة على الاختصار غير المُخلّ بالمعنى وكفاية الإبلاغ، تلك الكفاية التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

أسلوب عصري

أسلوبُ النبيّ ﷺ كتابة وخطابًا؛ كان أسلوبًا عصريًّا يَقتدي به المعاصرون في زماننا هذا، لأن الأسلوب الذي يخرج من أعماق الفطرة المستقيمة؛ هو أسلوب عصري في جميع العصور، فإليك هذا الحديث وهو من أمثلة كثيرة؛ حيث يقول: **«ما بالُ أقوامٍ يشترطون شروطًا ليست في كتابِ اللهِ؟ من اشترطَ شرطًا ليس في كتابِ اللهِ فهو باطلٌ، وإن كانَ مائةَ شرطٍ، كتابُ اللهِ أحقُّ؛ وشرطُ اللهِ أوثقُ»**. خلاصة حكم المحدث: صحيح. هذا الحديث اشتمل البلاغة العربية في وصله وفصله، واشتمل الأسلوب العصري في إشارات ترقيمه.

رأي النبيّ في الشعر!

نُقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأي النبيّ ﷺ في الشعر والشعراء؛ لا تدخل في النقد الفني؛ لكنها تدخل في أقوال الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين، وسنن الصدق والفضيلة، ومنها قوله في لبيد: **«أَصْدَقُ بَيْتٍ قالَهُ الشَّاعِرُ :أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلُ»**.صحيح البخاري. وقوله عن امرئ القيس: إنه صاحب لواء الشعراء إلى النار.

جوامع الكلم

كان محمد ﷺ فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء. كما أن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبيّ هو اجتماع المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة، بل اجتماع العلوم الواسعة في بضع كلمات؛ وقد يبسطها الشارحون في مجلدات. ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين، وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله: **«اعمَلْ لدُنياك كأنّك تَعيشُ أبدًا، واعمَلْ لآخرتِك كأنك تموتُ غداً»**. ومن أمثلة علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله: **«كَمَا تكُونُوا يُوَلَّ عليكم»**. فأيّ قاعدة في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات؟ ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها، لا يُعفيها من تبعات ما تصنع تلك الحكومات عُذرٌ بالجهل أو عُذرٌ بالإكراه، لأن الجهل جهلها، والإكراه ضعفُها الذي تَلقى جزاءه. كما ينطوي في هذه الكلمات أن العبرة بأخلاق الأمة، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة ترفض الاستبداد، ولا سبيل إلى حرية أمّة اعتادت على الخنوع والاستسلام، فلا يُغيّر اللهُ ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم. كما أن «الأمّة مصدر السلطات» على حدّ التعبير الحديث. وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع كثيرة.

لا يكفي أن يحبّ الناس ليحبّوه

إذا كان الرجل محبًّا للناس؛ يكون أهلًا لحبّهم إياه، وقد تمّت له ﷺ أداة الصداقة من طرفيها. تمت له أداة الصداقة بمقدار ما رُزق من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء. ومع ذلك؛ لا يكفي أن يحبّ الناس ليحبّوه،

لأنه قد يحبّهم وفي نفوسهم ما ينفّرهم منه بسبب نقص الكمال في عقولهم وأفكارهم وأذواقهم. وهل يكفي أن يكون محبًّا سليم الذوق؛ وغيره من قبائل قريش يخططون لقتله!؟ ومجموعات أخرى من قبائل العرب واليهود يخططون لاستئصاله عن الوجود!؟ إنما تتمّ أداة الصداقة بالعاطفة الحية والذوق السليم من كلا الطرفين، ومحمد من طرفه، كان في هذه الخصال جميعًا مثلًا عاليًا بين صفوة خلق الله.

خيبر

كانت خيبر مدينة كبيرة لليهود ذات حصون ومزارع؛ تقع في شمال غرب المملكة العربية السعودية؛وعلى بعد حوالي ١٦٨ كيلو مترا من المدينة المنورة، تكسوها الحجارة السوداء، وتُعتبر ولا تزال منذ أقدم العصور واحة واسعة ذات تربة خصبة؛ وذات عيون ومياه غزيرة؛ وتربتها جيدة للغاية؛ تصلح لزراعة الحبوب والفواكه على اختلاف أنواعها، كما أنها تُعتبر من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب؛ حينما دخلها المسلمون وجدوا فيها أربعين ألف نخلة. بلغ عدد سكان المحافظة عام ٢٠١٠بما يقارب٥٣ ألفا.

غزوة خيبر

أو وادي القرى، وقعت في المحرم سنة ٧ هـ. وذلك لما اطمأنّ رسول الله ﷺ وأمن أمنا باتا بعد الهدنة؛ أراد أن يحاسب اليهود وقبائل نجد؛ حتى يتم الأمن والسلام في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه. ولما كانت خيبر هي وكر الدسّ والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية؛ ومصدر التحرشات وإثارة الحروب؛ كانت هي الأجدر باهتمام المسلمين أولا.

أوقعوا المسلمين في محن متواصلة

لا ننسى أن أهل خيبر اليهود هم الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة ضدّهم، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين؛ فكانوا بمثابة الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي. واتصلوا بغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يهيّئون غيرهم للقتال، فأوقعوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبيّ ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المجرمين من قادات اليهود.

الخروج إلى خيبر

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية شهرا ونيّف، ثم خرج بعد ذلك إلى خيبر. وقد كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠]. يعني صلح الحديبية، ويقصد بالمغانم الكثيرة: خيبر.

عدد الجيش الإسلامي

لما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، خاطب الله تعالى رسوله قائلا: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥]. فلما أراد رسول الله الخروج إلى خيبر، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة. وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلما في صلاة الصبح.

اتصال المنافقين باليهود

أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول إلى يهود خيبر: أن محمدا قصد قصدكم وتوجّه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزّل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى قبائل غطفان العرب يستمدّونهم؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ضد المسلمين. وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم انتصروا على المسلمين.

الطريق إلى خيبر

توجّه رسول الله ﷺ من المدينة نحو خيبر ؛ نحو ١٦٨ كيلوا مترا؛ وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم ضجيجا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا، وخلوا بين المسلمين وبين خيبر. ثم استعمل رسول الله رجلين ليدلاه على الطريق حتى يدخل خيبر من جهة الشمال، فيحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام؛ كما يحول بينهم وبين غطفان.

ماذا وقع في الطريق؟

في الطريق؛ أشرف الناسُ على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: (الله أكبر الله أكبر؛ لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ، إنَّكُمْ ليسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهو معكُمْ**». صحيح البخاري. ارْبَعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ: إشارةٌ يَأمُرُهم فيها بخَفضِ أصْواتِهم.

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، فلما أصبح صلى الفجر، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر للعمل في أرضهم ولا يشعرون، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والحرب، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبيّ ﷺ: **«اللهُ أكبَر، خَربَتْ خَيْبَر، اللهُ أكبَر خَربَتْ خَيْبَر؛ إنّا إذَا نَزَلنا بسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرين»**. صحيح البخاري.

اختيار المعسكر

وكان النبيّ ﷺ اختار لمعسكره منزلا، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي في الحرب؟ قال: «بل هو الرأي»، فقال: يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدا من الحصن وجميع مقاتلي خيبر فيه، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا. وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من غدرهم، وأيضا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرا. قال ﷺ: «الرأي ما أشرت، ثم تحول إلى مكان آخر».

التوجيه المعنوي

لما دنا الرسول من خيبر وأشرف عليها قال: «قفوا». فوقف الجيش فقال: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أظللن، فإنا لنسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشرّ أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله».

حصون خيبر

لما كانت ليلة الدخول قال: «**لأعطينّ الرّاية غدا رجُلا يحبّ الله ورسُوله؛ ويحبّه اللهُ ورسُوله**». صحيح البخاري. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله، كلهم يرجو أن يُعطاها فقال: «أينَ عليّ بنُ أبي طالب»، فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه. قال: «فأرسلُوا إليه». فأُتي به، فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرىء، كأنْ لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: «**انفذْ عَلَى رسْلك، حتّى تَنزل بسَاحتِهِم، ثمّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام، وأخبرهُم بما يجبُ عَليهم منْ حقّ الله فيه، فَوَالله لأنْ يهدي اللهُ بكَ رجُلا واحدا خيرٌ لكَ مِنْ أنْ يكونَ لكَ حمُرُ النّعم**». صحيح البخاري. ويؤخذ من بعض الروايات أنّ إعطاء الراية لعليّ كان بعد فشل عدّة محاولات لفتح حصن من حصونهم.

خيبر فيها ثمانية حصون قويّة

وكان في خيبر ثمانية حصون كبيرة، وكان فيها حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت أصغر منها؛ لا تبلغ درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها. والقتال المرير إنما دار في خمسة منها، أما حصونها الثلاثة الأخرى؛ مع كثرة المحاربين فيها؛ إلا أنها استسلمت دونما قتال.

بدء المعركة

هاجم المسلمون أول هذه الحصون الثمانية الكبيرة، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي. كان هذا الحصن بقيادة الملك (مرحب) البطل اليهودي الذي كان يُعَدّ بألف رجل. خرج عليّ بن أبي طالب بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا

اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم (مرحب)، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة. قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم (مرحب) يخطر بسيفه، فوقع سيف (مرحب) في ترس عمّي عامر، وكان سيفه قصيرا، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، لكن اليهودي أصابه فمات.

المسلمون نجحوا باقتحام الحصن الأول

ثمّ دعا (مرحب) بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى، وجعل يقول: قد علمت خيبر أني (مرحب)، فخرج له عليّ بن أبي طالب. فضرب رأسه فقتله، ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابني؟ قال: «بل ابنك يقتله». فقتله الزبير. ودار القتال المرير حول هذا الحصن المنيع، قُتل فيه عدد من قادة وأبطال اليهود، انهارت لأجله مقاومتهم، وعجزوا عن صدّ هجوم المسلمين، هذا القتال دام أياما صعبة لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا واستسلموا؛ فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن آخر، واقتحم المسلمون الحصن الأول.

الحصن الثاني

كان الحصن الثاني يمتاز أيضا بالقوة والمنعة، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث، دعا رسول الله ﷺ ربّه لفتح هذا الحصن؛ روى ابن إسحاق: أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فقال ﷺ: «اللهم إنك قد عرفت

حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها غناء، وأكثرها طعاما وودكا». فغدا الناس، ففتح الله هذا الحصن، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منه. والودك: أنواع الزيوت ودسم اللحم. ووجد فيه المسلمون أيضا بعض المنجنيقات والدبابات.

تحريم لحم الحمر الأهلية

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي عاش المسلمون فيها أياما قاسية وصعبة؛ خلال حصار هذا الحصون؛ كان رجال من الجيش قد ذَبحوا الحمير الإنسية (الأهلية)، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك؛ نهى عن أكل هذه اللحوم.

فتح القلعة الثالثة

بعد فتح الحصن الأول والثاني؛ تحول اليهود منهما إلى الحصن الثالث، وهو حصن منيع في رأس قمّة عالية، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله الحصار، وأقام محاصرا ثلاثة أيام. فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا ما بالوا، إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم، فقطع الرسول ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشدّ القتال، قُتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله.

فتح القلعة الرابعة

بعد فتح القلعة الثالثة؛ انتقل اليهود إلى القلعة الرابعة وتحصّنوا فيها، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلهما أبطال المسلمين، وكان الذي قتلم هو البطل المشهور أبو دجانة

الأنصاري؛ صاحب العصابة الحمراء، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامي، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى الحصن الخامس.

فتح الحصن الخامس

كان هذا الحصن أقوى وأمنع الحصون السابقة، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصاري جهدهم، لأن اليهود أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء، وقد كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة. وفرض المسلمون على هذا الحصن أشدّ الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن للاشتباك مع قوات المسلمين، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال وإلقاء الحجارة.

ثم ماذا حدث؟

عندما استعصى هذا الحصن على قوات المسلمين، أمر النبيّ ﷺ بنصب آلات المنجنيق، وقذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فرّوا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم. وبعد فتح هذا الحصن المنيع؛ كانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الآخر من بلدة خيبر.

الناحية الأخرى من خيبر

تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشطر الثاني والناحية الأخرى من خيبر، وتحصّن اليهود أشدّ التحصّن في قلاعها الثلاث؛ وجرى القتال لفتح أول هذه الحصون؛ تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام؛ وفرض على أهل هذه الحصون أشدّ الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يوما، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى همّ رسول الله أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا الصلح.

مفاوضات انتهت بالرحيل

أرسل أحد قادة اليهود هو ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أَنزِلُ فأكلّمك؟ فنزل، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترْك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بأهلهم وذراريهم، ويخلّون ما كان لهم من مال وأرض؛ والذهب والفضة، والكراع (الخيل) والحلقة (الدروع والسلاح). إلا ثوبا على ظهر إنسان. وفي رواية أبي داود: أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم. فقال رسول الله ﷺ: وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئا، فصالحوه على ذلك. وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

قَتْل ابنيْ أبي الحقيق بسبب نقض العهد

على رغم هذه المعاهدة؛ غيّب ابنا أبي الحقيق مالا كثيرا، ومساغا وجواهر وحليّ لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت النضير. وأُتيَ رسول الله ﷺ

بكنانة بن أبي الحقيق، وكان يُخفي كنز بني النضير عنده، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطوف بهذه المكان الخرب كل غداة. فقال: رسول الله لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم!

ثم ماذا حدث؟

أمر الرسول بالخربة، فحُفرت، فأَخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤدّيه؛ فدفعه إلى الزبير، وقال: عذّبه حتى تُخرج ما عنده، فأبى الاعتراف، فدفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه ثأرا لابنه محمود (وكان محمود بن مسلمة قُتل تحت جدار حصن أُلقى عليه حجر، وهو يستظلّ بالجدار فمات). وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنيْ أبي الحقيق، وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عمّهما. وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت زوجة كنانة ابن أبي الحقيق، وكانت عروسا.

لكنّ الرّسول ﷺ أبقى اليهود!!

أراد رسول الله ﷺ أن يُجلي اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون لذلك، فأعطاهم خيبر على أنّ لهم الشطر من كل زرع.

كيف تمّ تقسيم الغنائم؟

قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر على ستة وثلاثين سهما، وجمع كل سهم إلى مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله والمسلمين النصف من

ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله سهم واحد كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، سهم للنوائب وما ينزل بالمسلمين. وإنما قُسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طُعمة من الله لأهل الحديبية؛ من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقُسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد.

كم كان حجم الغنائم؟

كانت كثيرة جدا، ويدلّ على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر. ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل.

جعفر بن أبي طالب والأشعريين

في هذه الغزوة؛ قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه. قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين؛ أنا وأخوان لي في بضع وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفرا وأصحابه عنده، فقال: إن رسول الله بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه؛ حتى قدمنا رسول الله حين فَتَحَ خيبر، فأسهم لنا، وما قَسَم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قَسَم لهم معهم. ولما قدم جعفر على النبيّ قال: والله ما أدري بأيّهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

صفية بنت حُييّ

ذكرنا أن صفية جُعلت في السبايا حين قُتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق بسبب غدره، ولما جُمع السبي؛ جاء دحية بن خليفة الكلبي، فقال: يا نبيّ الله، أعطني جارية من السبي. فقال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا نبي الله أَعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبني النضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها. فجاء بها، فلما نظر إليها النبيّ قال: خُذْ جارية من السبي غيرها، وعرض عليها النبيّ الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها (مهرها)، حتى إذا كان راجعا إلى المدينة حلّت، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروسا بها، وأولم عليها طعاما من التمر والسمن.

قالت صفيّة: كأنّ القمر سقط في حجري

ورأى رسول الله ﷺ بوجهها خضرة وإشراقا، فقال: ما هذا؟ قالت: يا رسول الله، رأيتُ قبل قدومك علينا كأنّ القمر زال من مكانه وسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا، فقصصتها على زوجي، فلطم وجهي وقال: تتمنّين هذا الملك الذي بالمدينة (يعني رسول الله)!!

الشاة المسمومة!

لما اطمأنّ رسول الله بخيبر بعد فَتْحها؛ أهدتْ له زينب بنت الحارث شاة مصلية، وهي امرأة سلام بن مشكم، وقد سألت أي عضو أحبّ إلى رسول الله؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السمّ، ثم سمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يُسغها، ولفظها، ثم قال:

إن هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: قلت إن كان ملكا استرحتُ منه، وإن كان نبيا فسيُخبر، فتجاوز عنها. وكان معه بشر بن البراء، أكل منها فمات.فلما مات بِشْرٌ قتلها.

قتلى الفريقين في معارك خيبر

جملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلا، وقيل: ثمانية عشر، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلا.

يهود (فدك)

لما وصل رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من ثمار فدك، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله خالصة، لأنه لم يوجف(يقاتل) عليه المسلمون بخيل ولا ركاب.

وادي القرى

لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضمّ إليهم جماعة من العرب. فلما وصل المسلمون استقبلتهم اليهود بالرمي وهم على استعداد وتعبئة، فقُتل (مدعم) وهو عبدٌ لرسول الله، فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال النبيّ ﷺ: كلا. وذلك بسبب شَملة(قطعة قماش) أخذها يوم خيبر من الغنائم، وأنها لتشتعل عليه نارا. فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبيّ بأشياء وامتعه كان قد أخذها، وسلمها للرسول.

فتحها المسلمون عُنوة

ثم عبّأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبَوا، وظهر رجل منهم للمبارزة، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب فقتله، حتى قُتل منهم أحد عشر رجلا، كلما قُتل منهم رجل دُعو إلى الإسلام، ويأْبَوا ذلك. وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي النبيّ بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام ويأْبَوا ذلك كل مرة، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس حتى فتحها المسلمون عنوة، وغنموا أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا. وأقام المسلمون بوادي القرى أربعة أيام، وترك النبيّ الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها بالنصف كما عامل أهل خيبر.

يهود تيماء

لما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى، لم يُبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح. فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم على نصف الثمر، وكتب لهم بذلك كتابا.

أعرابيّ صدقَ اللّهَ فصَدَقَه

روى البيهقي أن رجلا من الأعراب جاء رسول الله ﷺ فآمن به واتّبعه، فأوصى به رسول الله بعض أصحابه. فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله فقسم له، فلما جاء دفعوه إليه فقال للنبي ﷺ: ما على هذا اتّبعتك، ولكني اتّبعتك على أن أُرمى بسهم

هاهنا؛ وأشار إلى حلقه؛ فأموت فأدخل الجنة. فقال النبيّ ﷺ: إن تصدُق الله يصدُقْك. ولما كان القتال أُتي به رسول الله وقد أصابه سهم حيث أشار. فقال النبيّ ﷺ: هو هو؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: صدَق اللهَ فصدَقه. وكفّنه رسول الله؛ ثم قدّمه فصلى عليه، ودعاله وكان من دعائه: اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك، قُتل شهيدا وأنا عليه شهيد.

دروس من خيبر

أولا: كانت الغزوات السابقة كلها قائمة على أسباب دفاعية؛ أما هذه الغزوة، فهي تدل على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت مرحلة جديدة، وهي مرحلة الهجوم لدعوة الناس إلى الإسلام، ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم.

ثانيا: كما أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، ولا ينتزعها من قوم ويعطيها آخرين محاباة! كلا، ولكن الأمة التي تجحد النعمة، وتكفر بعطاء الله، يسلبها الله أرضها، ثم تساق النعمة إلى من يقدّرها ويشكر الله عليها.

ثالثا: الأمم التي تتكبر وتتبطّر تفقد امتلاكها لنفسها وأرضها، وتقع تحت سيطرة الآخرين، فيصرّفون أمورها وشؤونها كما يشاؤون. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

رابعا: الأيام دُول، والحياة كرّ وفرّ، والنظرة السريعة إلى تاريخ البشرية، تُؤكد بأن البقاء والاستمرارية للأصلح والأنفع للبشرية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

غزوة ذات الرقاع

لما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر أجنحة الأحزاب؛ تفرغ تماما للالتفات إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى. ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تماما، تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر، ولذلك لم تكن تُجدي فيهم إلا حملات التأديب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى. ولفرض السيطرة عليهم؛ لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشّدون للإغارة على أطراف المدينة؛ قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع. المؤرخون يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن مساهمة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة في هذه الغزوة؛ تدل على وقوعها بعد خيبر.

لماذا سمّيت ذات الرقاع؟!

أهمّ ما ذُكر حول هذه الغزوة؛ أن النبيّ ﷺ سمع باجتماع قبائل من غطفان لمحاربة المسلمين، فأسرع النبيّ بالخروج إليهم في سبعمائة من أصحابه، وسار فتوغّل في بلادهم حتى وصل إلى موضع على بعد يومين من المدينة، ولقي جمعا من غطفان؛ فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال؛ إلا أن النبيّ صلى بالجيش يومئذ صلاة الخوف. عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلفّ على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا. صحيح البخاري.

قال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟

وعن جابر: كنا مع النبيّ ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبيّ، وتفرق الناس في العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة؛ فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. قال جابر: فإذا رسول الله يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس. ثم لم يعاتبه رسول الله. صحيح البخاري.

قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك

وفي رواية: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله. فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس. وفي رواية البخاري: أن اسم الأعرابي (دعثور)، وأنه أسلم. فتح الباري شرح البخاري.

ضرب رجلا من المسلمين وهو قائم يصلي

وعند رجوعهم من هذه الغزوة؛ سَبَوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد، فجاء ليلا، فضرب رجلا من المسلمين وهو قائم يصلي بسهم فنزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف من صلاته حتى سلّم!!

بدأت فتوح البلدان والممالك الكبيرة

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترىء أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئا فشيئا حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة، وبهذا تمّ كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدّوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين.

عمرة القضاء

أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم التي صدّها المشركون عام الحديبية، وأن لا يتخلف منهم أحد، فخرجوا جميعا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون، فكانت عُدّتهم ألفين سوى النساء والصبيان، وساق ستين جملا، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة، ولبّى، ولبّى المسلمون معه، وخرج مستعدّا بالسلاح خشية أن يقع من قريش غدر، وخرج المشركون إلى جبل في شمال الكعبة ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حُمّى يثرب، فأمر النبيّ أصحابه أن يرملوا(يسرعوا) في الأشواط الثلاثة الأولى خلال الطواف حول الكعبة، ليُري المشركين قوّتهم، وقد صفّ المشركون ينظرون إليهم، فلم يزل رسول الله يلبّي حتى

استلم الركن، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة أمام رسول الله متأهّبا متوشحا بالسيف.

أقام رسول اللّه ﷺ بمكة ثلاثا

ولما فرغ من الطواف؛ سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، نحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناسا ليُقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نُسُكَهم، ففعلوا. وأقام رسول الله بمكة ثلاثا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتى المشركون عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنّا، فقد مضى الأجل، فخرج النبيّ. وبعد الرجوع من عمرة القضاء إلى المدينة بعث الرسول عدة سرايا، وهي:

سرية ابن أبي العوجاء

وقعت في ذي الحجة سنة ٧ هـ، في خمسين رجلا بعثه رسول الله إلى بني سليم ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالا شديدا، جرح فيه أبو العوجاء، وأُسر رجلان من العدو.

سرية غالب

بعث الرسول ﷺ غالبَ بن عبد الله إلى أصحاب بشير بن سعد بفدك، في صفر سنة ٨ هـ. في مائتي رجل، فأصابوا من العدو ماشية، وقتلوا منهم قتلى.

سرية ذات أطلح

وقعت في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعا كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعبَ بن عمير الأنصاري في خمسة عشر

رجلا، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استُشهدوا كلهم إلا رجل واحد.

سرية ذات عرق

كانت هذه السرية توجهت إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدّت الأعداء مرة بعد أخرى، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلا، فاستاقوا ماشية من العدو، ولم يلقوا قتالا.

وصايا الرسول ﷺ لأمراء الجيش

انظر إلى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في صحيح مسلم؛ حيث قال: «كان رسول الله إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية (مجموعة عسكرية) أوصاه بتقوى الله؛ ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا، ولا تغدُرُوا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتُلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعُهم إلى ثلاث خصال، فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم، ثم ادعُهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهُم أنّهم إن فعلوا ذلك فلهُم ما للمهاجرين، فإن أبَوْا أن يتحوّلوا منها فأخبِرْهُم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هُمْ أبَوْا فسَلْهُم الجزية؛ فإنْ هُمْ أجابوك فاقبل منهم وكُفّ عنهم. فإن هُمْ أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم.

لا تجعل لهُمْ ذمّة الله ولا ذمّة نبيّه!!

ثم أكمل رسول الله ﷺ وصيّته قائلا: «وإذا حاصرتَ أهلَ حصن فأرادوك أن تجعل لهُمْ ذمّة الله وذمّة نبيّه؛ فلا تجعل لهُمْ ذمّة الله ولا ذمّة نبيّه، ولكن اجعل لهم ذمّتك وذمة أصحابك، فإنكُم أَنْ تَخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم أهونُ من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله. وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهُم على حُكم الله؛ فلا تُنزلهم على حُكم الله؛ ولكن أنزلهُم على حُكمك، فأنتَ لا تدري أَتُصيب حُكم الله فيهم أم لا».

معركة مُؤْتة

هذه المعركة أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في سنة ٨ هـ، وفق سنة ٦٢٩ م. مُؤْتة: بلدة تقع اليوم في محافظة الكرك في الأردن.

سبب المعركة

سبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بَعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني؛ وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطا، ثم ضرب عنقه. وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله حين نُقلت إليه الأخبار، فجهّز إليه جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

وصية رسول الله للجيش

أمّر رسول الله ﷺ على الجيش زيد بن حارثة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة» وعقد لهم لواء أبيض، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: «اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تُغيروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا مُنعزلا بصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء».

بكاء عبد الله بن رواحة

لما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس وودّعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش، وهو عبد الله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبّ الدنيا، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

حالة رهيبة

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل بلدة معان من أرض الشام(جنوب الأردن)، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل في مائة ألف من الروم، وانضمّ إليهم من قبائل العرب مائة ألف أخرى!!

المجلس الاستشاري بمعان

لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة، وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب،

على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الهائج، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ احتار المسلمون، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

لا نقاتل الناس بعدد ولا كثرة!

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجّع الناس قائلا: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيرا استقرّ الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

الجيش الإسلامي يتحرك

بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها «مشارف»، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبّأوا للقتال.

بداية القتال

هناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبّت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أحداث المعركة

أخذ الراية زيد بن حارثة، وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى تفجّر دمُه وتمزقت أوصاله، وخرّ صريعا. وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعا إياها حتى قُتل. يقال: إن مقاتلا روميّا ضربه ضربة قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سمّي بجعفر الطيار، أو بجعفر ذي الجناحين. عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة، وقيل: بضعا وتسعين، ليس منها شيء في دبره. يعني ظهره. صحيح البخاري.

عبد الله بن رواحة

ولما قُتل جعفر؛ أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدّم بها وهو على فرسه، فجعل يتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم نزل، فأتاه ابن عمّ له بعرق من لحم فقال: شدّ بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان اسمه ثابت بن أرقم؛ فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح

الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريرا، فقد رَوى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعتْ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف.

رسول اللّه يراقب المعركة

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة مُخبّرا عن طريق الوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم.

نهاية المعركة

مع الشجاعة البالغة؛ كان مُستغرَبا جدا أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر العظيم من جيوش الروم ومن معهم من العرب، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما وقعوا فيه. واختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا. إلا أنها اتفقت بأن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بضرورة الحاجة إلى مكيدة حربية تُلقي الرعب في قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من مخالبهم صعب جدا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

ماذا حدث في اليوم التالي؟

فلما أصبح اليوم الثاني؛ غيّر خالد بن الوليد أوضاع الجيش؛ وعبّأه من جديد، فجعل مقدمته مؤخرته، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم،

وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد بعد أن تراآى الجيشان، وتناوشا ساعة يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء. وهكذا تراجع جيش الروم وبدأ ينحاز من أرض المعركة شيئا فشيئا، حتى انسحب تماما، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في العودة إلى مواقعهم سالمين، حتى عادوا إلى المدينة.

قتلى الفريقين

استُشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

أثر المعركة من عجائب الدهر!!

كانت هذه المعركة كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت قبائل العرب كلها في الدهشة والحيرة! فقد كان الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكان لقاء هذا الجيش الصغير(ثلاثة آلاف مقاتل) مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير(مائتا ألف مقاتل) ثم الرجوع إلى المدينة من غير أن تَلحق به خسارة تذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم منتصرون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقّ، ولذلك نرى أكثر القبائل التي كانت تثور على المسلمين قد جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها. كما كانت هذه المعركة تمهيدا لفتح بلاد الروم، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائبة.

فتح مكة

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به المسلمين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ابتهاجا.

سبب الغزوة

كان من بنود معاهدة الحديبية؛ أن من أحبّ أن يدخل في حلف محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في حلف قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق.

ماذا حدث؟

وحسب هذا البند؛ دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وحروب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية في جماعة من بني بكر فأغاروا على خزاعة ليلا، وهم على ماء لهم؛ فأصابوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، ومعاونة قريش لبني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة

ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا ونقضا صريحا للميثاق، ولذلك سرعان ما أحسّت قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسا استشاريا، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها؛ ليقوم بتجديد الصلح. وقد أخبر رسول الله أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدّ العقد، ويزيد في المدة. وفعلا وصل أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله منعته، فقال: يا بنيّة، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شرّ!

الرسول لم يَرُدّ على أبي سفيان!

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يردّ عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، فقال: يا علي، إني قد جئتُ في حاجة، فلا أرجعنّ كما جئتُ خائبا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

أبو سفيان قال لعليّ: انصحني

حينئذ أظلمت الدنيا أمام عينيّ أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن؛ إني أرى الأمور قد اشتدّت عليّ، فانصحني. قال: والله

ما أعلم لك شيئا يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأَجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنيا عنّي شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجدْ لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

أبو سفيان يرجع إلى مكة خائبا

لما رجع أبو سفيان إلى قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدا فكلمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم، قد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك.

التهيؤ للغزو

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام أن تجهّزه للقتال، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يا بُنَيّة ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري. فقال: فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لي. وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا، فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة.

مكيدة حرب!!

وزيادة في الإخفاء والتعمية؛ بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى مكان آخر بعيدا عن طريق مكة، ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار إلى مكة، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أُمرتْ؛ بَلَغها أن رسول الله خرج بالجيش إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته.

هل خان (حاطب) رسول الله!!

كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها مالا على أن تبلغه قريشا، فجعلته في شعر رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليا والمقداد، فقال: انطلقا حتى تأتيا ذلك المكان، فإن بها امرأة معها كتاب إلى قريش، فانطلقا سريعا حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستوقفاها وقالا: معك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا، فقال لها علي: أَحلفُ بالله، ما كَذَب رسولُ الله، والله لتُخرجنّ الكتاب أو لنجردنّك من الثياب. فلما رأت الجدّ منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله، فإذا فيه: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله، فدعا رسول الله حاطبا.

محاكمة !!

قال: ما هذا يا حاطب؟ فقال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فذرفتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة

يوم ١٠ من شهر رمضان سنة ٨ هـ، غادر رسول الله ﷺ المدينة متجها إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة. ولما كان بالطريق لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلما مهاجرا، ثم لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال عليّ لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف. قالُوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]. فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن منه قولا. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

الجيش الإسلامي يواصل السير

واصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ موضع ماء؛ فأفطر وأفطر الناس معه، ثم واصل سيره حتى نزل بمرّ الظهران فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأُوقدت عشرة آلاف شعلة، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب.

أبو سفيان معه رجلان يتجسّسون الأخبار

ركب العباس بغلة رسول الله البيضاء، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطّابة أو أحدا يخبر قريشا؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله قبل أن يدخلها. وكان الله قد أعمى الأخبار عن قريش، فهم على وجل وترقب، وكان أبو سفيان معه رجلان يتجسّسون أخبار الجيش الإسلامي. قال العباس: والله إني كذلك أسير على بغلة رسول الله أتجسّس أخبار قريش؛ فلما اقتربت منهم بالخفاء إذْ سمعت كلام أبي سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا. قال صاحبه: هذه والله خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال العباس: فعرفت صوته، فقلت له: هذا رسول الله في الناس، قال: فما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب خلفي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأَستأْمِنُهُ لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه.

أبو سفيان بين جيش المسلمين !!

قال العباس: فجئت به، فكلما مررتُ به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عمّ رسول الله على بغلته. حتى مررتُ بنار

عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على الدّابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله، وركضتْ البغلة فسبقتْ، فاقتحمتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسول الله، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أَجَرْتُه، فلما أكثر عمرُ في شأن أبي سفيان قلت:

مهلا يا عمر !!

فوالله لو كان من رجال بني عديّ بن كعب (قبيلة عُمر) ما قلتَ مثل هذا، قال عُمر: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامُكَ كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأْتني به، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره؛ لقد أغنى عني شيئا بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله، قال: أما هذه؛ فإنّ في النفس حتى الآن منها شيئا. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، قبل أن تُضرب عنقك، فأسلم.

أبو سفيان رجل يحبّ الفخر !!

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر، فاجعل له شيئا. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

الجيش الإسلامي يغادر إلى مكة

في صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ- غادر رسول الله ﷺ مرّ الظهران (شمال مكة، يبعد عنها ٢٥ ميلاً) إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى يمرّ به الجيش الإسلامي فيراه، ففعل، فمرت القبائل على راياتها حتى نفدت، حتى مرّ به رسول الله في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيما. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: نعم.

كلمةٌ قالها سعدُ بن عبادة

كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرّ بأبي سفيان قال له: اليوم أذلّ الله قريشا. فلما حاذى رسولُ الله أبا سفيان قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ فقال: كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: بل اليوم يومٌ تُعَظّم فيه الكعبة، اليوم يومٌ أعزّ الله فيه قريشا. ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد.

يا معشر قريش: هذا محمد !!

لما اقترب الزحف الإسلامي؛ أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وبثوا

أوباشا لهم، وقالوا: نقدّم هؤلاء فإن غَلَبَتْ قريش كنا معهم، وإن أُصيبوا بقينا مكاننا. فتجمع أوباش وسفهاء قريش مع عكرمة بن أبي جهل ليقاتلوا المسلمين.

كيف وزّع رسول الله الجيش ؟!

أما رسول الله ﷺ فمضى يُخفض رأسه تواضعا لله، وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على ميمنة الجيش، وفيه من قبائل العرب؛ فأمره الرسول أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: إن عُرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا، وكان الزبير بن العوام على ميسرة الجيش، وكان معه راية رسول الله، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها، ولا يبرح حتى يأتيه.

الجيش الإسلامي يدخل مكة

تحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كُلّفت الدخول منها؛ فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا قتلوه، وقَتَلَ منهم اثني عشر رجلاً؛ وقُتل من أصحابه من المسلمين رجلان، كانا قد شذّا عن الجيش، فسلكا طريقا غير طريقه فقُتلا، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه فناوشوهم فأصابوا منهم اثني عشر رجلا، فانهزموا، وانهزمت ثائرة بن قيس الذي كان يُعِدّ السلاح ويُحرّض لقتال المسلمين حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليّ بابي. فقالت: وأين ما كنت تقول!؟

النبيّ لم يترك أحدًا من المسلمين ينتقم لنفسه

كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لجماعة كبيرة من المسلمين الثائرين، ولكنه ﷺ لم يترك أحدًا يدّعي لنفسه حقًّا في إقامة الحدود، وإكراه الناس على إتباع أحكام

الإسلام، غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس. فلما قَتَل بعضُ المسلمين غداة فتح مكة رجلًا من المشركين غَضِبَ النبيّ، ولما أراد أن يصادر الخمر نهج في ذلك بالتدرّج، كان ذلك وفق توجيهات من النبيّ مباشرة، حتى صار شرب الخمر وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين، من تفقّه منهم في الدين ومن لم يتفقّه، ولكنّ منْع المحرمات الاجتماعية؛ ينبغي أن تكون في يد حاكم المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام، وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ في مجتمع يشتمل على شتى المصالح والأهواء؛ وحتى لا يصاب ببلاء الانقلابات العسكرية وانتزاع الطاعة وتجاهل القوانين في الدولة، ووقوع الفوضى والفتن ومعاصي كثيرة التي هي أضرّ عليه من المعصية الواحدة، لهذا السبب لم يكتف النبيّ بصريح التحريم في القرآن، ولا اكتفى بإسناد الأمر إلى عامة الناس في تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه، ثم أمر رجلًا بعينه وأناسًا بأعينهم أن يمضوا في إتمام هذا العمل، ولم يجعل ذلك إذنًا عاما لمن شاء أن يفعل ما شاء.

أجمل ما في هذه المسألة

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان القانون، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلامًا هو أجمل ما في هذه المسألة من قول النبيّ ﷺ:

«السَّمْعُ والطَّاعَةُ حَقٌّ ما لَمْ يُؤْمَرْ بالمَعْصِيَةِ، فإذا أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ، فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ».

صحيح البخاري. ومن قوله: «الإمامُ الجَائرُ خَيْرٌ منَ الفتْنَة، وَكُلٌّ لا خَيْرَ فِيْه». هذا بحقّ هو الإلهام من السماء في تدبير المصالح العامة، وفي علاج شؤون الجماعات.

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام

ثم نهض رسول الله؛ والمهاجرون والأنصار أمامه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١]. والأصنام تتساقط على وجوهها.

مفتاح الكعبة

كان طوافه ﷺ على راحلته، ولم يكن ذلك محرّما يومئذ، واقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت، فدخلها، فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط. ورأى في الكعبة حمامة(مجسّم) من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، ثم صلى هناك، ثم دار في البيت، وكبّر في نواحيه، ووحّد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع؟

خطبة الرسول في أهل مكة

أخذ رسول الله ﷺ بعضادتي باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كلّ مأْثرة أو مال أو دم فهو

تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد- السوط والعصا- ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢]. اذهبوا فأنتم الطلقاء. لا تثريب: أي لا لوم ولا عتاب.

مفتاح الكعبة إلى أهله

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقال: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له، فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء، وفي رواية أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته.

بلال يؤذّن على الكعبة

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان وأسياد مكة جلوس بفناء الكعبة.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر

دخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانىء بنت أبي طالب: فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها، وكان ضُحى، فظنَّها من ظنَّها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح.

أم هانيء أجارتْ رجلين

وأجارتْ أم هانىء رجلين، فقال لها رسول الله ﷺ: قد أجرْنا من أجَرْتِ يا أم هانىء، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما.

ما مصير أكابر المجرمين في مكة؟

أهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، فأما أحدهم، فجاء به عثمان إلى النبيّ وشفع فيه فحقن دمه، وقد أسلم وقَبِلَ الرسول إسلامه، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة. وأما الثاني فكان عكرمة بن أبي جهل؛ ففرّ إلى اليمن، فاستأمنتْ له امرأته المسلمة، فأمّنه النبيّ ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم، وحسن إسلامه. وأما الثالث وهو ابن خطل؛ فكان متعلقا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبيّ وأخبره فقال: اقتله. فقتله. وأما مقيس بن صبابة فقتله نُميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين. وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله عليّ. وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله حين هاجرت، فتعرّض لها حتى سقطت على صخرة؛ وأسقطت جنينها، ففرّ يوم مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه. وأما القينتان (مغنيّتان) فقُتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى، فأسلمت.

عدد من قُتلوا ثمانية رجال وستّ نسوة

وذُكر فيمن أُهدر دمُه الحارث بن طلاطل الخزاعي فقتله عليّ، وذُكر أيضا ممن أهدر دمه كعب بن زهير، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك، وأسلم ومدح. ووحشيّ بن حرب قاتل حمزة عمّ النبيّ ﷺ تابَ وأَسلم، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاة ابن خطل أيضا قُتلت، وأم سعد، قُتلت(وهما المغنيّتان كانتا تهجوان الرسول والمسلمين) فكان عدد من قُتلوا ثمانية رجال وستّ نسوة.

إسلام صَفوان بن أمية، وفُضالة بن عُمير

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيما كبيرا من زعماء قريش خاف على نفسه وفرّ، فاستأمن له عُمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمّنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جَدّة إلى اليمن فردّه، فقال لرسول الله: اجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعة أشهر. ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرّهما على النكاح الأول. أما فُضالة؛ كان رجلا جريئا، جاء إلى رسول الله وهو في الطواف ليقتله؛ فأخبره الرسول بما في نفسه، فأسلم.

خطبة الرسول في اليوم الثاني من الفتح

لما كان الغد من يوم الفتح؛ قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجّده بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يعضد بها شجرة، فإنْ أحدٌ ترخّص لقتال رسول الله

فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب. وفي رواية: لا يعضد شوكه، ولا ينفّر صيده، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقِينِهم وبيوتهم، فقال: إلا الإذخر.

بقاء الرسول ﷺ في مكة!!

لما تمّ فتح رسول الله مكة، وهي بلدُه ووطنُه ومولدُه؛ قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله إذْ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؛ وكان يدعو على الصفا رافعا يديه؛ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: معاذَ الله؛ المحيا محياكم، والممات مماتكم.

أهل مكة اجتمعوا للبيعة

حين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين؛ تبيّن لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأَذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

بيعة النساء

رُوي أن النبيّ ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يُبايعهنّ ويُبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفا من رسول الله أن يعرفها، لِما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ: أبايعكنّ على

أن لا تشركن بالله شيئا، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا. فقال رسول الله ﷺ: ولا تُسرفن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبتُ من ماله شيئا؟ فقال أبو سفيان: وما أصبتِ فهو لك حلال، فضحك رسول الله وعرفها، فقال: وإنك لهند؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله. فقال: ولا يزنين. فقالت: أوَ تَزني الحرة!؟ فقال: ولا يقتلن أولادهنّ. فقالت: ربّيناهم صغارا، وقتلتموهم كبارا؛ وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسّم رسول الله. فقال: ولا يأتين ببهتان. فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ولا يعصينك في معروف. فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك. ولما رجعت كسرت صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

إقامة الرسول بمكة

أقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوما، يجدّد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي لكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فكُسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره.

تدبير الشئون العامة

الإدارة العليا للدولة بعد اكتمال أجزائها، مكة والمدينة، إنما تتجلى في تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء؛ وتُنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصًا

وقوانين يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات التي تصرّف الشؤون على نسق واحد، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار؛ لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك. وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد في صنع الحلول التوفيقية واتقاء الشرور في أحسن تمام. فما عُرض له تدبيرُ أمرٍ إلا أشار فيه بأحسن الآراء، وأدناها إلى الإرضاء. صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تتنازل عنه قبيلة لقبيلة، أو بإيثار إحدى القبائل على غيرها؛ ولو عن طريق المصادفة والاقتراع، فأشار محمد بالرأي الذي لا رأي غيره، فجاء بثوب ووضع الحجر الأسود عليه؛ وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه، وكان دوره أن يقيمه بيده حيث كان.

تغيّر مجرى تاريخ الإسلام والعالم

المرحلة الثالثة؛ وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل، وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاما. كان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى تاريخ الإسلام والعالم، وتحول به جوّ العرب، فقد كان الفتح حدا فاصلا بين ما قبل التاريخ وبين ما بعده، فإن قريشا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبعٌ لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

هذه المرحلة: صفحتان

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة الأخيرة إلى صفحتين، هما:

أولا: صفحة المجاهدة والقتال.

ثانيا: صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

هاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، ونظرا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب.

غزوة حُنين

هي غزوة وقعت في الثالث عشر من شهر شوال في السّنة الثامنة للهجرة؛ بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف؛ في واد يسمّى حُنين بين مكّة والطائف. بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة جبل عرفات. جاء فتح مكة بعد ضربة سريعة خاطفة أدهشت العرب، وبُوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، رأت هذه البطون من نفسها عزّا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

نزول العدوّ بأوطاس

أوطاس: واد يقع في المملكة العربية السعودية قرب حُنين؛ على مسافة ١٩٠ كيلوا مترا شمال شرق مكة. لما أجمع القائد العام مالك بن عوف السّير إلى حرب المسلمين؛ ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأوطاس.

(دُريد) يستخفّ برأي قائد المشركين

ولما نزل مالك بن عوف بأوطاس؛ اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة؛ وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعا له تجارب كثير في الحروب. قال دُريد: بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعم مجال الخيل، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي وثغاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردتُ أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله، وهل يردّ المنهزم شيئا؟ إنها إن كان النصر لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت الهزيمة عليك فُضحت في أهلك ومالك.

سلاح استكشاف العدو

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم لاستكشاف أحوال المسلمين، جاءت هذه العيون وقد تفرّقت أوصالهم. قال: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ

ونقلت الأخبار إلى رسول الله بسير العدو، فبعث أبا حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

كان النبيّ محمد ﷺ سابقًا إلى تلك الخطط

نابليون مثلا؛ كان يوجّه همّه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع، وإنما كانت عنايته الكبرى

منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن خطط عسكرية أخرى، إنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور: أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار الفرصة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده؛ وكان النبيّ محمد ﷺ سابقًا إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها، فكان لا يبدأ أحدًا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس في قيظ ملتهب، فلا يَثْنِيه ذلك، ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا هزيمته، ولا يكفّ عن التأهب السريع.

يقضي على عزائم أعدائه

وكان النبيّ ﷺ يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها، ولا يضيّع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالًا على المقدمين عليه، كما حدث في غزوة الخندق.

الرسول يغادر مكة إلى حُنين

وفي يوم السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ؛ غادر رسول الله ﷺ مكة، وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله مكة؛ خرج في اثني عشر ألفا من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، ولما كان الليل جاءه فارس،

فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم رسول الله وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله.

ذات أنواط

وفي طريقهم إلى حنين؛ رأوا سدرة(شجرة) عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم أنواط. فقال: الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبنّ سنن من كان قبلكم. وقد كان بعضُهم قال نظرا إلى كثرة الجيش: لن نغلب اليوم، وكان قد شق ذلك على رسول الله.

الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجمين

وصل الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء، عشر من شوال، أي بعد انطلاقه من مكة بأربعة أيام، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرق الكمائن في الطرق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدّوا شدّة رجل واحد.

الشماتة بالرسول والمسلمين !!

وقبل الفجر، عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس، وفي الصبح استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمائن العدو في مضايق هذا الوادي؛ فبينما هم كذلك؛ إذا هم تمُطر عليهم

النّبال، وإذا كتائب العدو قد شدّت عليهم شدّة رجل واحد، فانشكف المسلمون راجعين، لا يلوي(ينظر) أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، ما دعا أبو سفيان بن حرب زعيم مكة وأهل قريش ممن أسلموا حديثا، إلى الشماتة بالرسول والمسلمين!!

القوة المعنوية إلى الكثرة العددية

كان نابليون يقول: إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد. والنبيّ محمد ﷺ كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان. وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك، ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدًّا من أكبر خاصية بلغها نابليون بفضل ما أَودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة. فالنبيّ ﷺ كان يحارب عربًا بعرب، كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان.

ماذا فعل رسول اللّه؟

انحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: هلمّوا إليّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، ولم يبقَ معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته. وحينئذ ظهرت شجاعة النبيّ التي لا نظير لها. بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته يكفّانها أن لا تسرع. ثم نزل رسول الله فاستنصر ربه قائلا: اللهم أنزل نصرك.

احتدام المعركة

أمر رسول الله ﷺ عمّه العباس؛ وكان جهير الصوت؛ أن ينادي الصحابة. قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين

سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. ويذهب الرجل لِيُرجع بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، ويأخذ سيفه وترسه، ويرجع إلى رسول الله؛ حتى اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا العدو واقتتلوا. السّمرة: هي الشجرة التي بايع تحتها أصحاب الرسول نبيّهم على الثبات وعدم الفرار، إذا ما لاقوا قريشا عند الحديبية.

أما الأنصار

فقد صُرفت الدعوة إليهم: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم تركزت الدعوة في بني الحارث من الخزرج، يعودون جماعات جماعات، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى؛ يتجمّعون للقتال في ساحة المعركة أفواجا، كما كانوا هربوا من ساحة المعركة أفواجا. وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحرّ واحتدم، فقال: «الآن حميَ الوطيس». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله إنسانا منهم إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة، فلم يلبث أكثرهم إلا ولّوا مدبرين.

هزيمة ساحقة

وما هي إلا ساعات قلائل بعد رمي القبضة؛ حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وماشية. وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٦].

حركة المطاردة

لما انهزم العدو؛ تباعدوا، فصارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبيّ ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطارِدين يقودُهم أبو عامر الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلا، ثم انهزم جيش المشركين، وفي هذه المناوشة قُتل القائد أبو عامر الأشعري. وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركتْ القائد المحنّك دُريد بن الصمة، فقتله ربيعة بن رفيع. وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف؛ فتوجّه إليهم رسول الله بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

أما الغنائم فكانت:

السَّبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرون ألفا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها في مكان اسمه الجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف. وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جاؤوا بها إلى رسول الله عرّفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردّها إلى قومها.

غزوة الطائف

هذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أنّ معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام للجيش مالك بن عوف النصري، وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين. وقَدِم خالد بن الوليد في ألف رجل، ثم

سلك رسول الله إلى الطائف، فمرّ في طريقه على حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف، فنزل قريبا من حصنه الذي يتمكّن فيه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن، ودام الحصار، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوما.

ثم ماذا حدث؟!

وقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميا شديدا، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراح، وقتل منهم اثنا عشر رجلا، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك. ونصب النبيّ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت فجوة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة؛ دخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد مُحمّاة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالا.

لم تكن الدبّابة كدبّاباتنا المعروفة اليوم، وإنما كانت تُصنع من الخشب، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها لاتقاء السّهام والضربات.

سياسة الحرب

وكجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام؛ أمر رسول الله ﷺ بقطع أشجار الأعناب وتحريقها. فقطعها المسلمون قطعا ذريعا، فسألته ثقيف أن يدعها لله، فتركها لله. ونادى منادي النبيّ ﷺ: أيّما عبدٌ نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلا فيهم رجلٌ تدلّى منه ببكرة مستديرة، فكنّاه رسول الله أبا بكرة»، فأعتقهم رسول الله، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يطعمه ويسقيه.

ماذا فعل الرسول لما طال الحصار؟

استعصى الحصن وطال الحصار، وأصيب المسلمون بها أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المُحمّاة، وكان أهل الحصن قد أعدّوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة. فاستشار رسول الله ﷺ بذلك رجلا اسمه نوفل بن معاوية الديلي فقال: هم ثعلب في جُحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول الله على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذّن في الناس: إنا قافلون غدا إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غدا إن شاء الله، فسُرّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك. وقالوا: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيفا وآت بهم.

قسمة الغنائم

لما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنّى بها، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيأخذوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة.

محمد ﷺ يعطي عطاء عظيما للناس

أعطى أبا سفيان بن حرب زعيم مكة أربعين أوقية ذهبا ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها. وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل

ثم مائة ثم مائة، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمدا يعطي عطاء كثيرا، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: أيها الناس رُدُّوا عليّ ردائي، فو الذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا.

قسمة مبنيّة على سياسة حكيمة

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وَبَرة(شعرة)، فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها، فقال: أيها الناس، والله ما لي من فَيئكم (الغنائم)، ولا هذه الوَبَرَة إلا الخُمْس، والخُمْس مردودٌ عليكم(أي في مصالح المسلمين). وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسا أخذ اثني عشر بعيرا وعشرين ومائة شاة.

يُقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم!

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، فإنّ في الدنيا أقواما كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمدّ إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر؛ تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهشّ له.

الأنصار يعترضون ؟!

هذه السياسة الحكيمة لرسول الله لم تُفهم أول الأمر، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حُرموا جميعا أُعطية حُنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة، فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا، وها هم أولاء يرون أيدي الفارّين ملأى، وأما هم فلم يُمنحوا شيئا قط!!

كثُر فيهم القيل والقال

عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء؛ وجد هذا الحي من الأنصار شيئا في أنفسهم، حتى كثر فيهم القيل والقال، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إنّ هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أَصبت؛ قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟» قال: يا رسولَ اللهِ، ما أنا إلَّا امرُؤٌ من قَومي، وما أنا؟!

ماذا ردّ عليه رسول اللّه؟

قال رسول الله ﷺ: «فاجْمَعْ لي قَومَك»، قال: فخَرَجَ سَعدٌ، فجَمَعَ الأنْصارَ، قال: فجاءَ رِجالٌ من المُهاجِرينَ، فتَرَكَهم فدَخَلوا، وجاءَ آخَرون، فرَدَّهم. فلمَّا اجتَمَعوا أتاهُ سَعدٌ، فقال: قد اجتَمَعَ لكَ هذا الحَيُّ من الأنْصارِ، قال: فأَتاهُم رسولُ اللهِ صلَّى

اللهُ عليه وسلَّم، فحَمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثُمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنْصارِ، ما قالَةٌ بَلَغَتْني عنكم، وجِدَةٌ وَجَدتُموها في أنْفُسِكم؟! أَلَمْ آتِكم ضُلَّالًا فهَداكمُ اللهُ؟ وعالةً فأغْناكمُ اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بيْنَ قُلوبِكم؟ قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُه أمَنُّ وأفضَلُ، قال: ألَا تُجيبونَني، يا مَعشَرَ الأنْصارِ؟ إسناده حسن.

قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ الله؟

قال: «أمَا واللهِ لو شِئتُم لَقُلتُم: أَتَيتَنا مُكذَّبًا فصَدَّقْناك، ومَخذولًا فنَصَرْناك، وطَريدًا فآوَيْناك، وعائِلًا فآسَيْناك، أوَجَدتُم في أنْفُسِكم يا مَعشَرَ الأنْصارِ، في لُعاعةٍ من الدُّنيا، تَألَّفْتُ بها قَومًا لِيُسلِموا، ووَكَلتُكم إلى إسْلامِكم، أفَلا تَرضَوْنَ يا مَعشَرَ الأنْصارِ، أنْ يَذهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ، وتَرجِعون برسولِ اللهِ في رِحالِكم؟ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيدِه، لولا الهِجْرةُ لَكُنتُ امرَأً من الأنْصارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وسَلَكَتِ الأنْصارُ شِعْبًا، لَسَلَكتُ شِعْبَ الأنْصارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأنْصارَ، وأبْناءَ الأنْصارِ، وأبْناءَ أبْناءِ الأنْصارِ! قال: فبَكى القَومُ، وقالوا: رَضِينا برسولِ اللهِ قَسْمًا وحَظًّا». إسناده حسن، أخرجه أحمد، وروى مثل ذلك البخاري.

وفد هوازن

بعد توزيع الغنائم، أقبل وفد هوازن مسلما، وهم أربعة عشر رجلا، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عمّ رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسبي والأموال، وأدْلَوْا إليه بكلام ترقّ له القلوب، فقال: «إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إلي أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقال: «إذا صليت الغداة(أي صلاة الظهر) فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله أن يردّ

إلينا سَبْينا»، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

ماذا أجاب رسول الله على هؤلاء؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين... فمن كان عنده منهنّ شيء فطابت نفسه بأن يردّه.. فليردّ عليهم، وله بكل فريضة ستّ فرائض من أول ما يفيء الله علينا». فردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد، وكسا رسول الله سَبْيَهم من النساء والأطفال.

العودة إلى المدينة

لما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم؛ أدّى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعا إلى المدينة. لقد جاء المدينة أول مرة مطاردا؛ غريبا مستوحشا، فآووه ونصروه واتبعوه، واستخفّوا بعداوة الناس جميعا من أجله، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجرا خائفا؛ لتستقبله هذه المرة وقد دانت له مكة، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

غزوة تبوك

وقعت في رجب سنة ٩ هـ، كانت غزوة فتح مكة فاصلة. لم يبق بعدها مجال للظن والشك في رسالة محمد عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تماما، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وانتهت المتاعب الداخلية، واستراح المسلمون وتفرّغوا لبثّ دعوة الإسلام.

سبب الغزوة

كانت قوة الرومان أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان، وكانوا قد تعرّضوا للإسلام وأهله، وبداية هذا التعرّض كانت بقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي على يد الأمير شرحبيل بن عمرو الغساني الموالي للروم، حينما كان السفير يحمل رسالة النبيّ إلى عظيم بصرى، وأن النبيّ ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب جميعا.

خطر المسلمين على دولة الروم

لم يكن قيصر الروم ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب لاستقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين، إن هذا كان خطرا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة؛ لذا يجب القضاء على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليه، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان. لذلك لم ينتظر قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة؛ حتى أخذ يُهيء الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهّز لمعركة دامية فاصلة.

الاستعداد للحرب

كانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف ينتابهم كل حين، لا يسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب، يقول: كان لي صاحب من

الأنصار إذا غبتُ أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر؛ ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري، فضرب بابي ضربا شديدا ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أمر آخر.

خطورة الموقف

هذا يدل على خطورة الموقف الذي كان يواجهه المسلمون من خطر الرومان، ويزيد ذلك تأكدا ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار استعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين، وأنه لا يَوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يُذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق، برغم هذا كله؛ طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربّصونه من الشر بالإسلام وأهله.

مسجد الضرار

ونظرا إلى قرب تحقق آمالهم؛ أنشأوا وكرا للدسّ والتآمر؛ في صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، أسسوه تفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله أن يصلي فيه ليخدعوا المؤمنين، ويصير وكرا مأمونا لهؤلاء المنافقين ولاجتماع رفقائهم من الخارج، ولكن رسول الله ﷺ رفض الصلاة فيه، ففشلوا في مرامهم؛ وفَضَحهم الله، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بدل أن يصلي فيه.

الأخبار الخاصة

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدُمون بتجارة الزيت من الشام إلى المدينة؛ أنّ هرقل قد هيّأ جيشا عظيما قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل من نصارى العرب، وأن جيشهم وصل البلقاء (غرب الأردن). وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف

والذي كان يزيد خطورة الموقف، أن هذا الوقت كان فصل صيف وقيظ شديد، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبّون البقاء في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الخروج على أي حال؛ في هذا الزمان الذي هُمْ فيه، عدا أن المسافة كانت بعيدة، والطريق وعرة وصعبة.

سياسة عسكرية

لكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدقّ وأحكم من هذا كله. إنه كاان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو بلاد الروم في هذه الظروف الحاسمة، وتركهم يجوسون خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية، وعلى سمعة المسلمين العسكرية. فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاسمة في حُنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذي يتربّصون الدوائر بالمسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين يهجم جيش الروم بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا تخفق كثير

من الجهود التي بذلها النبيّ وأصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة؛ فتذهب كل هذه المكاسب والانجازات هباء منثورا.

ضربة استباقية!!

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدا، ولذلك قرر القيام بالضربة الاستباقية؛ مع ما كان فيه المسلمون من الضيق والجهد والشدة، كان لا بدّ من غزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

الاعلان بالتهيّؤ للقتال

أصدر رسول الله ﷺ قراره؛ وأعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قلّ ما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، (يعني التمويه إلى مكان آخر)؛ لكن نظرا إلى خطورة الموقف؛ أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلّى للناس أمرهم، ليتأهّبوا أهبة كاملة، وحضّهم على الجهاد، ونزلت آيات من سورة براءة تثيرهم وتحثهم على القتال، ورغّبهم رسول الله في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله.

المسلمون يتسابقون إلى التجهّز للقتال

أول ما سمع المسلمون صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهّزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل تتجه إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة؛ إلا

قليل منهم؛ حتى كان يجيء الفقراء والضعفاء من المسلمين يطلبون من يساعدهم ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم رسول الله: ﴿لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

عثمان بن عفان (ملياردير) ذلك الزمان

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات؛ كان عثمان بن عفان قد جهّز قافلة للشام، مائتا بعير، ومائتا أوقية، فتصدّق بها جميعها للجيش، ثم تصدق بمائة بعير أخرى، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجر الرسول ﷺ، فكان الرسول يقلبها ويقول: «ما ضرّ عثمان ما عملَ بعدَ اليوم»، ثم تصدّق وتصدّق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود، وقد كان عثمان في ذلك الزمان يمتلك ثروات من الأموال والثروات والعقارات ما يمكن قوله في زماننا: إنه كان مليارديرا.

ملايين أخرى تتدفق للجيش الإسلامي

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وكانت أربعة آلاف درهم؛ وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله. وجاء العباس بمال كثير. وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال كثير. وجاء عاصم بن عدي بتموينات للجيش؛ تسعين وسقا من التمر. وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مصاغ ومِسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم. ولم يُمسك أحدٌ يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

الجيش الاسلامي يتوجّه إلى تبوك

وهكذا تجهّز الجيش بأموال المسلمين طواعية دون إلزام إو إكراه، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلف على أهله علي بن أبي طالب، فحقد عليه المنافقون، لأجل ذلك خرج فلحق بالجيش، فردّه رسول الله إلى المدينة وقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي». ثم تحرك رسول الله يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيرا؛ ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط؛ فلم يستطع المسلمون أن يجهزوه تجهيزا كاملا؛ بل كانت في الجيش نقصا شديدا في الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلا يتعاقبون بعيرا واحدا؛ وربما أكلوا أوراق الأشجار، واضطروا إلى ذبح البعير ليشربوا ما فيه من الماء، ولذلك سمّي هذا الجيش جيش العسرة.

ديار ثمود

مرّ الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحِجر؛ وهي ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أي وادي القرى؛ فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة. وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا»، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها ناقةُ صالح عليه السلام. وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبيّ ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين**»، ثم أخفض رأسه وأسرع بالسير حتى جاوز الوادي.

نبوءة الرسول ﷺ: تبوك ستكون جنات!!

واشتدت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء؛ حتى شكوا إلى رسول الله، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجاتهم من الماء. ولما قرب من تبوك قال: «إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمسّ من مائها شيئا حتى آتي». قال معاذ: فجئنا وقد سبق إليها رجلان، فسألهما رسول الله: «هل مسستما من مائها شيئا»؟ قالا: نعم. ثم غرف من العين قليلا، ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه، ثم أعاد الماء فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: « **يُوشِكُ- يا مُعَاذُ -إنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى ما هَاهُنَا قدْ مُلِئَ جِنَانًا**». رواه مسلم عن معاذ بن جبل.

تبوك

تقع إمارة تبوك في شمال غرب السعودية؛ محاذية لبلاد الشام من الشمال؛ و لها ساحل على البحر الأحمر. كانت في عهد النبيّ ﷺ، منطقة صحراوية قليلة المياه؛ ولكن بسبب التغيّرات المناخية التي تأثرت بها المنطقة والكرة الارضية بشكل عام؛ زادت فيها نسبة هطول الأمطار والثلوج؛ وأصبحت من أهم موارد المياه في بلاد الحجاز، كما أصبحت تُعتبر من أهمّ المناطق الزراعية؛ تُصدّر القمح والمحاصيل الأخرى، وقد تمّ تأسيس شركة تبوك للتنمية الزراعية (تادكوا) العملاقة؛ وهي أكبر شركة زراعية بالشرق الأوسط؛ متخصصة في

إنتاج أنواع الحبوب والفواكه والخضار، كما يوجد اليوم في تبوك شركة(أسترا) بمساحة ٣٥ كم٢؛ تُنتج أنواع الزهور كالورد الجوري والقرنفل والأقحوان، ويتم تصديرها إلى الأسواق.

هل هي معجزة جديدة للرسول ﷺ !؟

نعم، هذه معجزة تحققت في زماننا اليوم؛ وقد رأينا وشاهدنا في بدايات القرن الحادي والعشرين تغيرات وانقلابات مناحية في الجزيرة العربية؛ أحالت مناطق في الصحراء العربية القاحلة إلى بساتين خضراء بسبب سقوط الأمطار والثلوج فيها بازدياد!! من الواضح من خلال قراءة الحديث السابق؛ أن المنطقة كانت تشكوا من قلة المياه في عهد النبيّ ﷺ؛ لذلك منع الصحابة من مسّ الماء في عين تبوك حتى يأتي ويدعوا لهم، ولكن الأعجب ما قاله لمعاذ: « **يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا**». رواه مسلم. وحدث فعلا ما تنبأ به الرسول ﷺ؛ فقد انتشرت البساتين والمزارع الآن في تبوك وخاصة حول المدينة، وسوف تتسع هذه البساتين والمزارع أكثر في السنوات المقبلة؛ نظراً لازدياد نسبة تساقط الأمطار والثلوج التي تسببت في فيضانات ضخمة؛ لم تشهدها المنطقة في عصور طويلة سابقة!!

هبّت ريح شديدة

وفي الطريق إلى تبوك لقتال جيش الروم؛ قال رسول الله ﷺ: «تهبّ عليكم الليلة ريحٌ شديدة، فلا يَقُم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشدّ عقاله»، فهبّت ريحٌ

شديدة! فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بين جبلين! وكان دأبُ رسول الله ﷺ في الطريق؛ أنه كان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء؛ جمع التقديم وجمع التأخير كليهما.

الرومان أخذهم الرعب!!

نزل الجيش الإسلامي بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحضّ على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر، وبشّر وأَبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة. وأما الرومان وحلفاؤهم؛ فلما سمعوا بزحف الجيش الإسلامي أخذهم الرعب؛ فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرّقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية في داخل الجزيرة وأرجائها النائية؛ وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

كتاب صلح مع (يوحنا بن روبا)

على إثر هذه المكاسب السياسية؛ جاء (يوحنا بن روبا) صاحب أيلة (جنوب الأردن على البحر الأحمر)، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل بعض قبائل الشام فأعطوه الجزية، وكتب لصاحب أيلة: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبيّ رسول الله ل(يُحنّة بن روبة) وأهل أيلة، سفنهم

وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبيّ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيّب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر».

إنك ستجده يصيد البقر

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكيدر بن عبد الملك زعيم دومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارسا، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فاتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت البقر، تحكّ بقرونها باب القصر، فخرج أُكيدر لصيدها وكانت ليلة مقمرة؛ فتلقاه خالد، فأخذه وجاء إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية. وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حدّ كبير.

محافظة دومة الجندل: هي إحدى محافظات منطقة الجوف شمال السعودية.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك لم يُقاتلوا ولم ينالوا كيدا، وكفى الله المؤمنين القتال. وفي الطريق حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين في الجيش الإسلامي الفتك بالنبيّ ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمرّ بالطريق؛ كان معه عمّار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول

الله وصاحباه يسيران إذْ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة وراءهم فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأَخبر رسول الله بأسمائهم وبما همّوا به حذيفة بن اليمان، فلذلك كان حذيفة يُسمى بصاحب سرّ رسول الله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

استغرقت هذه الغزوة خمسين يوما

ولما لاحت للنبيّ ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: هذا أُحُد؛ جبل يحبّنا ونحبّه، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان في لقاء الجيش بحفاوة بالغة. وكان خروجه إلى تبوك في رجب ورجوعه إلى المدينة في رمضان، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما. أقام منها عشرين يوما في تبوك. والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهابا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته.

رجال تخلّفوا عن هذه الغزوة

كانت هذه الغزوة لظروفها الخاصة اختبارا شديدا من الله تعالى للمسلمين، امتازوا به من غيرهم، حيث يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم: دعوه، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبا، أو قعدوا ولم يستأذنوا. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا ولم يستأذنوا. وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

توبة الله تعالى عن الثلاثة

لما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون؛ وكانوا بضعة وثمانون رجلا؛ فجاؤوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين؛ وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية؛ فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة، وجرت ضدهم مقاطعة شديدة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أُمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]. وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة، فبُشِّروا وأبشَروا واستبشَروا وتصدّقوا، حتى كان أسعد يوم من أيام حياتهم.

أصحاب الأعذار

وأما الذين حبسهم العذر؛ فقد قال تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة: **«لقد تركْتُمْ بالمدينةِ أقوامًا ما سرتُمْ مسيرًا ولا أنفقتُمْ من نفقةٍ ولا قطعتُمْ من وادٍ إلّا وَهُم معكُم؛ قالوا: يا رسولَ اللهِ وَكَيفَ يَكونونَ معَنا وَهُم بالمدينةِ؟ قالَ: حبسَهُمُ المرضُ»**. إسناده صحيح، أخرجه البخاري.

أثر الغزوة

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنيات كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع الذي لم يجدوا عنه محيدا ولا مناصا.

موقف آخر للمسلمين تجاه المنافقين

لم يبق للمنافقين بعد ذلك أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبورهم، وأمر بهدم وكر دسائهم وتآمرهم التي بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحا تاما، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء، كأنّ الآيات قد نصّت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة. ويُعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب؛ وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله بعد غزوة فتح مكة؛ بل وما قبلها، إلا أنّ تَتَابُعَ الوفود وتكاثُرَها بلغ إلى الذروة بعد هذه الغزوة.

نزول القرآن في موضوع الغزوة

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج؛ وهو في السفر؛ وبعضٌ آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة، وقد

اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضْح المنافقين، وفضْل المجاهدين والمخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين؛ الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور.

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاء تاما، عرفت العرب لأجلها الحق، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام. كما أن الدلائل تشير إلى مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود الكثيرة من قبائل العرب تقصد المدينة في هذين العامين؛ التاسع والعاشر؛ ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجا، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام واحد، ثم نرى في حجة الوداع بحرا من رجال الإسلام؛ مائة ألف من الناس؛ وقيل: مائة وأربعة وأربعون ألفا؛ يموجون حول رسول الله بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوّي له الآفاق، وترتجّ له الأرجاء.

وفود القبائل

هذه الوفود التي سردها المؤرخون يزيد عددها على سبعين وفدا، نذكر منها إجمالا ماله روعة أو أهمية في التاريخ: وفد قبيلة عبد القيس، كان رجل منهم يقال له منقذ

بن حيان، يَرِدُ المدينة بالتجارة، فلما علم بالإسلام أسلم، وذهب إلى قومه فأسلموا، وكان كبيرهم (الأشج) الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن فيك خصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة.

وفد قبيلة دوس

قدم المدينة في أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، كبيرهم إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، أسلم ورسول الله بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام دون فائدة، حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول الله فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: اللهم اهد دوسا. فأسلموا جميعا.

فروة بني عمرو الجذامي

كان فروة قائدا عربيا من قادة الرومان، عاملا لهم على من يليهم من العرب، وكان مَنزِلُهُ في معان(جنوب الأردن) وما حوله من أرض الشام، أسلم بعدما رأى من قوة المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ. ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيّروه بين الردّة أو الموت، فاختار الموت، فصلبوه بفلسطين ثم قتلوه.

وفد قبيلة صداء

جاء هذا الوفد إلى رسول الله سنة ٨ هـ. وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثا من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها قبيلة صداء، فلما وصل الجيش

الإسلامي لقيه أحد قادتهم يُدعى زياد بن الحارث الصدائي، فقال: ردّوا الجيش، فردّوه، وجاء الصدائي إلى كبار قومه وأمرهم بالتوجّه إلى رسول الله، فقدم عليه خمسة عشر رجلا، وبايعوه على الإسلام.

كعب بن زهير

كان من أشعر العرب، وكان يهجو النبيّ ﷺ، فلما انصرف رسول الله من غزوة الطائف سنة ٨ هـ، كتب أخوه إليه بأن الرسول قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه. وقال له: اذهبْ إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإلا فانجُ واهرب كما هربوا. أشفق كعب على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل في جهينة، وصلى معه الصبح، فاستاقه الجهنيّ إلى رسول الله حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله لا يعرفه فقال: يا رسول الله. إن كعب بن زهير، قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال ﷺ: «نعم». قال: أنا كعب بن زهير. فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: «دعه عنك، فإنه قد جاء تائبا». وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة؛ وهو يعتذر إلى رسول الله ويمدحه. ثم مدح المهاجرين من قريش.

وفد بني عذرة

قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ. هم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن النعمان. قال متكلمهم حين سُئلوا من القوم: نحن بنو عذرة، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبيّ ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أياما في المدينة ثم رجعوا.

وفد (بلي)

قدم هذا الوفد في ربيع الأول سنة ٩ هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثا، وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة»، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: «ثلاثة أيام»، وسأل عن ضالة الغنم فقال: «هي لك أو لأخيك أو للذئب»، وسأل عن ضالة البعير، فقال: «ما لك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه».

وفد ثقيف

كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩ هـ. بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك. وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام؛ وهو يظن أنهم يطيعونه؛ لأنه كان سيدا مطاعا في قومه، فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهرا، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا.

ثمّ ماذا حدث؟

أجمعوا أن يرسلوا رجلا إلى رسول الله ﷺ، فكلموا هذا الرجل وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة، واشترط بأن يرسلوا معه رجالا، فأرسلوا معه ستة؛ فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان أصغرهم سنا.

فلما قدموا على رسول الله أجلسهم في ناحية المسجد لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وهو يدعوهم إلى الإسلام.

طلبوا أن يأذن لهم بالزني وشرب الخمر!!

اشترط رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف؛ يأذن لهم فيها بالزنى وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم أكبر أصنامهم، وأن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله أن يقبل شيئا من ذلك، فتشاوروا، فلم يجدوا محيصا عن الاستسلام لرسول الله، فاستسلموا وأسلموا.

ثم ماذا اشترطوا؟

اشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفا لا يهدمونها بأيديهم أبدا؛ فقبل ذلك، وكتب لهم كتابا، وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، لأنه كان أحرصهم على الإسلام وتعلم الدين والقرآن؛ وكان فيما بعد من أعظم الناس نصحا لقومه في زمن الردّة، فإن ثقيفا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف؛ كنتم آخر الناس إسلاما، فلا تكونوا أول الناس ردّة، فامتنعوا على الردة، وثبتوا على الإسلام.

كتموا الحقيقة!!

لما رجع الوفد إلى قومهم كتموهم الحقيقة، وخوفوهم بالحرب والقتال، وأظهروا الحزن والكآبة، وأن رسول الله سألهم الإسلام وترك الزنى والخمر والربا وغيرها؛ وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيف نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون

القتال، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إلى محمد فأعطوه ما سأل، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

ملوك اليمن

بعد مرجع النبيّ ﷺ من تبوك، قَدم كتابُ ملوك حمير، وهم الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، وهمدان ومعافر، ورسولهم إلى النبيّ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله كتابا بيّن فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أَعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجالا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل.

وفد هَمَدان

قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجع النبيّ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمّر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل(يتبَعَ) خالدا، فجاء عليّ إلى همدان، وقرأ عليهم كتابا من رسول الله، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا، وكتب عليّ ببشارة إسلامهم إلى رسول الله، فلما قرأ الكتاب خرّ ساجدا، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان، السلام على همدان.

أقطَعَهُم: المقطّع من الثياب، كل ما يُفصّل ويُخاط من ثياب، لأنها قُطعت تفصيلا لتتلاءم مع أجسادهم.

وفد بني فزارة

قَدِمَ هذا الوفد سنة ٩ هـ، بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلا جاؤوا مقرّين بالإسلام، وَشَكَوا جَدْب بلادهم، فصعد رسول الله المنبر، فرفع يديه واستسقى لهم، وقال: اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشُر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريحا واسعا، عاجلا، غير آجل، نافعا غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء.

وفد نصارى نَجْران

نَجْران: بلد كبير يقع في جنوب غرب السعودية بالقرب من الحدود اليمنية، كان هذا البلد يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، وبها مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية. وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ، وقوام الوفد ستون رجلا، منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح. والثاني لقبه السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ماذا سألهم وسألوه؟

لما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبيّ ﷺ؛ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ

بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١]. فلما أصبح رسول الله أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقرّوا بما قال في عيسى.

دعاهم رسول الله إلى المباهلة

فلما أصبحوا وقد أَبَوْا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأَبَوْا عن الإسلام؛ دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل يمشي معه الحسن والحسين، وفاطمة تمشي وراء ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خَلَوْا وتشاوروا، فقال كل منهم للآخر: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنَنَا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك.

ثم ماذا حدث؟

ثم بعد ذلك، اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاؤوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة من الذهب، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتابا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلا أمينا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح. ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن اثنين منهم: القائد والراهب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبيّ بعث إليهم عليّا ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم؛ صدقاتهم ممن أسلم، وجزيتهم ممن بقي على دينه.

وفد بني حنيفة

كانت وفادتهم سنة ٩ هـ. وكانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة الكذاب من بني حنيفة؛ نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار، ثم جاؤوا إلى النبيّ ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد التأمل أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله، وأن النبيّ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعا استعدّ له.

إني لأراك الذي أُريتُ

وكان النبيّ ﷺ قد رأى قبل ذلك في المنام أنه أُتي بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبُرا عليه وأهمّاه، فأوحى إليه أن انفُخْهُما، فنفخهما، فذهبا، فأَوَّلَهُما بأنهما كذّابَين يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف؛ قال له رسول الله: لئن أدبرت ليعقرنّك الله، والله إني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت.

أحلّ لقومه الزنا والخمر!!

وأخيرا وقع ما تفرّس فيه النبيّ ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره، حتى إنه ادّعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحلّ لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله أنه نبيّ، وافتتن به قومه فتبعوه، حتى تفاقم أمره، فكان يُقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم. وكتب إلى رسول الله كتابا قال فيه: إني أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عليه

رسول الله بكتاب قال فيه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

قالا: نشهد أن مُسيلمة رسول الله!!

وعن ابن مسعود قال: جاء ابن النواحة، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبيّ ﷺ، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبيّ ﷺ: آمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما. كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقد قُتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. في ربيع الأول سنة ١٢ هـ، قتله وحشي قاتل حمزة.

المتنبىء الثاني

وأما المتنبىء الثاني، فهو الأسود العنسي الذي كان باليمن، قتله فيروز، واحتزّ رأسه قبل وفاة النبيّ ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحيُ فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه.

وفد بني عامر بن صعصعة

كان فيهم عامر بن الطفيل عدوّ الله؛ وأَربد بن قيس وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدُم المدينة تآمر عامر وأَربد، واتفقا على الفتك بالنبيّ ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبيّ، ودار أربد خلفه، واخترط سيفه شبرا، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سَلِّه، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبيّ ﷺ، فلما

رجعا أرسل الله على أَربد وجملِهِ صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة، فأُصيب بمرض خطير فمات.

(وَفْد) تجيب

هم (وَفْد) من قبائل العرب من كندة؛ قدموا سنة تسع بصدقات قومهم مما فَضُل عن فقرائهم؛ وكان الوفد ثلاثة عشر رجلا، وكانوا يسألون عن القرآن والأحكام يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله بعثوا إليه غلاما كانوا خلفوه في رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما جاء بي من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، فكان أقنع الناس، وثبت على الإسلام، وذكّر قومه؛ ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبيّ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠ هـ.

وفد طيء (زيد الخير)

قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلما كلموا النبيّ ﷺ وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: «ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل؛ فإنه لم يبلغ كل ما فيه»، وسماه زيد الخير.

المدينة عاصمة لجزيرة العرب

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة، وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود في سنتي تسع وعشر، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ. وتتابُعُ هذه الوفود يدلّ على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء

جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصا عن الاستسلام أمامها ثم الدخول في الإسلام، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها.

هل تمكّن الإسلام من نفوس هؤلاء؟!

لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء جميعا؛ لأنه كان من بينهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعا لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلُصت بعدُ مما تأصّل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذّبت أنفسهم تمام التهذيب، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧-٩٨]. وأثنى على آخرين منهم وقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩] أما كثيرون من مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين؛ والبلاد والقبائل الأخرى في أنحاء الجزيرة العربية، فقد كان الإسلام فيهم قويا.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفا خفيا انبعث في قلب رسول الله يُشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة ١٠ هـ قال له فيما قال: يا معاذ، إنك

عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ لفراق رسول الله.

حجّ مشهود وبَشَرٌ كثير

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته التي عانى في سبيلها ألوانا من المتاعب بضعا وعشرين عاما، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة. أعلن النبيّ التوجّه لهذا الحجّ المشهود، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير، كلهم ينتظر أن يأتمّ برسول الله. أحرم من ذي الحليفة، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل، وقد قضى في الطريق ثمان ليال، فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، ثم صلى ركعتين وسعى، ولم يحلّ، لأنه كان قارنا.

مائة وأربعة وأربعون ألفا

ثم أقام في مكة حتى اليوم الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية. فلما زالت الشمس توجه إلى منى فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء؛ وبات فيها، ثم صلى الفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، ثم أتى عرفة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء (ناقته) فرحلت به، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وأربعون ألفا من الناس، فقام فيهم خطيبا، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع

قال رسولُ الله ﷺ: «أيُّها الناسُ اسْمَعُوا قَوْلِي فإني لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بعدَ يومِي هذا في هذا المَوْقِفِ، أيُّها الناسُ، إِنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ حرامٌ إلى يومِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ

كَحُرْمَةِ يومِكُمْ هذا في شهرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا، وإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عن أَعْمالِكُمْ، وقَدِ بَلَّغْتُ، فمَنْ كان عندَهُ أَمانَةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَنِ ائْتَمَنَهُ عليْها، وإِنَّ كلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ ولَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ، قَضَى اللهُ أَنْ لا ربًا، وإِنَّ رِبا عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كلُّهُ، وإِنَّ كلَّ دَمٍ كان في الجاهليةِ مَوْضُوعٌ، وإِنَّ أولَ دمائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابنِ رَبيعَةَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كان مُسْتَرْضَعًا في بَنِي لَيْثٍ فقتلَتْهُ هذيلٌ؛ فهوَ أولُ ما أبدأُ بِهِ من دِماءِ الجاهليةِ».

احْذَرُوهُ أيُّها الناسُ!!

ثمّ قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أما بَعْدُ أيُّها الناسُ فإنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ أنْ يُعْبَدَ بِأرضِكُمْ ولَكِنَّهُ إنْ يطعَ فيما سِوَى ذلكَ مِمَّا تُحَقِّرُونَ من أَعْمالِكُمْ فقد رضيَ بِهِ فَاحْذَرُوهُ أيُّها الناسُ على دِينِكُمْ، وإنَّ النَّسِيء زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا... وإنَّ الزَّمانَ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِه يومَ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ، وإنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثْنا عشرَ شهرًا مِنها أربعةٌ حُرُمٌ، ثَلاثٌ مُتَوَالِياتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والْمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بيْنَ جُمادَى وشَعْبانَ».

ألا هل بَلَّغْتُ؟

ثمّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أيُّ شَهْرٍ هذا؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: أليسَ ذُو الحِجَّةِ؟ قُلْنا: بَلَى، قالَ: فأيُّ بَلَدٍ هذا؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: أليسَ البَلْدَةَ؟ قُلْنا: بَلَى، قالَ: فأيُّ يومٍ هذا؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ،

قالَ: أليسَ يومَ النَّحرِ؟ قُلْنا: بَلَى، قالَ: فإنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ -قالَ مُحَمَّدٌ: وأَحْسِبُهُ قالَ- وأَعْراضَكُمْ علَيْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عن أعْمالِكُمْ، ألَا فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ؛ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَن يُبَلَّغُهُ أنْ يَكونَ أوْعَى له مِن بَعْضِ مَن سَمِعَهُ، ثُمَّ قالَ: ألَا هلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ». صحيح البخاري.

ليس بعد الكمال إلا النقصان

وكان الذي يُسمع الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة؛ ويوصل الصوت للجماهير الغفيرة الممتدة إلى مسافات طويلة؛ هو ربيعة بن أمية بن خلف. وبعد أن فرغ النبيّ ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. وعندما سمعها عمر بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

مواجهة غطرسة الروم

كان كبرياء دولة الروم قد جعلها تأبى حقّ الحياة، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه؛ كما فعلت بفروة الجذامي الذي كان واليًا على مَعَان؛ كان الروم قد حكموا عليه بالإعدام بسبب أنه دخل في دين الإسلام، فقتلوه وصلبوه قرب حمامات (عفرا) وهي تقع حاليًا في محافظة الطفيلة جنوب الأردن. ونظرا إلى هذه الغطرسة؛ أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشا كبيرا في صفر سنة ١١ هـ، وأمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأَمَرَهُ أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب

الروم؛ وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبنّ أحد أن بطش الكنيسة لا رادع له، وأن الدخول في الإسلام يجرّ على أصحابه الموت.

أخر جيش زمن الرسول ﷺ

وتكلم الناس في قائد الجيش أسامة بن زيد لحداثة سِنّه، وقد بلغ من العمر حينها (١٨) عاما، وكان منذ سن العاشرة من عمره حريصا على المشاركة في غزوات المسلمين. فقال رسول الله ﷺ: إن تطعنوا في إمارته؛ وأيمُ الله إن كان لخليقا للإمارة، ومِن أحبّ الناس إليّ. هنا بدأ الناس يلتفّون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا نحو فرسخ من المدينة (نحو ٦ كيلوا مترا)، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله أكرهتهم على التريّث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا آخر جيش للمسلمين في حياة الرسول؛ وأول بعث يُنَفّذ في خلافة أبي بكر الصديق.

رسول الله إلى الرفيق الأعلى

في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ؛ كان يوم الإثنين؛ أصاب رسولَ الله صداعٌ في رأسه، وارتفعت الحرارة، وقد صلى النبيّ ﷺ بالناس وهو مريض فترة (١١) يوما، وجميع أيام المرض كانت من (١٣-١٤) يوما. وثقل برسول الله المرض، فانتقل إلى بيت عائشة عاصبا رأسه؛ فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

أخر يوم من الحياة

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينما كانوا في صلاة الفجر يوم الإثنين؛ وأبو بكر يصلي بهم؛ فجأهم رسول الله ﷺ وهو يكشف ستر حجرة عائشة ينظر إليهم، وهم

في صفوف الصلاة، ثم تبسّم يضحك، فتراجع أبو بكر للصف الأول؛ ظنّ أن رسول الله يريد أن يصلي إماما بالناس، فأشار الرسول إليه بيده أن أتمّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة. ثم لم يأت على رسول الله بعدها صلاة أخرى.

ثم ماذا حدث؟!

صار الوجع يشتدّ ويزيد على رسول الله، وقد ظهر أثر السمّ الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: «يا عائشة، ما أزال أجدُ ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».

الاحتضار ولِقاءِ اللّه عزّوجلّ

بدأ الاحتضار للموت ينتاب الرسول ﷺ؛ فأسندته عائشة إليها، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: **«لا إله إلا الله، إنَّ للمَوْتِ سَكَرَات»**. وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: **«مع الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقًا»**. وفي رِوايَةِ أحْمَدَ قال: « **بلِ الرَّفيقَ الأعْلى»**. كرر الكلمة الأخيرة ثلاثا، هنا قالت عائِشَةُ رضِيَ اللهُ عنها: "فعَلِمْتُ أنَّه خُيِّرَ"، أي: بين البَقاءِ في الدُّنيا، وما عندَ اللهِ في الأُخْرى من لِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ كما خُيِّرَ الأنْبياءُ السَّابِقونَ، وما عدا أن فرغ من كلامه حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، ومالت يدُه ولحق بالرفيق الأعلى. وقع هذا الحادث حين اشتدّ وقت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ. وقد تمّ له ثلاث وستون سنة وأربعة أيام. خلاصة حكم المحدث:صحيح.

تفاقُمُ الأحزان في المدينة

تسرّب النبأ الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقُها. قال أنس: ما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ المدينة، وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله.

موقف عمر بن الخطاب

وقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإن رسول الله ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم؛ والله ليرجعنّ رسولُ الله، فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!!

موقف أبي بكر

أقبل أبو بكر على فرس حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتوجّه إلى رسول الله وهو مُغَشّى بثوب، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبله وبكى، ثم خرج أبو بكر، وكان عمر ما زال يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت. قال الله: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمرن: ١٤٤]. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها. قال عمر: والله ما

هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمت أن النبيّ ﷺ قد مات.

تجهيز الرسول ﷺ وتوديع الجسد الشريف

وقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيرا اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء- مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه، مغشى بثوب، قد أُغلق دونه الباب. ويوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله من غير أن يجرّدوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وابناه، وعليا، وأسامة بن زيد، وغيرهم. ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض.

مكان الدفن

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قُبض نبيّ إلا دُفن حيث مات، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدا. ودخل الناس الحجرة جماعات عشرة عشرة، يصلون على رسول الله ولا يؤمّهم أحد، وصلى عليه أولا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان. ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملا، حتى دخلت ليلة الأربعاء.

ماذا قالوا عن محمد ﷺ؟

ذكر مؤرخون معاصرون ما كتب نابليون في بعض أوراقه عن الإسلام ورسوله قائلاً: الذي يبهر في الإسلام أنه استطاع في عشر سنين أن يسيطر على نصف الكون، لقد دمّر الآلهة المزعومة، ودعا إلى الإيمان بإله واحد، نبيّ الإسلام كان رجلاً عظيماً، وجندياً شجاعاً، وقائداً كبيراً، وخطيباً مفوهاً، ورجل دولة، خلق في وسط الجزيرة العربية شعباً جديداً وسلطة جديدة. بل أجمع المؤرخون على إعجاب نابليون بهذا النبيّ، كما صرّح هو نفسه في أكثر من وثيقة. وكان قد عُثر من بين كتب هذا القائد الفرنسي فيما بعد، على ما يؤكد اهتمامه بقراءة تاريخ العرب وسيرة حياة النبيّ محمد ﷺ. ذكر المؤرخ الفرنسي فرانسوا شارل في دراسة بعنوان: السياسية الإسلامية لبونابرت، نشرتها مجلة (الدراسات النابليونية) العدد ٢٤ بتاريخ ١٩٢٥: إن محمدا يثير إعجاب نابليون كمؤسس ديني، وقائد لشعوب ومشرّع، إن تاريخ النبيّ محمد كانا قد أثار اهتمامه منذ زمن بعيد، وقرأ القرآن، وكان يحتفظ بنسخة منه في مكتبه.

راجع افتتاحية صحيفة القدس العربي الصادرة في لندن يوم ١٩/ يناير/ ٢٠١٩م.

كان يُصغي الإناء للهرّة

وقد اتسع عطفه ﷺ على من حوله من بني الإنسان، حتى شمل عطفه الحيوانات، فكان يُصغي الإناء للهرّة لتشرب، وكان يواسي في موت طائر يلهو به خادمه، وأوصى المسلمين: **«إذا ركبتم هذه الدوابّ فأعطوها حظّها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين»**. وكرر الوصاة بها أن: **«اتَّقوا اللهَ في البهائمِ المُعْجَمَةِ، فارْكبوها صالحةً، وكُلوها صالحةً»**. صحيح الجامع. وقال: **«دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، ولَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِن خَشَاشِ الأرْضِ»**. صحيح البخاري.

ذوق سليم

كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه؛ لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه. وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ليسلّم عليه؛ ناوله إياها، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وكان أرحم الناس بالصبيان والأطفال الصغار، وكان أشدّ حياء من العذراء في خدرها، وأصبر الناس على أذى الناس وأقذارهم. يحفظ أسرارهم وخصوصياتهم؛ كما يحفظ محضرهم، ويقول لأصحابه: من اطّلع في كتاب (رسالة) أخيه بغير أمره فكأنما اطّلع في النار.

نظافة بالغة وأمانة عالية

ومع هذه العاطفة الإنسانية والذوق السليم والأدب الكريم؛ سَمْتٌ جميلٌ ونظافة بالغة، وحِرْصٌ على أن يراه الناس في أجمل مظهر وأبهى منظر. ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو؛ فما بال الصديق؟ وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة من داره في مكة وهو مهدد في فراشه منهم؛ حتى رَدّ الأمانات لهم، وقد يكون في ذلك ما ينبّههم إلى خروجه ويقطع عليه سبيل النجاة. هذا إلى اشتهاره بالأمانة في صباه حتى سُمّي بالأمين قبل أن يتجرّد لدعوة تنبغي لداعيها أمثال هذه الصفات.

مولاه (زيد) ومولاه (ثوبان)

زيد بن حارثة الذي خُطف من أهله وهو طفل صغير، وبيع في سوق الرقيق، ثمّ اهتدى إليه أبوه وهو رجل شابّ يخدم الرسول محمد ﷺ. فلما وجب أن يختار بين

الرجعة إلى أهله وبين البقاء مع سَيِّده محمد؛ اختار البقاء مع سيّده. ولما ضعُف مولاه ثوبان ونحُل جسمُه وألحّ عليه الحزن في ليله ونهاره، فلما سأله النبيّ يستفسر عن حاله؛ قال ثوبان في طهارة الأبرار: «إني إذا لم أرك اشتقتُك واستوحشتُ وحشة عظيمة، فذكرتُ الآخرة حيث لا أراك هناك؛ لأني إن دخلتَ الجنة؛ فأنت تكون في درجات النبيّين فلا أراك» ورُويتْ هذه القصة في أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

أحاطت به نخبة من ذوي الجاه

عطف الرجل العظيم على الرجل الضعيف، والإنسان الكبير على الصغير، هذا أمر مألوف في نظر بني الإنسان في مختلف العصور. لكن؛ استحقاق العظيم أن يحبّه العظماء والأشراف؛ هذا أمر غير مألوف دائما في مجتمع سادت فيه السيطرة المادية على العواطف ومعاني الروح. ومن هنا؛ تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوي الصداقات النادرة، فأحاطت به نخبة من ذوي الجاه؛ تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة، وعظمة الرأي وعظمة الهمّة، وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة، كما أثبت التاريخ من سِيَر أبي بكر، وعمر، وعثمان وعليّ، وخالد، وأسامة، وابن العاص، والزبير، وطلحة، وسائر الصحابة الأولين، من أسياد مكة وأكابر قبائل قريش والعرب؛ من النابغين في كل المزايا؛ منهم القادة العسكريون، والقادة السياسيون، وقادة الفكر، وقادة مجتمع، أعظم ما أحاط الحكماء بسقراط، وأعظم ما أحاط القادة بنابليون. بل وأعظم ما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام.

إنها عظَمَةُ العَظَمات

تلك التي تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل فئات المجتمع؛ قادة أقوياء في كل شيء، رغم التفاوت بينهم في مزايا كثيرة، إلا أنهم اجتمعوا حول رجل واحد كأنهم جسد واحد، يأتمرون بأمره في كل شيء، كلهم رجال عظماء، وكلهم يأتمرون بأمر رجل عظيم، هذا الرجل يأتمر بأمر أعظم؛ إنه أمر الله في السماء. تلك هي عظمة العظمات التي اتسعت آفاقها حتى شملت كل نواحي الكون. وتلك هي المعجزة التي استحقها محمد بامتياز.

صداقة إنسانية شاملة

كان محمد ﷺ يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم؛ كما قال عن أبي بكر: «ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر؛ واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته»، وكما قال عن أبي بكر وعمر: «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر»، وكما قال عن عليّ: «عليّ أخي في الدنيا والآخرة»، وكما قال عن بعض أصحابه: «إن الله تعالى أمرني بحبّ أربعة وأخبرني أنه يحبّهم: عليٌّ منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان»، وكما قال عن الأنصار جميعًا وهو في مرض الموت: «استوصوا بالأنصار خيرًا». وغير ذلك كثير من الصحابة مذكورين بأسمائهم. هذا عدا الصديق الإنساني الشامل في معاملته لأعدائه؛ فما ثأر النبيّ ﷺ من أحد لأنه أساء إليه في شخصه، وقد عفا عن رجل همّ بقتله وهو نائم، ورفع السيف ليهوي به، فسقط من يده على كره منه، وما حارب أحدًا قط؛ كان في وسعه أن يسالمه ويتّقي شرّه.

رأس النفاق

هذا عبد الله بن أُبيٍّ بن أبي سلول الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق؛ مثل من أمثلة الإغضاء والصفح الجميل، فقد عاهد وغدر، ثم عاهد وغدر، وعاش ما عاش يكيد للنبيّ في سرّه ويمالئ عليه أعداءه، وشاع أن النبيّ أمر بقتله، فتقدم ابنه وقال له: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أَبي، فإن كنت فاعلًا فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله؛ فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله؛ فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر فأدخل النار». فأبى النبيّ أن يقتله، فكافأ الابن خير مكافأة على إخلاص نيته لدينه، فأعطاه قميصه الطاهر يكفّن به أباه حينما مات، وصلى عليه الجنازة ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه، واستغفر له! وقد حاول عمرُ أن يُثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذي آذاه أكثر الإيذاء؛ فذكر الآية: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. فقال ﷺ: **«لو أعْلَمُ أَنِّي إنْ زِدْتُ علَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ له لَزِدْتُ عَلَيْهَا»**. صحيح البخاري.

ما أعجب اتهامه بالقسوة!

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة؛ ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوروبيين! ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها اتهمت أناسًا كما يتهم القاضي مجرمًا وهو من أرحم الرحماء؟ ما أعجبهم إذ يفرضون العقوبة دونما

ذنب!! وأي ذنب؟ لا نذكر استهزاء المشركين به وإلقاءهم عليه الأوساخ والحجارة، وتآمرهم على قتله، وتأمرهم على إخراجه وإخراج أصحابه من ديارهم من مكة قهرا إلى أقصى الديار، هذا العناد وهذه الإغاظة والاستثارة لغير سبب إلا أنهم دعوا إلى عبادة الله وترك الرذيلة.

ماذا لو كان هؤلاء مبشّرين بالدين المسيحي !؟

حادثٌ واحدٌ تجمّع فيه من اللؤم الكثير؛ حادث السبعين الذين قُتلوا في بئر معونة، ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا استجابة لدعوة الداعين لِيُعلِّموهم القرآن؛ فلما وصلوا غدروا بهم وأحاطوا بهم وقتلوهم بدم بارد! فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء السبعون مبشّرين بالدين المسيحي!؟ ولم يكن هذا بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالنبيّ والمسلمين.

يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه

لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر، ومع ذلك كان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه؛ فرُوي أنه كان في سفر، وأمر أصحابه بذبح شاة. فقال رجل: يا رسول الله! عليَّ ذبحها، وقال آخر: وعليَّ سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال ﷺ: وعليَّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل. قال: علمتُ أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميّز عليكم، إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه. وأبى أيضا، والمسلمون يعملون في حفر الخندق حول المدينة، إلا أن يعمل معهم بيديه، وجعل قضاء حوائج الناس أمانًا من عذاب الله، أو كما قال: إنَّ للهِ

تعالى عبادًا اخْتَصَّهُم بحَوائِجِ الناسِ، يَفْزَعُ الناسُ إليهِم في حَوَائِجِهِم، أولئكَ الآمِنُونَ من عذابِ اللهِ.

القاضي يحكم بالظاهر

كان ﷺ أعلم الناس أن الأعمال بالنيّات؛ ولكنه وكّل الضمائر إلى أصحابها وإلى الله، سَمِعَ النبيّ ﷺ صَوْتَ خِصَامٍ عِنْدَ بَابِهِ، فَخَرَجَ عليهم فَقالَ: **«إنَّما أنَا بَشَرٌ، وإنَّه يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أنْ يَكونَ أبْلَغَ مِن بَعْضٍ، أقْضِي له بذلكَ وأَحْسِبُ أنَّه صَادِقٌ، فمَن قَضَيْتُ له بحَقِّ مُسْلِمٍ فإنَّما هي قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أوْ لِيَدَعْهَا»**.

صحيح البخاري.

يحسبونه كشفًا جديدا!؟

واليوم يكثر المتفلسفون بحرية الفكر؛ ويحسبونها كشفًا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها، ويعترضون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا؛ ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف القانون والشرائع. فهذا الذي يحسبونه كشفًا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبيّ ﷺ قبل مئات السنين، وشرعه لأمته في أحاديثه؛ حيث قال: **« إنَّ اللَّهَ تَجاوَزَ لِأُمَّتي عَمَّا وسْوَسَتْ، أوْ حَدَّثَتْ به أنْفُسَها، ما لَمْ تَعْمَلْ به أوْ تَكَلَّمْ»**. صحيح البخاري.

الرحمة فوق العدل

زعموا كذلك - النقّاد الأوروبيون- أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق القوانين؛ هو دعوة من دعوات المصلحين في المحاكم المعاصرة اليوم؛ لم يسبقهم إليها أحد، وهي في الأصل دعوة النبيّ العربي التي كررها مرارا ولم يَدْعُ قط إلى غيرها، فقال ﷺ: **«إنَّ**

اللهَّ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ». صحيح البخاري. وقال: « **يا عائِشَةُ إنَّ اللهَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي علَى الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي علَى العُنْفِ، وما لا يُعْطِي علَى ما سِواهُ».** صحيح مسلم. وقال: « **إنَّ اللهَّ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا».** صحيح مسلم. وروى عنه عدد من أصحابه؛أنه ما خُيِّر بين حُكمين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن فيه خرق للدين.

الوصية بالضعفاء

وكان يوصي بالضعفاء، ويقول لصحبه: **«ابغُوني الضُّعفاءَ، فإنَّما تُرزَقونَ وتُنصَرونَ بضعفائِكم».** إسناده حسن. وكان يذمّ الترفّع على الخدم والفقراء، فما استكبر يوما أن يأكل مع خادمه، أو يركب الحمار بالأسواق، أو اعتقل (ربط) الشاة فحلبها. لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير، وهو القائل: « **منْ لمْ يرحمْ صغيرَنَا، ويعرفْ حقَّ كبيرِنَا، فليسَ منَّا».** الجامع الصغير. صحيح. إذْ ليس الإنصاف حرامًا على كبار السن حلالًا على الصغار، فلكل حق، ولكل إنصاف، وإنزال الناس منازلهم، هو خير شعار تنعكس أمور الأمم بانعكاسه.

توجيهات إنسانية

كان النبيّ القائد الرئيس يعلم أن القيادة والرئاسة لجميع الأفراد والجماعات في الأمة، وليست للموافقين منهم دون المخالفين، فيأمر قومه أن: **«اتَّقوا دعوةَ المظلومِ، فإنها تَصعدُ إلى السماءِ كأنها شرارةٌ».** صحيح الجامع. وفي زيادة: وإنْ كان كافرًا. وإذا قال هذا نبيّ؛ فإنها لأَولى التوجيهات أن يتّبعها الرؤساء كافة.

المرأة قبل رسالة الإسلام وبعدها

الكلام عن الزوجة عند الزوج في الأسرة؛ يستدعي الكلام عن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة في المجتمع الإنساني. وإنما تعرف عموما مكانة المرأة التي وصلت إليها بفضل محمد ودينه، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره وبعد عصره بين الأمم الأخرى غير الأمة العربية. وثمة قياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة قبل محمد وما صارت إليه بعد رسالة محمد.

وصمة عار!!

كانت النساء متاعًا يُورَّث ويُقسم تقسيم الأثاث والسلع بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام صاحبة حق بنص قانون نزل من السماء، ترث وتورِّث؛ ولا يمنعها الزوج أن تتصرف بمالها كما تشاء وهي في عصمته. وكانت قبل ذلك وصمة عار تُدفن في مهدها فرارًا من عار وجودها، أو عبئًا تُدفن في مهدها فرارًا من نفقة طعامها، ولم تكن في بلاد الروم أو الفرس بأسعد حظًّا منها في البلاد العربية.

عصر المرأة الذهبي عند الرومان!!

لا نذكر شرائع الرومان واستعبادها للنساء. ولا شرائع اليهود واحتقارها هذا المخلوق الدّوني، ولا نذكر المتغطرسين في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم إياها من الروح. وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه إنه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوروبية، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال!! فهذا العصر كان كما قال المؤرخون: عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة، وقد أجمله (جون دافيز) صاحب كتاب: «التاريخ الموجز للنساء» فقال: «إن عصر الفروسية كان معروفًا فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر. وأن

كلمة الفروسية عندهم لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل، فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة عند الرجال مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية.

الملك لطَمَها على أنفها !!

والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء؛ وإليك مثلًا على حادثة وردت في هذا الكتاب؛ يُروى فيها أن الملكة (بلانشفلور) ذهبت إلى قرينها الملك (بيبين) تسأله مساعدة، فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضبًا ولطمها على أنفها بيده؛ فسقطت منه قطرات من الدم، وصاحت تقول: «شكرًا لك. إن أرضاك هذا فأعطني من يدك لطمة أخرى حين تشاء». ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرًا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة تواجه زوجها بمشورة!!

كما تجد نفسها عُرضة للضرب!

ورد في الكتاب: لما كانت المرأة الشابة عند الرومان تُزَفُّ إلى رجل لم تره من قبل، بسبب انشغال الرجال بالحروب الدامية؛ وغيابهم فترات طويلة؛ متى وجدت هذه العروس الشابة نفسها وقعت في ملكية فارس مجنون بالحرب؛ معطل العاطفة والذكاء؛ من عوامّ الناس، تجد نفسها عُرضة للضرب كلما واجهته باعتراض، أتُرى هذه السيدة الشابة تجد لها راحة في حياة الشقاء!؟

عصر أوروبا الحديث

لقد تقدم الزمن في الغرب؛ من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها إلى بداية العصر الحديث؛ لم تبرح المرأة في منزلة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية

العربية، وقد تفضلها أحيانا منزلة المرأة في تلك الجاهلية. ففي سنة ١٧٩٠، بيعت إحدى النساء في أسواق إنجلترا؛ لأنها أثقلت تكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها! وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢ محرومة حقها الكامل في تملك العقار، وحرية رفع قضايا في المحاكم. وكان تعلُّم المرأة في المدارس والجامعات الأوروبية أمرا مرفوضا عند الرجال، فلما كانت (إليزابيث بلاكويل) تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩م، وهي أول طبيبة في العالم، كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويرفضن الكلام معها، احتقارًا لها، كأنهنّ يتحفظن من نجاسة يتَّقِين مساسها. ولما اجتهد بعضهم في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فيلادلفيا الأمريكية؛ أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تُقاطع كل طبيب يَقبل التعليم بذلك المعهد، وتُقاطع كل من يستشير أولئك الأطباء.

فماذا صنع محمد؟

حُكْمٌ واحدٌ من أحكام القرآن الكريم؛ ساوى المرأة مع الرجل في المجتمع، وأعطى المرأة من الحقوق دون فرق مع غيرها من الرجال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وأمر الزوج بإحسان معاشرتها ولو كان يكرهها؛ إن كانت قبيحة المنظر أو سيئة المزاج، مع الحثّ على الترغيب في معاشرتها وحسن معاملتها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. كما أباح لها أيضا الجهاد في الحروب، والدفاع عن نفسها وأرضها، وأهلها وشرفها، وشرف الأمّة، وأن تكسب من الغنائم كما يكسب الرجال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]. وقد جعل محمد خيار المسلمين خيارهم لنسائهم:

« **أكْملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهُم خلقًا، وخيارُكُم خيارُكُم لنسائِهِم**». حسن صحيح. وأمر بمداراة ضعفها ونقصها، قال: « **إنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لكَ علَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بهَا اسْتَمْتَعْتَ بهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا، كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا**.صحيح مسلم.

الرجل يتجمّل لامرأته

وأوجب على الرجل أن يتجمّل لامرأته؛ ويبدو لها في المنظر الذي تحبّه منه كما يحبّ منها، وإلا فإنها قد تنفر منه وتلجأ إلى رجل آخر تزني معه، كما فعلت نساء بنو إسرائيل، قال ﷺ مما قال في هذا المعنى وهو كثير: «**اغسلُوا ثيابَكُم، وخُذُوا منْ شُعورِكُمْ، واستَاكُوا، وَتزيَّنُوا، وَتَنَظَّفُوا، فإنَّ بَني إسرَائيلَ لمْ يكُونُوا يفعلُونَ ذَلك، فزَنَتْ نسَاؤهُمْ**». كما أوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يُظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور، قال: «**إذا خطبَ أحدُكمْ المرأةَ، وهوَ يخضبُ بالسوادِ فلْيعلمْها أنَّه يخضبُ**». يخضب: يعني يصبغ شعره.

مداراة خجلها الذي فُطرت عليه

وبلغ عن محمد ﷺ رعاية شعور المرأة المسلمة ومداراة خجلها الذي فُطرت عليه؛ أنه أوجب على الرجل أن يمتّعها حين ممارسة العملية الجنسية كما تمتّعه ببلوغ ذروة الشهوة؛ لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها، قال: « **إذا جَامَعَ أحدُكُمْ أَهْلَهُ فَلْيُصْدِقْهَا، فَإِذَا قَضَى حاجتَهُ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَهَا فَلَا يُعْجِلْها حتى تَقْضِيَ حَاجتَها**».

كما أمر الرسول ﷺ الزوج إذا كان عائدا من سفر ألا يفاجئ زوجته ليلا دون علمها، وذلك من أجل استعدادها لاستقباله في أجمل منظر، فقال مما قال في هذا المعنى: « **إذا**

دَخَلْتَ لَيْلًا، فلا تَدْخُلْ علَى أَهْلِكَ، حتَّى تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ، وتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ... ». صحيح البخاري. معنى: «**تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**» أي المرأة التي غاب عنها زوجها بسبب السفر أو غيره؛ تستخدم آلة حادة كالشفرة أو ما ينوب عنها اليوم مثل كريم أومعجون إزالة الشعر. ومعنى: «**وتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**» أي تمشط شعرها إن كان أشعثا منفوشا.

معاملته لزوجاته

نلخص هنا ما أوجبه النبيّ ﷺ على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم، وهي دون ما أوجبه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير. فكان حريصا أن يرينه باسما في وجوههن، ويزورهنّ جميعًا في الصباح والمساء، وإذا خلا بهنّ كان دائما ألين الناس؛ ضحّاكًا بسّامًا؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها. ولم يجعل من هيبةِ النبوّة سدًّا رادعًا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقِهِ وإيناسِه أنهنّ يخاطبْنَ رسول الله في بعض الأحيان. فكانت منهنّ من تُراجعه أو تُغاضبه ساعات نهارها، ومن تبلغ في الاجتراء عليه؛ كما سمع عمر بن الخطاب من ابنته حفصة، فيعجب ويهمّ أن يبطش بها لأنها تجترئ على زوجها رسول الله كما تجترئ الزوجات الأخريات. وإذا رأى النبيّ غضبًا كهذا، كفّ من غضب الأب، وقال له: ما لهذا دعوناك! كما أنه كان يقوم بالعمل معهنّ ومُساعدتهنّ في أعمال البيت، وكان يخدم نفسه بنفسه، ولا يصرخُ في وجوههنّ، أو يطلُب منهنّ خدمته، ويجلس معهنّ، ويأخُذ بِمشورتهنّ، ويُسامِرُهنّ، ويستمع لِحَدِيثهنّ، وهذا كُله في جميع أوقاته، وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن وهو ميل قلبه: «**اللهمَّ هذا قَسْمَي فيما أَمْلِكُ فلا تَلُمْني فيما لا أَمْلِكُ**». يعني القلب.

حديث الإفك

المعاملة الطيبة الدائمة في الزمن الطويل بين الفرد ومجتمعه؛ خلقٌ نادر بين الناس، إلا أن الخلق الذي يشقّ فهمه على الأكثرين؛ هو المعاملة الطيبة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسّها من خطر وهو المساس بالوفاء بين الزوجين. في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى؛ فلا نتوقع أن تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثّرت عن النبيّ في قصة عائشة حين اتُّهمت بالزنا، وهي أحظى نسائه لديه. دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في طلاق عائشة. فأما أسامة بن زيد فأشار على براءتها، وأما علي بن أبي طالب فأشار بطلاقها وقال: النساء سواها كثير. تلك هي القصة التي عُرفت بقصة الإفك.

ماذا قالت عائشة؟

قالت عائشة وهي تقصّ قصتها: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم، ثم جلس وتشهّد، ثم قال: يا عائشة؛ فإني قد بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله! فقال: والله ما أدري ماذا أقول!؟ فقلت لأمي: أجيبي عني. فقالت كذلك، والله ما أدري ماذا أقول!؟ قلت: إنّي والله قد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقرّ في نفوسكم وصدّقتم به، وإنّي والله ما أجدُ لي ولكم إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. قالت: فوالله ما لبث النبيّ حتى أنزل الله عليه براءتي.

ماذا أنزل الله في براءة عائشة؟

أنزل الله تعالى آيات في سورة النور للدلالة على براءة عائشة؛ وهي أحبّ زوجات الرسول إليه، وفي هذه الآيات تهديد ووعيد لمن خاض بالحديث عنها واتهامها، وأن هذا الاتهام عند الله عظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ. لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

أبشري يا عائشة!

تلقّى النبيّ ﷺ هذه الآيات من ربه بانشراح صدر؛ فلما اطمأنّ وسكنت انفعالاته وجوارحه؛ كان أول كلمة تكلم بها أن قال وهو يضحك: أبشري يا عائشة! أما الله فقد برّأك. قالت عائشة: قال لي أبي وأمي: قومي إليه. قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

ردّة الفعل في معاملة النبيّ

من خلال أحداث هذه القصة، نعلم حجم المروءة والرفق في معاملة النبيّ محمد ﷺ لزوجاته؛ حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين. فليس النبيّ هنا في حالة اللامبالاة! ولا من حالات الرضا التي تنتاب بعض الرجال من ذوي الدّم البارد، ولكنه كان في حالة تثير الحميّة وتثير الحبّ، كما تثير ما يكمن في النفس البشرية من انفعالات طبيعية؛ ينتظر دليلا.

لم يرتكب جريمة الدفاع عن الشرف!

سمع النبيّ حديثًا يُلاك على ألسنة الناس، بل من خاصة ذويه الأقربين؛ حديثًا يسمعه من رجل كعلي بن أبي طالب ابن عمّه؛ فلا يرى حرجًا عليه من طلاقها؛ والنساء كثيرات. سمع النبيّ ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير دليل، ولم يرفضه بغير دليل، وكان عليه أن يزور زوجته المريضة وأن يجفوها بعض الوقت؛ وظل يسأل عنها؛ ولا يُسخطه كلام الناس في هذا الموقف الأليم؛ بأن يرتكب جريمة الدفاع عن الشرف كما يحدث في هذه الحالة في كل زمان كان قبله وكان بعده. سأل من ينبغي أن يسأل: عليًّا وأسامة وهما بمقام ولديه، وبريرة الجارية، وزينب ضُرّة عائشة التي تنافسها؛ وهي أسرع من يقول لو علمت شيئًا، فاستعاذت بالله وقالت: «والله ما علمت إلا خيرًا». إلا أن النبيّ أراد لها البراءة من ربّ السماء؛ أمام الخلق عامة وأمام نفسه، حذرًا أن تكون تبرئته إياها عن عاطفة الحبّ لها.

هل انتقم النبيّ لنفسه؟

قد علمنا من رواية السيدة عائشة؛ كما علمنا من روايات شتى؛ أن عبد الله بن أبيّ بن سلول كان أكبر الواشين بحديث الإفك؛ عن سوء نية؛ وكيد مُبيّت للنبيّ ودينه، وكان هذا الرجل بغيضًا إلى المسلمين؛ متّهمًا عندهم يتوجّسون منه، ويسمّونه رأس المنافقين، ولا يكفّون عن طلب دمه واستئذان النبيّ في قتله؛ فما ضرَّ النبيّ لو اغتنم هذه الفرصة، وترك المسلمين يحاسبونه؛ وينتقمون لعرض النبيّ منه ليأمنوا شرّه؛ ويجعلوه عبرة لغيره؟ وإذا قيل إن ابن سلول كان من ذوي قبيلة يُحسب لها حسابها، فماذا يُقال في مسطح وهو مولى أبي بكر لا أهل ولا قبيلة له؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب؟ لولا سماحة النبيّ وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن.

قالوا: النبيّ رجل مشغول بالجنس والنساء!!

هنا نعرض الكلام عن تعدّد زوجات النبيّ، وهو أحد الأهداف الذي انشغل به النقاد الأوروبيون وما زالوا، فيكثرون الطعن في أخلاق محمد ﷺ كلما كتبوا أو تحدثوا عنه. أما الردّ على هؤلاء: أن الاستسلام للشهوة تجاه النساء آخر شيء قد يخطر على بال الرجل المحقِّق؛ مسلمًا كان أو غير مسلم؛ حين يبحث في تعدد زوجات النبيّ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد، وفيما اقتضاه. قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية! قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر جنسيا لأنه لم يتزوج قط؛ إذا كان الأمر كذلك؛ فلا ينبغي أن تصف محمدًا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء؛ فمن قال أن المرأة شغلت النبيّ عن عمل كبير أو

عن عمل صغير؟ مَنْ مِنْ بُناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخًا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ودولته الإسلامية؟ ومن ذا الذي يقول: إن هذا التاريخ العظيم صنعه رجل مشغول بالجنس والنساء؟

استسلم للذّات الحسّية الجمالية

وأعجب شيء أن يُقال عن النبيّ: إنه استسلم للذّات الحسّية الجمالية في الدنيا! وهذا النبيّ قد أوشك أن يطلق نساءه لأنهن طلبن منه المزيد من المال والزينة وهو لا يستطيعها. فقد شَكَوْن أنهنّ لا يجدن ما يكفي لحياة أفضل، واجتمعت كلمتهنّ على الشكوى، مع الإصرار والإلحاح، حتى حَزن النبيّ وهمّ بتسريحهن(طلاقهنّ) إن لم يصبرن على ضيق الحياة معه. ودخل أبو بكر وعمر يومًا فوجدا النبيّ جالسًا وحوله نساؤه. فأراد أبو بكر أن يقول شيئًا يخفف عنه، فقال: يا رسول الله، لو رأيت زوجتي سألتني النفقة لكسرت عنقها، فضحك رسول الله وقال: «هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة! فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة يجأ (يكسر) عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ (يكسر) عنقها، ويقولان: «تسألنَ رسولَ الله ما ليس عنده؟»

ماذا قُلن؟

قُلن: «والله لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده» ثم اعتزلهن الرسول شهرًا، فنزلت بعدها الآية التي فيها التخيير: ﴿يَا أَيُّهَا النبيّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ الله أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-

[٢٩]. فبدأ الرسول بعائشة فقال لها: يا عائشة! إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أُحبّ ألا تتعجّلي فيه حتى تستشيري أبويك. قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوايّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة» ثمّ خير نساءه كلهنّ فأجبن كما أجابت عائشة، وقنعنَ بما هنّ فيه.

على ماذا يدلّ هذا؟

نساء محمد يشكون قلة المال وكماليات الحياة، ولو شاء لأغدق عليهن المال وأسباب الجمال؛ وأغرقهنّ في الحرير والذهب وأجمل الملذات. بل كان سهلا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من أموال الغنائم ما يرضيهنّ؟ وكانت كثيرة، وقد أرضى منها جميع المسلمين حوله. فما فائدة الاحتفاظ بتسع نساء مع حرمان الملذات الحسيّة؛ حتى يُقال إنه كان مفرطا في ميله إلى الجنس والنساء!؟ هذا الرجل الذي توهّمه مؤرخوا أوروبا، شهّروا به لنا وللعالم، ثم لا نرى إلا صورة من أعجب الصور. نرى رجلًا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك؛ ومع هذا يقنع بمعيشة الفقراء، ثم يُقال إنه رجل غلبته لذّات حسية! نرى رجلًا تألَّبَت عليه نساؤه للحصول على المال وكماليات الحياة، ثم يُقال إنه رجل غلبته لذّات حسية! نرى رجلًا آثر معيشة الكفاف والقناعة ثم يُقال إنه رجل غلبته لذّات حسية!

لم يقل أحدٌ هذا في شبابه

ما كان النبيّ معروفًا في شبابه أنه استسلم للملذات الحسية والشهوات، ولم يقل أحد من قريش: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة ونبذ الشهوات؛ كلا؛ لم يقل أحد هذا قط، ولو كان لهذا

القول قائل لجرى على ألف لسان. ولمَّا بنى بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذَّات الحسّ هي التي سيطرت على هذا الزواج؛ لأنه تزوجها وهي في نحو الأربعين وهو في نحو الخامسة والعشرين، وقد قارب على الخمسين وليس له زوجة غيرها، ولا لديه رغبة في الزواج بأخرى. عائشة قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزًا بدّلك الله خيرًا منها، فقال لها غاضبًا: «لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها... آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء». فأين الملذات الحسية والشهوات تجاه النساء في هذا؟

لذّات حسيّة مزعزمة!!

لو كانت لذّات الحسّ هي التي سيطرت على زواج النبيّ ﷺ بعد وفاة خديجة؛ لكان الأولى بإرضاء هذه الملذّات أن يتزوج النبيّ تسعًا من الفتيات الأبكار ممن اشتُهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيُسرعن إليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة. لكنه لم يتزوج بكرًا قط غير عائشة، رغّبته فيها خولة بنت حكيم. ثم تزوج سودة وكانت هي من أسبق النساء إلى الإسلام، فآمنت وهجرت أهلها، وإن عادت إليهم كانت عادت إلى الكفر، فضمّها النبيّ إليه حماية لها. ثم تزوج زينب ابنة عمته، هذه أيضًا لم تكن ملذَّات حسيّة بعد طلاقها من زوجها، ولو كان كذلك لكان أيسر على النبيّ أن يتزوجها ابتداء. أما سائر زوجاته الأخريات فما من واحدة منهنّ إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة؛ أو من المروءة والنخوة دون ما يروّجه الناقدون الأوروبيون من لذّات حسيّة مزعومة.

أمّ سلمة

كانت أم سلمة كهلة مسنّة يوم خطبها النبيّ ﷺ، كما قالت له معتذرة إليه؛ لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد، ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلًا: «سلي الله أن يُؤْجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيرًا». فقالت: «ومن يكون خيرًا من أبي سلمة؟» فأوجب على نفسه خطبتها جبرا لخاطرها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة.

جويرية بنت الحارث

أبوها الحارث سيِّدِ قومه؛ كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق؛ فتزوجها النبيّ ليعتقها ويحضّ المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجًا عنهم وتألفًا لقلوبهم، فأسلموا جميعًا وحسُن إسلامهم، وخيّرها أبوها بين العودة إليه والبقاء مع الرسول، فاختارت البقاء مع الرسول ﷺ.

حفصة

حفصة بنت عمر بن الخطاب، مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت، وعلى عثمان فسكت، وشكى عمر ذلك للنبيّ؛ فلم يكن للنبيّ أن يسكت بالمصاهرة مع صاحبه عمر، تلك التي شرّف بها أبا بكر من قبله، وقال عمر: يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان.

رملة بنت أبي سفيان

تركت أباها لتُسلم، وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة، ثم دخل زوجها النصرانية وفارقها وهي غريبة هناك بغير زوج ولا أهل، فأرسل النبيّ إلى النجاشي

في طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل. فكانت النجدة الإنسانية باعثُ هذا الزواج؛ ولم يكن هذا الباعث هو المتعة والاستزادة من النساء، بل كان للنبيّ هدف جليل من وراء هذا الزواج، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان زعيم قريش بروابط النسب، عسى أن يهديه ذلك إلى الإسلام، بما يلين به قلبه ويستكين كبرياؤه.

صفية اليهودية

وكان إعزازُ من ذُلّوا بعد عزّة؛ نَهْجُ النبيّ في معاملة جميع الناس؛ ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن بعد فقد الأقرباء، ولهذا خيَّر صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها، فاختارت الزواج منه ﷺ. وقد عاتب النبيّ بلالا لأنه مرّ بها وابنة عمتها على قتلى اليهود، لعدم مراعاة الشعور الإنساني، فقال له مغضبًا: «أَنُزِعت الرحمةُ منْ قلبكَ حينَ تمرّ بالمرأتيْنِ عَلى قَتلاهُمُا؟» واحتقرتْها زينبُ مرة فلقّبتها يومًا باليهودية، فهجرها النبيّ شهرًا لا يكلمها، ليأخذ بحقّ هذه الغريبة ويدفع عنها الضّيم.

المتعة بالنساء لم تكن الاعتبار الأول

ولا حرج على رجل سليم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه. ولكن الذي حدث فعلًا أن المتعة بالنساء لم يكن الاعتبار الأول في نظر النبيّ في اختيار زوجة قبل الدعوة أو بعدها، أو في وقت الشباب أو بعده. وآخِر صورة يتصورها المنصف هنا؛ هي صورة رجل اندفع للملذّات الحسية؛ وجلس ينتقي واحدة بعد واحدة من الحسناوات بدافع الشهوة الجنسية!! إنما كان الاختيار كله حسب حاجتهن إلى الإيواء؛ أو على حسب المصلحة الكبرى التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات

العرب وأسياد الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء باختيار زوجة واحدة بين جميع زوجاته إن كانت فتاة بكرًا موسومة بالجمال، وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الناقدون الأوروبيون تغافلوا أن يذكروا أشياء وأشياء

إلا أن الناقدين المشهّرين به؛ نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سُجِّلت لنا بأدق تفصيلاتها، ولم يذكروا إلا شيئًا واحدًا حرَّفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبيّ ما طاب لهم أن يفتروه، وذلك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتّسم بالطّهر والعفة في شبابه، فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، في غير مشقة عندهم ولا عيب.

نسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتحرك في طلب الزواج الحلال، وهو مُيَسّر له كما لكل فتى وسيم ذي حسب معروف بين القبائل والأسر والفتيات.

ونسوا أيضا أنه لما تزوج في تلك السنّ؛ كان زواجه بسيدة في الأربعين؛ اكتفى بها إلى أن توفّيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابًا في حاجة إلى التآلف أو الرعاية؛ ولم يختر جمالًا مطلوبًا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذاته الحسية؛ لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه، ولو شاء إرضاء نفسه وإرضاءَهنّ؛ ما كلفه غير القليل بالقياس إلى ما كان في يديه.

نسوا كل هذا، وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن، فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يكذِبوا وأن يشهِّروا وأن ينحرِفوا عن الحقيقة، وقد كان نشر الحقيقة أيسر لهم من إخفائها.

النبيّ داود كان له تسع وتسعون زوجة

كما كانت بعض المجتمعات في العصور قديما؛ تسمح للزوج بأن يجمع عددًا لا محدودًا من الزوجات، فالنبيّ دَاوُد؛ أو الملك داود حسب ما ذكره الكتاب المقدس؛ هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل الموحدة) ١٠١١-٩٧١ ق.م) وأحد أنبياء بني إسرائيل بحسب الدين الإسلامي، إلا أنه في المعتقد اليهودي يُعتبر ملكًا وليس نبيًّا؛ يتمّ وصفه بأنه أبرز ملوك إسرائيل التاريخيين؛ وأيضاً هو محارب وشاعر، ويعتبره التراث اليهودي والمسيحي مؤلف العديد من المزامير. ويؤمن المسيحيون بأن يسوع يعود إلى نسل داوُد. هذا مذكور في [سفر راعوث ٢٢-٤:١٨]. كما ذكر: كان لداوُد (٨) زوجات ونساء أُخريات. بينما ذكرت تفاسير القرآن ومنها (تفسير الجلالين)؛ ومنها وتفاسير أخرى: أن سيدنا داود كان له تسع وتسعون امرأة.

الملك داود؛ تم تدوين حياته وقصة ملكه في التوراة العبري في سفر صموئيل (١) إصحاح ١٦ وصموئيل (٢)، وسفر الملوك (١)أوسفر الملوك (٢) وأخبار الأيام (١).

جوزيف سميث

أيضا نجد بعض الحركات الدينية البارزة في العالم تسمح للزوج بأن يجمع عددًا لا محدودًا من الزوجات، وصل أحيانًا إلى (٧٠٠) زوجة. (جوزيف سميث) مثلا؛

مؤسس الحركة المورمونية في أمريكا، اشتُهر بكثرة زوجاته، ففي عمر الثلاثين كان له أكثر من (٣٠) زوجة، والأمر الغريب أن جميعهنّ فتيات أصغر منه سنًا. احتفظ بزوجته الأولى وكانت تدعى "إيما"، رغم تعدد زوجاته، وقبلت بوجود (٤) نساء غيرها بالمنزل.

جوزيف سميث: هو زعيم ديني أمريكي وسياسي؛ وهو الرئيس الثاني لكنيسة يسوع المسيح القدّيسي عام ١٨٧٧م.

بريغهام يونغ

هو زعيم ديني أمريكي وسياسي؛ الرئيس الثاني لكنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة من عام ١٨٤٧ حتى وفاته في عام ١٨٧٧. ولد بولاية "فيرمونت" الأمريكية، اشتُهر أيضا بتعدد الزوجات بأعداد كبيرة، فحين أسس مدينة "سولت لايك" في ولاية "يوتا"، وشغل منصب الحاكم الأول لها، تزوج ما مجموعه (٥٥) امرأة. وبحلول عام ١٨٧٧م، توفي وهو متزوج من (١٩) امرأة بعدما طلق (١٠) نساء، وهربت منه (٢٣).

فتح علي شاه قاجار

كان ثاني شاه على فارس؛ وقد حكم الدولة الفارسية من عام ١٧٩٧م حتى وفاته. اشتهر بين الفرس بثلاث أشياء: لحيته بالغة الطول، ونحافة وسطه، وزواجه نساء كثيرات. كان له (١٥٨) زوجة، ويقال: إنه كان يمتلك ألف زوجة.

أسانتوس أكوكو

رجل من كينيا، كان زعيم قبيلة (لويو)، وهو حامل الرقم القياسي للزواج في إفريقيا، اشتُهر بتعدد زوجاته، ففي بداية القرن العشرين توفي عن عمر يناهز (٩١)

عامًا، مخلفًا وراءه (١٣٠) زوجة. كان (أكوكو) رجلًا غنيًا يملك مساحات من الأراضي، كما طلق (٨٥) امرأة، بخلاف من بقين على ذمته. كما تزوج الرجل النيجيري الذي كان يُدعى (بيلو) من (١٢٠) امرأة، كان مرشدا دينيا وتربويا في قومه، وكان يمتلك حيا سكنيًا كاملًا لإيواء أسرته، وتوفي في عام (٢٠١٧) عن عمر يناهز (٩٣) عامًا.

لماذا الهدف هو النبيّ محمد ﷺ !!؟

الناقدون الأوروبيون تغافلوا أنبياء وملوكا وسلاطين، ذكرهم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ممن تزوجوا أو امتلكوا نساء كثيرات. تغافلوا عن مؤسسي حركات دينية مسيحية ورؤساء كنائس. وتغافلوا زعماء دول وممكالك وإمبراطوريات، وزعماء قوميين في قارات العالم القديم والحديث، كلهم تزوّجوا أو امتلكوا نساء كثيرات. تغافلوا عن هؤلاء جميعا على مرّ القرون في هذا العالم، وكان الهدف المحدد للانتقاد والافتراء هو النبيّ محمد!!

تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية

النبيّ ﷺ لم يجعل تعدد الزوجات شهوة جنسية لذاتها، يختار من يختار ويرفض من يرفض، وإنما جعل ذلك ضرورة يعترف بها الفرد وتعترف بها الأمة، ولا ينكر هذا إلا مُتعنّت يتجاهل الحقائق، ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان. ففي حياة محمد الخاصة؛ لا ينكر أحد أن زواجه بنسائه؛ سواء أرملة أو مطلقة، كان خيرًا له ولها من بقائها على حال العزلة والحاجة والمذلة، أو رجوعها إلى أهلها في مكة حيث الكفر

والضلالة، وكان خيرًا من قطع الأواصر بينه وبين زعماء القبائل، وكان ما كان من نفع وفوائد للمجتمع الإسلامي عامة، وهي ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسؤول مجتمعي، وكل قائد عليم بطبائع الناس.

علاج مشكلة التعدد بعيدا عن نطاق الزواج!

أما الضرورة الاجتماعية العامة، فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعًا؛ ثم تحللت منها بإباحة الزنى! وعلاج مشكلة الزواج بعيدا عن نطاق الزواج، وخارج عن نطاق البيت والأسرة. حتى خرجوا أخيرا وابتعدوا بعيدا عن الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية، خصوصا في عالم الغرب أمريكا وأوروبا، بإقرار قانون الزواج المثلي بين الرجل والرجل، وبين المرأة والمرأة، واعتبروا ذلك من أهم الضرورات العصرية لإشباع الرغبات الجنسية بين المجتمعات والشعوب!!

التعدد أفضل لها وللمجتمع

لا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها من النساء؛ أفضل لها وللمجتمع من نبذها في معترك هذه الدنيا القاسية بغير ولد وبغير زوج، دون بيت ودون أسرة. ثم هو أفضل للزوج نفسه؛ وهو كائن حيّ يريد أن يتكاثر؛ ويصل ما بينه وبين حياة المستقبل بذرية صالحة؛ هي الهدف الأهم والأكبر وأساس كل زواج، ولولا ذلك لانقرض المجتمع الإنساني منذ قرون سحيقة.

عصمة رجل واحد؛ لا يتلاعب بها كثير من الرجال

ولا شك أن الجمع بين الزوجة السابقة وبين زوجة أخرى أفضل لها وأصلح من الجمع بينها وبين صديقة أو عدة صديقات. ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة في

أوقات الحروب التي يقلّ فيها عدد الرجال أفضل للمجتمع الإنساني من علاقات الانحراف والشذوذ الجنسي التي لا تحفظ بقاء النوع ولا تحفظ الأخلاق، بل إن المجتمع الإنساني يبقى في الحفظ والصون في حال كون امرأة أو أكثر في عصمة رجل واحد، لا يلهو بها أو بهنّ رجال آخرون كثيرون.

هل هذا شيء جائز؟

بل هذا شيء أكثر من جائز، لأنه واقع لا بديل عنه عند الحاجة إليه، بل هو من الضرورات حين لا تنفع المحظورات، وهو أفضل من حلول شتى، حينما ننظر بأعيننا في شؤون العالم، ثم نغمضها عن حقائق تصدم كل عين. من السهل على من أراد أن يقود العالم في خياله بالفضائل التي ترضيه، ولكن ليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يرضى بهذه القيادة وبما ارتضاه، وقد علم هذا كل قائد واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي واجهت محمدًا.

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث؟

نضرب المثل بنابليون؛ فقد خاض انقلابًا على العادات في فرنسا يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية في مكة، ونعني به الثورة الفرنسية، وعاش انحدارًا في الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذي أصيب به العرب في أواخر عهد الجاهلية، وأسس دولة، ونظر في سنّ القوانين، وحاول أنواعا من الإصلاح. نابليون طلّق امرأته؛ وأكره رهبان وقساوسة المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد اشتُهرت له علاقات مع صديقات كثيرات، غير الصديقات المجهولات. نابليون يقول عن الأسرة: لقد صنعتُ كل ما بوسعي لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى!!

أدوات لتفريغ الشهوة الجنسية!!

إنه لمن المضحك أن يُحظر على الرجل الأوروبي الزواج بأكثر من واحدة؛ في ذات الوقت تحمل صديقاته وينجبن أطفالا! وكأنّ هذا الرجل في أثناء حملهنّ أعزب!! واليوم في عالم الغرب، كثيرا لا نجد زوجات للرجال، ولكنهم يعاشرون صديقات! ينجبن أطفالا بلا أسرة! إنهم في فرنسا يمنحون النساء فوق حقهنّ من التعظيم، وما هنّ في الحقيقة إلا أدوات لتفريغ الشهوة الجنسية، وآلات لتفريخ الأطفال!! وقد تمردن في إبان الثورة وعقدن اجتماعات وندوات، وبدا لهنّ إنشاء فرق عسكرية في الجيش!! هذا المجتمع الإنساني وقد بدا عُرضة للخلل والفوضى؛ إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال والانحراف إلى معسكرات الجيش، نعم إن المجتمع يوشك أن يتمزق بغير انتهاء. من يكون الضحية؟ كلا الجنسين لا محالة؛ ثم المجتمع. لكن هذا سيظهر واضحا وسيكون حقيقة بعد مرور أجيال.

حل مشكلة الزواج عند (لينين)

لما اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث، فكيف اعترف بها «فلاديمير لينين» في الثورة البلشفية الكبرى التي قادها عام ١٩١٧م، بعد الثورة الفرنسية؟ اقترح حل مشكلة الزواج بحلّ رابطة الزواج المعروف نهائيا، فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين في الفندق أو الجامعة أو الوظيفة. وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة السماء؛ إلا الذي جعله على هذا النحو!!

ثلاث مراحل ثم الرابعة

القرآن ينصّ على عقوبات يلجأ إليها الرجل في حالة نشوز(نفور) الزوجة وإعراضها عن زوجها؛ وهي تبدأ أولا بالنصيحة والعتاب الجميل، فإنْ أبتْ

وأعرضتْ فإنه يهجرها ولا يضاجعها، فإن أبتْ وأعرضتْ فإنه يضربها ضربا خفيفا دون الألم الجسدي، فإن أبتْ وأعرضت، فإنه يلجأ للحلّ الأخير وهو التسريح؛ أي الطلاق، وهو أبغض الحلال عند الله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]. ثم يقول: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

أين محمد من هذه الثلاث؟

النبيّ ﷺ لم يضرب قط واحدة من زوجاته، ولم يطلق زوجة دخل بها وعاشرها، ولم يُرْوَ عنه قط أنه ضرب أو نهر خادمًا عنده؛ فما بالك بالزوجة، بل رُوي عنه ما ينفي ذلك، بل رُوي عنه عكس ذلك. بل كان النبيّ يكره ضرب النساء؛ كان يخاطب أصحابه: أَمَا يستحي أحدُكم أن يضرب امرأته كما يُضرب العبد؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره حبّا وتلذّذا! هذا تناقض في المشاعر! وتناقض في العلاقة الإنسانية! فما بالك بالحياة الزوجية في بيت واحد وعلى سرير واحد؟ وما نصّ القرآن عليه من عقوبة الضرب فإنما نصّ عليه لعلاج نفور المرأة بما يتلاءم مع مصالحها ومستقبلها، بشرط منع الضرر الجسدي والإيذاء النفسي، فلا يضرب الوجه على الخصوص.

عقوبة نفسية بالغة

هَجْر المرأة في الفراش تأديب نفسي، بل هذا هو الصراع الذي تتجرّد فيه الأنثى من كل سلاح، حينما تتعالى الزوجة وتكابر بجمالها أو مالها؛ فيكون الردّ عليها بالهجر في

المضاجع عقوبة نفسية بالغة لما يفوتها من سرور ومتعة، وليست كما يسبق بعضهم إلى عقوبة الضرب؛ فإنّ فوات السرور والمتعة أيامًا، قد يؤلم المرأة أكثر من عقوبة الضرب والإيذاء الحسّي، هذا ما يجعل الهَجْر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق. وهذا ما يمتاز به الجنس اللطيف. لا يتحقق الهجر في المنزل أو الغرفة، وإنما يتحقق ذلك بالهجر على الفراش نفسه، حينما يكون الزوجان ملتحفان معا، فلا يقربُها، مما يثير مشاعرها وشعورها، ويُلهب أحاسيسها وعواطفها. فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها بهذه الطريقة، يدعوها ذلك الشعور إلى سؤاله عن السبب، ثمّ إلى مراجعة المواقف؛ ثم حنين إلى المعاتبة؛ وقد وصلنا إلى أفضل النتائج.

محمد ﷺ يُفْجَعُ في بيته !

محمد الأب كان أصلح الآباء، ثم فُجع في بيته فجيعة لا يُقارن فيها ألم الإنسان إلا صَبْرَ الأنبياء، ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبنائه كما تمثل في مولد ابنه إبراهيم الذي سماه باسم جده الأكبر، كانت أسباب كبيرة توحي إلى قلب محمد العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد، كان منها أن محمدًا عربيٌّ يحرص على وجود ولد ذكر من بعده؛ كحرص كل رجل من أبناء القبائل؛ هم فخورون بالأبناء، ومحمد كان يحبّ التكاثر لنفسه، كما كان يحبّه لأمته، ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم. فاشتياقه إلى ولد من الذكور سليقة عربية تقترن بالسليقة الإنسانية، وكان من أسباب هذا الشوق القوي طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة، وشماتة أناس من شانئيه ومبغضيه؛ سمّاه بعضهم بالأبتر لانقطاع ولده من الذكور، وفي ذلك نزول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

نيف وعشرون سنة؛ لم تلد له زوجة من زوجاته !

مضى نيف وعشرون سنة؛ لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته، ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا ابنته فاطمة التي ماتت بعده بقليل؛ مات القاسم والطاهر طفلان ذكور، وماتت زينب، ورقية، وأم كلثوم، بعد أن تزوّجن. فعائشة التي لم يتزوج النبيّ بكرًا غيرها قد مات الرسول عنها وهي دون العشرين، ولم تُنجب. وأزواجه الأخريات كلهنّ لم يُنجبن، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة التي يصعب تعليلها؛ إذا تذكّرنا أن النبيّ قد توخّى في اختيارهنّ تلك الأغراض العامة من الإيواء والمصاهرة، ولم يتحرّ منهنّ النسل خاصة. إذا أضفنا إلى ذلك اشتغال النبيّ فيما بين الخمسين والستين بالغزوات والحروب، وقمع الفتن ودرء الأخطار.

مات ذلك الطفل الصغير

طال اشتياق النبيّ إلى وليد ذكر، وتجدّد اشتياقه في أثر كل زواج؛ حتى جاءته مارية القبطية من بلد بعيد، فبشّرت النبيّ بحَمْلٍ في أحشائها لعله غلام، واجتمع في هذا البشارة اشتياق ورجاء لا ينتهي؛ وولد إبراهيم! ولد الطفل الذي نظر أبوه إليه يوم مولده؛ فامتد به الأمل طويلا، وتخير له اسم جده الأعلى، ليكون أبًا ويكون له أحفاد، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد؛ ثم مات ذلك الطفل الصغير، ومات ذلك الأمل الكبير. مات والأب في الستين! فأيّ صدمة في ختام العمر؟ أَيْ والله! إنها لإحدى المصائب التي يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال. وصرخ أسامة حين بكى رسول الله فنهاه وقال: البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان. انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم، فحسب المسلمون أنها انكسفت لموته، فيقول

الأب: **«إِنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ مِن آيَاتِ اللَّهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ولَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذلكَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ»**. صحيح البخاري.

محمد ﷺ النبيّ والأبّ

أرأيتَ إلى الحَسَن بن فاطمة، وقد دخل على النبيّ فركب ظهره وهو ساجد في صلاته؟ إن النبيّ في صلاته لهو النبيّ في مقامه الأعلى، ليشفق أن يُشغل الصبيّ عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره وقت ما شاء. ويسأله بعض أصحابه: لقد أطلت سجودك؟ فيقول: إن ابني ارتحلني فكرهتُ أن أعجله! تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات، يختصّها النبيّ بمناجاته في مرض وفاته، يقول: إني مفارق الدنيا، فتبكي، ثم يقول: إنك لاحقة بي. فتضحك. في هذا الضحك وفي ذلك البكاء أخلص الحنان بين الآباء والأبناء.

الأديان الأخرى لم تأمر بإلغاء الرقّ

من الواجب أن نذكر أن دِينًا من الأديان الأخرى؛ لم يأمر بإلغاء الرقّ في شكل من أشكاله، سواء رقّ الحرب أو رقّ البيع والشراء، وإنّ أناسًا من أقطاب المسيحية كالقديس أوغسطين اعتبروه جزاء عادلًا للخطايا التي يقترفها هؤلاء العبيد! وجاء بعض قساوسة الكنيسة فحرموا الرقيق من العبيد شرف الخدمة فيها، أَنَفَةَ لها أن يدنّسها لؤم هذا العنصر من البشر!!

كان إلغاء الرقّ أقرب إلى المستحيلات

كما أن النظام الاقتصادي القديم كان مرتبطًا بالاسترقاق؛ فكان إلغاؤه أقرب إلى المستحيلات، ولم يكن أنفع في علاجه والتدرج به خطوة خطوة، والابتداء بترغيب

الناس فيه، إلا ما شرعه الإسلام. فالرسول ﷺ بدأ بتحريم كل رقّ غير رقّ الأسرى في الحروب، ثم حثّ على إطلاقهم وسماه منًّا وعفوًا يُشكر فاعلُه عليه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]. ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه من صاحبه، يَدفع له شيئا فشيئا، وهذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة، وأنه إذا كان هناك تمهيد لإلغاء الرقّ فذلك هو تمهيد الإسلام دون غيره، وهو أقصى ما كان مستطاعًا في نظام العالم القديم؛ نظام كان عدد الأرقّاء فيه يقارب عدد الأحرار، كما جاء في بعض الإحصاءات عن الحضارتين الرومانية واليونانية.

أرسطو أوجب الرقّ عند اليونان

وقد نظر في مسألة الرقّ عقل من أكبر العقول التي نبغت في أمّة اليونان؛ بل في الأمم كافة؛ ونعني به أرسطو؛ فأقرّه وأوجبه، وجعله ضرورة من ضرورات الكون، وقيدًا لا فكاك منه لطائفة من الناس خُلقت عاجزة عن ولاية أمرها، فلا بدّ لها من سيّد يقودها.

زيد بن حارثة قائد جيش المسلمين

لو وقف النبيّ ﷺ عند معاملة الأرقّاء؛ لامتاز على كل محسن إلى الأرقاء في زمانه. إننا نقرر الواقع حين نقول: إن كثيرًا من الأبناء لا يتمنّون عند آبائهم أفضل من المعاملة التي وجدها خدم محمد وعبيده. ومَنْ مِنَ الآباء يُحسن إلى أبنائه خيرًا من إحسان محمد لابنه زيد بن حارثة، ولابنه أسامة بن زيد؟ كانا غلامين من الرقيق

عنده، أعتق زيدًا ورآه أهلًا للزواج من أقرب قريباته إليه، ثمّ ولاه جيش المسلمين، وفي الجيش طائفة من أكابر الصحابة.

هُمْ إخوَانُكُمْ

وكانت رحمته بعبيده كرحمته بعبيد غيره. فكان يجاملهم ويجبرُ كسرهم، ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها، ويلبّي دعوتهم إذا دعوه إلى طعام، ويوصي بهم قائلًا: **«هُمْ إخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فمَن جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ ممَّا يَأْكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، ولَا يُكَلِّفُهُ مِنَ العَمَلِ ما يَغْلِبُهُ، فإنْ كَلَّفَهُ ما يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عليه»**.صحيح البخاري.

عدالة تجبر كسر الضعيف

كان النبيّ ﷺ يحلب شاته؛ ويخصف (يرقع) نعله؛ ويخدم نفسه؛ ويعلف ناضحه (أي البعير الذي يُستخدم في جلب الماء). فإذا رأى الخدم عملهم في البيت يماثل عمل سيّدهم، فتلك هي المساواة، وتلك هي العدالة التي تجبر كسر الضعيف، ولا تقتصر فقط على العطف والرحمة عليه. ولم يقبل النبيّ خدمةً من خادم يكره ذلك. وما كان في رجالات المسلمين كابر عن كابر إلا يتمنّى أن يؤدي لهذا النبيّ تلك الخدمة التي تطوعت بها نفسه راضية، فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذي يجلس إلى أستاذه، حبًّا لا خنوعًا، وتوقيرًا لا مذلة، وأدبًا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب.

كان النبيّ يكره أن تُقَبّل يداه

وعلى هذا؛ كان النبيّ ﷺ يكره أن تُقَبّل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس؛ فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع. قال أبو هريرة: دخلت للسوق مع النبيّ ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزَّان: **زنْ وأرجح**. فوثب الوزّان إلى يد رسول الله ﷺ يقبِّلها، فجذب يده وقال: **هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم**. ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: **صاحبُ الشَّيءِ أحقُّ بشَيئِهِ أن يَحمِلَهُ، إلاَّ أن يَكونَ ضعيفًا يَعجِزُ عنهُ، فيُعينُهُ علَيهِ أخوهُ المسلِمُ**.

لو عمَّت هذه السيادة لَبَطَلَ الاستعبادُ في الارض

ويصحّ أن يُقال: إن حصة النبيّ ﷺ من خدمة نفسه كانت أعظم من خدمة غيره له، وإن اعتماد غيره عليه كان أكثر من اعتماده على غيره، وإنه جعل الخدمة بطريقته نوعا من توزيع الأعمال، أو نوعا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره، دون أن يتميّز هو عن غيره في شيء، قال: **إنَّما أنا عبدٌ ؛ آكُلُ كما يأكُلُ العبدُ، وَأَجلسُ كمَا يَجْلسُ العَبْد**. هذه كلمة السيد بإشرافه وقيادته، السيد بالتفاف القلوب حوله، ولو عمَّت هذه السيادة لَبَطَلَ الاستعبادُ في الارض، وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئًا لا حساسية ولا حرج فيه على صغير ولا كبير، إنما هو تقسيم أعمال، وتعاون بين إخوة باحترام.

كانت فيه هذه الطبائع جميعًا

طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة؛ هذه طبائع أربع قلما تجتمع في إنسان واحد على قوة واحدة. فإذا اجتمعت معًا

فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة. فطبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون. وطبيعة التفكير تثير في نفوسنا ملكات الكشف والبحث، وطبيعة التعبير الجميل تشبّ النار المقدسة في سرائرنا، لتَظهر على ألسنتنا وأيدينا، وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها. محمدٌ ﷺ كانت فيه هذه الطبائع جميعًا: كان عابدًا ومفكرًا، وقائلًا بليغًا، وعاملًا يغيّر الدنيا بعمله؛ ولكنه كان عابدًا قبل كل شيء، ومن أجل ذلك تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه. نشأ يتيمًا من طفولته، واعتاد التأمل والجدّ والعزوف عن عبث الصغار، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن السخافات.

صفة عابد يفكر ويعبّر ويعمل

وكانت أوصافه العادية توافق الاستعداد التام للتلقّي من السماء، يراه من ينظر إليه يقظًا دائمًا، يُسرع إذا مشى، ويلتفت بكل جسمه، ويشير بكل كفّه، إذا فكر ينظر إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء، ويدعو، فيرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ويغضب فتحمرّ عيناه ووجنتاه، ويمتلئ عرق جبينه، وإذا نامت عيناه فقلبه يقظ لا ينام؛ حِسُّه مرهف ويوقظ سريرته لأخفى البواطن، ويجعله أبدًا في حالة قريبة حيثما هبط الوحي عليه. هذه صفة عابد يفكر ويعبّر ويعمل، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت أجسادهم، فلم يبق لهم إلا زوايا الصومعة!

تفكير يبدأ بالعَجَب وينتهي بالإيمان

كانت عبادةُ محمد خلوًّا بالنفس، أو عجبًا من بدائع الكون؛ لم يألف الناس في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خَلْقٍ جديد.

إنها دهشة العين التي كانت دائما في نظر جديد، وكأنّ كل شيء مخلوق جديد. وهكذا كانت عبادة محمد ﷺ عجباً من بدائع الكون؛ في كل نظرة يراها كأنها لأول مرة، وتفكير في الخلق يبدأ بالعجب وينتهي بالإيمان؛ لأنه لا يزال أبدًا بين العجب والإيمان. كما كان يجدد إيمانه كما يجدّد عجبه كل يوم، وكان يُكثِرُ أنْ يقولَ: **«يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قَلبي على دينِكَ »**. المستدرك على الصحيحين. إسناده صحيح ولما سألوه عن ذلك قال: **«إنَّه ليس مِن آدَميٍّ إلَّا وقلبُه بينَ إصبعَيْنِ من أصابعِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ما شاءَ أقامَ، وما شاءَ أزاغَ»**. صحيح بشواهده.

فكّرَ في الخلق فآمَنَ بالخالق

كان تفكيره تخطيطا في النفس، وكان تخطيطه ينتظر العمل، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل في مناسك العبادات واعتكاف في الصوامع وتعطيل أحكام المعاملات والعمل الميداني في الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وإضاعة الوقت في الجدال البغيض. كان ثلث أيامه لربّه؛ وثلثها لأهله، وثلثها لنفسه، وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه عن عبادة الله والاتصال به. بَهَرَهُ جمالُ الشمس والقمر والنهار والليل والشجر والصحراء، بَهَرَهُ جمال الوجوه التي يلمح فيها الابتسامة الجميلة فيطلب منها الخير؛ جمال الوجوه إنما هو جمال الله في هذه الوجوه، كلما نظر إلى خلق جميل. فكَّرَ في الخلق فآمن بالخالق، واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر. فقال: **«يَأْتي الشَّيْطانُ أحَدَكُمْ فيَقولُ :مَن خَلَقَ السَّماءَ؟ مَن خَلَقَ الأرْضَ؟ حتى يقول: فمَن خَلَقَ اللهَّ؟ فمَن وجَدَ مِن ذلكَ شيئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ باللهَّ»**. صحيح مسلم.

إلى أين انتهى المفكرون في شطحاتهم؟

تلك هي نهاية التفكير لكل عقل سليم مستقيم، خُلق لتعليم الناس عبادة وعملًا، ولم يُخلق ليُوغل في الطقوس ومناسك العبادات دون التفكير بالكون وعجائب أسراره. وإنا لنسأل مع هذا: إلى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا في شطحاتهم؟ لهذا كثرت وصايا النبيّ ﷺ بإدمان التفكير في خلق الله؛ واجتناب التفكير في ذات الله؛ فقال في حديث: **«تفكَّروا في آلاءِ اللهِ ولا تفكَّروا في اللهِ»**. وقال في هذا المعنى: **«تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتَهلكوا»**.

التفكير هو طريق الوصول إلى اللّه

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها؛ أن التفكير في حقائق وأسرار الوجود هو طريق الوصول إلى الله، ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة؛ إيمان بالوجود الأبدي في صفته المثلى، وتفكير في حقائق الوجود كما نراه ونحسها ونعقلها، وذلك قصارى ما عند العلم؛ إذ يقف العلم عند حدّ العقل، وهذا هو العلم الذي فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة. قال النبيّ ﷺ في رواية عن عبد الله ابن عباس؛ إن العلم: « **أفضلُ عندَ اللهِ من الصلاةِ، والصيامِ، والحَجِّ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ عز وجل**». لأنه سبيل الوصول إلى الله. وأن محمدًا نبيّ، وأن النبيّ يُعلِّم جميع الناس الإيمان، وتلك سبيلهم فيما يُفتح لهم من أبواب التفكير. فهم يُضَلُّون في تيه الشكوك والمناقضات التي يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون، أما هداية النبيّ فهي أقوم وأسلم لمعرفة الخالق والتفكير في الخليقة.

كان محمد «إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى»

إذا اشتدّ الأمر على نفس رجعت إلى من تحبّ؛ فانفرج كربها، وأنِست بعد وحشة، وهدأت بعد حيرة. فالطفل الصغير إذا أحسّ بالخطر لجأ إلى أمه وأبيه لأنهما ملاذه، والإنسان الضعيف يلجأ إلى قوي، يجد عنده الأمن والأمان، ومتى وجدت النفس فرحة اللقاء في الصلاة؛ فلا إجهاد فيها لجسد، ولا ضياع لوقت، بل فيها الترويح عن النفس، ولا سيما إذا كانت النفس من سَعَة الأفق تحيي ليلها ونهارها في الصلاة والعبادة، ثم تؤدّي عملها كالمعتاد. ولا يحسب أحد أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن متطلبات الحياة، أو عن حق من حقوق بني الإنسان. عن حذيفة قال: كانَ النبيّ ﷺ **إذا حَزَبَهُ أمْرٌ صلَّى**. وعن أنس بن مالك قال: كان إذا حزَبَه أمرٌ قال: «**يا حيُّ يا قيومُ برحمتِك أَستغيثُ**». حديث حسن. وعن عبدالله بن عباس أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حزبَهُ أمرٌ قال: «**لا إلهَ إلا اللهُ الحليمُ العظيمُ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ الكريمِ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ العرشِ الكريمِ، ثم يدعو...** ». إسناده صحيح.

محمد ﷺ استوفى كل الصفات

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل. غير أننا لا نعرف أحدًا من هؤلاء العظماء تمت صورته كما تمت صورة محمد من رواية أصحابه ومعاصريه، فنحن نعرفه بالوصف خيرًا من معرفتنا للآخرين بصورهم وتماثيلهم، لأن هذه الصور والتماثيل

قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبيّ من غير صور ومن غير تماثيل، في كل حالة من حالاته؛ لأن الذين وصفوه أحبّوه؛ فكانت أمانة الوصف هنا مزيجًا من العواطف الإنسانية والعواطف الروحية. وخلاصة ما نقلته الروايات المتواترة أن النبيّ ﷺ كان مثلًا نادرًا لجمال الرجولة العربية، مستوفيًا للصفات من جميع نواحيها، فربّ رجل وسيم غير محبوب، وربّ رجل وسيم محبوب غير مؤثر في مجتمعه، وربّ رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه، وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم؛ غليظ القلب لا يبادلهم المشاعر والوفاء. أما محمد ﷺ فقد استوفى كل ما يختاره واصفوه ومحبّوه، وكان نِعْمَ المسمّى بالنبيّ المُصطفى المختار.

صفات شكلية وملامح

ذكرت العديد من كتب السيرة والحديث صفات الرسول محمد الخَلْقية، ومنها ما يتحدث عن صفات وملامح؛ لون وجهه أبيض أزهر وليس بأسمر؛ لحديث أنس بن مالك، وقال:إنه لم يكن شديد البياض. كان يتلألأ نوراً، ولم يكن مُستدير الوجه بالكامل؛ حادُّ الخدّين حسن الوجه، قال البراء بن عازب: «**كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُمْ خَلْقًا**». رواه مسلم. وكان صلب الخدّين. كان مُستوي الجبين ويتّصف بإعتداله واتساعه طولاً وعرضاً. كما اتصف بحاجبين مُتّصلين مُقوسين طويلين. وكان واسع العينين شديد سواد الحدقة وشديدتي البياض مع وجود عروق حمراء صغيرة. وكانت رموشه كثيفة وطويلة.

يطيل شعره إلى منكبيه

كان أنفه مُستقيم فيه طول بِوَسَطِهِ، مُرتفعٌ قليلاً ودقيق الأرنبة (هي طرف الأنف). كما كان واسع الفم جميل الشفاه وأبيض الأسنان، وكان في أسنانه تباعد بسيط. وكان لديه لحية سوداء كثيفة الشعر بمقدار قبضة اليد، وكان عنده القليل من الشعر الأبيض كما أخرج البخاري. وكان ضخم الرأس شديد سواد الشعر يخلوا من الشيب إلا شُعيرات في مفرق رأسه، كان مُتمشط الشعر ليس بالمجعد ولا المسترسل، وقد كان يُطيله أحياناً حتى شحمة أذنه وأحيان حتى نصف أذنيه وأحياناً الى منكبيه، وكان يسدل شعره ويفرقه. عن ابن عباس قال: «**كانَ النبيّ ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أهْلِ الكِتَابِ فِيما لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ، وكانَ أهْلُ الكِتَابِ يَسْدِلُونَ أشْعَارَهُمْ، وكانَ المُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُؤُوسَهُمْ، فَسَدَلَ النبيّ ﷺ نَاصِيَتَهُ، ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ**». صحيح البخاري.

بيان صفات جسد النبيّ ﷺ

كان مربوع القامة أقرب للطول؛ وذو جسم حسن. عن أنس بن مالك قال: «**كان رسولُ اللهِ ﷺ رَبْعَةً؛ ليس بالطَّويلِ، ولا بالقَصيرِ، حسَنَ الجِسْمِ**». صحيح الترمذي. وكان حَسَن العنق، فقد كان فيه طول وقد وصفه علي بن أبي طالب كأنه إبريق فضة). كما كان ليس بالسمين ولا النحيل، وكان عريض الكتفين والصدر وما بين المنكبين، وكان أشعر المنكبين وأعلى الصدر، وما دون ذلك ليس فيه شعر كبطنه وثدييه، وكان على يسار كتفه خاتم النبوة. صحيح مسلم. وعن جابر بن سمرة قال: «**وَرَأَيْتُ الخَاتَمَ عِنْدَ كَتِفِهِ مِثْلَ بَيْضَةِ الحَمَامَةِ يُشْبِهُ جَسَدَهُ**». صحيح مسلم. كما كان أبيض الإبطين طويل

الذراعين، عن ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين قالت: «**كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذَا سَجَدَ جَافَى حتَّى يَرَى مَن خَلْفَهُ وضَحَ إبْطَيْهِ**».صحيح مسلم. وكان واسع الكفين طويل الأصابع دون انعقاد.

كان ملمس يديه ناعماً ليناً

عن أنس بن مالك قال: «**وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً، وَلَا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسولِ اللهِ ﷺ** ». صحيح مسلم. ولم يكن النبيّ كبير البطن، وكان يصل ما بين السرّة واللبة خط دقيق من الشعر، واللبة هي المنحر وهو أسفل العنق. واتصف ﷺ ببياض ساقيه، وبضخامة رُكبتيه ومفاصله. وكانت قدمي رسول الله يرتفع باطنها عن الأرض، وكان مُتساوي القدمين ليس فيهما تكسر. صحيح الترمذي.

خصائص جمال النبيّ ﷺ

ذكرت الكثير من الأحاديث أن النبيّ ﷺ كان بالغ الجمال، وكانوا يصفوه بالقمر؛ بل أجمل، إذْ روى كعب بن مالك قال: «**وكانَ رَسولُ اللهِّ ﷺ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وجْهُهُ، حتَّى كَأنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ**».صحيح البخاري. كما امتاز النبيّ بحُسن وجهه وسماحته، وكان كذلك حتى في مرضه وقبل وفاته. فعن أنس بن مالك قال: «**فَكَشَفَ النبيّ ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ يَنْظُرُ إلَيْنَا وهو قَائِمٌ كَأنَّ وجْهَهُ ورَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ**».صحيح البخاري.

كان فخماً عظيماً في عيون الناس

اختص الله نبيه بالخصائص الجمالية الخَلقية والخُلقية، وقد ورد أنه خير الخلق كلهم. ورد أنه كان فخماً عظيماً في عيون الناس وصدورهم، وكان متلألأً مُنيراً. وخلاصة

الكلام: يتّسم الرسول الكريم محمد ﷺ بالعديد من الصفات الخَلْقية والخُلُقية الحسنة، وقد نُقلت لنا جميعها بالتفصيل من صفات شكلية وجسدية تُبيّن وتصف ملامح وجهه الكريم. فأهمية معرفة صفات النبيّ الجسدية مهمة للمسلمين، فقد يَحدث أن يُكرم الله أحد عباده برؤية الرسول في المنام، فكيف سيُميّزه إن لم يعرف هذه الصفات؟!

صفات أخرى

ربما حرّك رأسَه وعَضّ شفته في أثناء كلامه، وهو على هذه الحركة بالغ الحياء؛ أشدّ حياء من الفتاة العذراء، ومع ذلك، اقترن الحياء بالقوة والجرأة في اتخاذ المواقف في هذه البنية الجميلة؛ فكان ﷺ يصرعُ الرجل القوي، ويركب الفرس الجموح فيروّضه على السير، ويداعب الفرسان بالمسابقة في العدو. وتجلت هذه الأريحية في علاقته بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه، وامتزجت بكل شعور. فالنبيّ يزور خادمه في بيته، ويسأل أمّه عن حزن أخيه، ويواسيه في موت طائر!! ومِثْلُ هذا عطفُهُ على الضعف البشري في رجل يكثر من شرب الخمر، ويضربه الرسول مرارا على ذلك، ثم لا يتمالك أن يضحك منه!

دُعابة النبيّ ﷺ مع (نُعيمان)

وكان رجل يُدعى (نُعيمان) أشهر الأنصار بالدّعابة، ولا يراه النبيّ فيتمالك أن يبتسم. جاء أعرابيّ إلى الرسول ﷺ فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعيمان: «لو نحرتها فأكلناها؟ فإنّا قد اشتهينا اللحم، ويدفع النبيّ ثمنها؛ والنبيّ لا يعلم، فنحرها نعيمان. وخرج الأعرابي فصاح غاضبا، فخرج النبيّ يسأل:

«من فعل هذا؟». قالوا: نعيمان، فاتبعه النبيّ حتى وجده قد اختفى في خندق وجعل عليه ورق الشجر، فأشار إليه رجل ورفع صوته: «أَمَا وجدته يا رسول الله؟» وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو، فأخرجه الرسول وقد تعفّر وجهه بالتراب فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: «الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني!» فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك، ثم دفع للأعرابي ثمن الناقة. إن من سعة النفس أن ينهض النبيّ بعظائم الأمور، وإقامة الأديان وإصلاح الأمم، وتحويل مجرى التاريخ، ثم يطيب نفسًا للفكاهة. كان محمد يتفكّه ويمزح، ولكن لا يأخذ لها من حقّ غيرها، أو يعطي الفكاهة حقها وينقص بذلك من حق الصدق والمروءة. فالرجل كثير شرب الخمر، كان يضربه الحدّ مرارا على شرب الخمر، ومع ذلك كان يضحك منه من كثرة الضرب.

يداعب عمته صفية وحاضنته أم أيمن

قال مرة لعمته صفية: لا تدخل الجنّة عجوز! فبكت، فقال لها وهو يضحك: الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]. وفي يوم حنين؛ سمع حاضنته السوداء أم أيمن وهي عجوز تنادي بلكنتها الأعجمية: «سبَّت الله أقدامكم!» بدل ثبت. فلم تُنسه الغزوة القائمة أن يصغي إليها ويداعبها بين طبول الحرب وصليل السيوف؛ وقد أقبل عليها يقول: «اسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان!»، بدل عثراء. هذه الأريحية؛ هي حلية محمد الباطنة في عيون الناس، وهي جواب محمد لما كان له في قلوبهم من حب وإعظام، وهي الآصرة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة الإنسانية؛ يحبونه ويحبهم، ويشعرون به ويشعر بهم، وليس الأمر مجرد أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب.

كان أحرص إنسان على جبر القلوب

وقد سرت هذه الأريحية؛ فامتزجت ارتجالًا بجميع علاقاته بالناس؛ ولا سيما الضعفاء والمكسورين. فكان أحرص إنسان على جبر القلوب وتطييب الخواطر؛ وتوخّي المواساة واجتناب الإساءة، يتفقد أصحابه كبارًا وصغارًا ويسأل عنهم، ويتحدث إلى البسطاء وعامة الناس، فلا يحسب صغيرُهم أن أحدًا أكرم عليه منه، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وإن طال. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ومن جالسه صبر فلا ينصرف عنه حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحدٌ بيده فتركها حتى يكون الآخذ هو الذي يتركها.

لا يردّ دعوة عبد ولا خادم ولا فقير

ومن أريحيته التي اتّبعها وأوصى باتّباعها؛ أن يجيب دعوة من دعاه، ولا يردّ دعوة عبد ولا خادم ولا فقير، وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمحافل: **«إذا اجتمَعَ الداعِيانِ فأجِبْ أقرَبَهما بابًا، فإنَّ أقرَبَهما بابًا أقرَبُهما جِوارًا، فإنْ سَبَقَ أَحَدُهما فأجِبِ الَّذي سَبَقَ»**. يبدأ من لَقِيه بالسلام، ويمرّ بالصبيان فيقرئهم سلامه. وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية. يتّقي الغضب ويعالجه إذا أحسه، فيُقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسد، فيجلس إذا كان قائمًا، ويضطجع إذا كان جالسًا، ويأبى الحركة التي تثير غضبه أو غضب من حوله.

يتحرّى النظافة ويأمر بها

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان. فلم يُر قط مادًّا رجليه بين أصحابه، وتعوّد كلما زار أحدًا ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء، وإذا أخذه العُطاس وضع يده أو ثوبه على فيه، وربما نهض بالليل فيستاك للتخلص من رائحة الفم بعد الاستيقاظ من النوم، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه: **«إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ، أَوِ المُؤْمِنُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِن وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بعَيْنَيْهِ مع المَاءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِن يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مع المَاءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مع المَاءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، حتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»**. صحيح مسلم.

ما عسى أن يقول قائل في هذا الرجل؟!

ثبت أن محمدًا ﷺ لم يستمتع بدنياه، ولم يشبع ثلاثة أيام تباعًا حتى مات، روى عبد الله بن مسعود قال: « نام رسولُ الله ﷺ على حَصِيرٍ، فقام وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ؛ فقُلْنَا: يا رسولَ الله، لو اتَّخَذْنا لك وِطَاءً، فقال: **ما لِي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكِبٍ استَظَلَّ تحتَ شجرةٍ، ثم راح وتَرَكَها»**. حسن صحيح. وقالت زوجته أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها: «فإذا جرّة فيها شيء من شعير... فطحنتُه... فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه». وعن عائشة قالت: «لقَدْ تُوُفِّيَ النبيّ ﷺ وما في رَفِّي مِن شيءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ في رَفٍّ لِي، فأكَلْتُ منه». صحيح البخاري. روى عمر بن الخطاب قال: « ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي في بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ ما رَأَيْتُ

فيه شيئًا يَرُدُّ البَصَرَ غيرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلتُ: ادْعُ اللهَّ فَلْيُوَسِّعْ علَى أُمَّتِكَ؛ فإنَّ فَارِسَ والرُّومَ وُسِّعَ عليهم، وأُعْطُوا الدُّنْيَا وهُمْ لا يَعْبُدُونَ اللهَّ، وكانَ مُتَّكِئًا فَقالَ: **أَوَفي شَكٍّ أَنْتَ يا ابْنَ الخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لهمْ طَيِّبَاتُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا**». صحيح البخاري. وعنه أيضا قال: «... فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قالَ: **ما يُبْكِيكَ يا ابْنَ الخَطَّابِ؟** قُلتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، وَما لي لا أَبْكِي وَهذا الحَصِيرُ قدْ أَثَّرَ في جَنْبِكَ، وَهذِه خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إِلَّا ما أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى في الثِّمَارِ وَالأنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهذِه خِزَانَتُكَ! فَقالَ: **يا ابْنَ الخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟**». صحيح مسلم. وقد مات ودرعه مرهونة عند يهوديّ، ولا ميراث لأهله مما ترك من مال أو عقار فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل؛ آمن به أو لم يؤمن؟

أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ: أي ثلاث جلود حيوانات غَيْرُ مَدْبوغة، وهذا كلُّه كِنايةٌ عن رَثاثةِ هَيْئةِ المكانِ الَّذي كان يسكنه النبيّ ﷺ.

هل كان محمد كارهًا لطيّبات الدنيا وشهواتها؟

محمدٌ ﷺ لم يكن كارهًا لطيبات الدنيا وشهواتها، ولا حاضًّا لأحد على كراهتها والإعراض عنها. فإذا قنع بما قَنع، فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه في ظنِّه هو، لا في ظنون غيره، فليكن الإيمان إذن هو كل عمل وكل جزاء، وتلك راحة الضمير.

كلمة موجزة

هذه كلمة موجزة عن محمد ﷺ في التاريخ، أو محمد في العالم وأحداثه؛ لأن العالم كله صفحات تتحدث بمكانة محمد فيه. محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة، وفقًا لكل مقياس صحيح يُقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة. فما مكان هذه العظمة في التاريخ؟ وما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

مكانة محمد في أحداث التاريخ

التاريخ كله بعد محمد ﷺ متصل به؛ وأن حادثًا واحدًا من أحداثه السابقة والحاضرة ثم اللاحقة لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله. فلا فتوح الشرق والغرب، ولا الحروب الصليبية، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والآسيويين والأفريقيين، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات، ولا حروب الاستعمار الحديث للبلاد العربية والإسلامية، ولا الحروب العالمية الأولى والثانية التي شهدناها؛ ولا الحرب التي تلتها عام ٤٨ بين البلاد العربية وإسرائيل، ثم حرب قناة السويس، ثم حروب فلسطين المتتالية بعدها، ثم حرب روسيا على أفغانستان، ثم حرب العراق، ثم الحرب على لبنان، ثم تلتها الحروب على العراق واحتلال بغداد، ثم الانقلابات السياسية في الأوطان العربية، تلتها الحروب الحاضرة والمذابح التي نشهدها هذه الأيام في فلسطين، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه؛ إلا لها ارتباط من قريب أو بعيد بالإسلام؛ وكل واحدة من هذه الأحداث عليها دليلها؛ كل واحدة من هذه الأحداث ما كانت وقعت لولا ذلك اليتيم الذي وُلد في شبه الجزيرة العربية؛ بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح.

فَتحَ الإسلامُ عالمًا مغلقًا تحيط به الظلمات

لقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان؛ شملت جميع أنحاء القارات التي كانت موجودة في العالم؛ لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالمًا مغلقًا كانت تحيط به الظلمات،

فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها كما دنا بها مرتبة في هذا الكون إلى أعلى سماء. هذه الحقيقة من أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان إما كثيرًا أو قليلًا في هذه الطريق.

كتّاب من الغرب شهدوا شهادة حقّ

النبيّ محمد ﷺ ودين الإسلام أثَّرا في تفكير أغلب كبار العقليات في المجتمعات الغربية؛ مما جعلهم يرفعون صوتهم ويجهرون بشهادتهم لهذا الرجل العظيم محمد، إما تصريحا أو تلميحا، وإما إشارة من خلال مدح حضارتنا الإسلامية عبر التاريخ، وهذا على مرأى ومسمع من العالم، رغم أنف المعاندين والمناكفين، فشهدوا شهادة حقّ وعدل وإن لم يسلموا، لأن الباحث الغربي المنصف لا يملك إلا أن يقف احتراما لشخصية هذا النبيّ.

الردّ على الناقدين الأوروبيين

كان من الأولى أن يكون الردُّ على هؤلاء الناقدين لرسالة النبيّ محمد ﷺ من كتابات أبناء جلدتهم من كتّابهم ومفكريهم، وهم عدد من المحايدين الذين أَبوا على أنفسهم أن يلووا أعناق النصوص ويقلبوا الحقائق الأدبية أو التاريخية التي عاشها الرسول الكريم، أو يختاروا منها ما يحقق غايتهم بأسلوب انتقائي حسب المصالح والأهواء، هؤلاء الكتاب والباحثون القلائل الذين التزموا ما يقتضيه البحث العلمي من الأمانة العلمية والأخلاقية في العرض، والأخذ والرد في حقائق التاريخ، وهذه بعض أقوالهم:

Thomas Carlyle - توماس كارليل

كاتب وفيلسوف إنجليزي، مدرّس وناقد ومؤرخ، عالم رياضيات وفيلسوف. حياته كانت ما بين ١٧٩٥-١٨٨١؛ فقد إيمانه بالمسيحية أثناء دراسته في جامعة إدنبرا، أعماله تبدو جذابة للعديد من المناهضين للتغيرات السياسية والعلمية في المجتمع الأوروبي؛ التي هددت نظام الحياة الاجتماعية فيه. قال في كتابه(الأبطال): "لقد أصبح من العار على أي فـرد متمدّن من أبناء هذا العصر، أن يُصغي إلى ما يدّعيه بعض الحمقى، من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً ليس بنبيّ؛ علينا أن نرفض ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة".

Carl Henrich Becker - كارل هينريش بيكر

هو مستشرق ألماني، علامة وأستاذ جامعي ومؤلف سياسي، عاش ما بين ١٨٧٦-١٩٣٣؛ وُلد في أمستردام، درس في جامعات لوزان، وهايدلبرغ وبرلين، وسافر إلى إسبانيا، واليونان، وتركيا قبل حصوله على شهادة الدكتوراه في عام ١٨٩٩. اشتُهِر بنظرته الفلسفية تجاهَ الأحداث المُتعلِّقة بالتاريخ الأمريكي وعلاقته بنظيره الأوروبي. قال في كتابه (الشرقيون): "لقد أخطأ من قال إن نبيّ العرب دجال أو ساحر، لأنه لم يفهم مبدأه السامي، إن محمداً جدير بالتقدير ومبدأه حريّ بالإتباع، وليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وأن محمداً خيرُ رجل جاء إلى العالم بدين الهداية والكمال".

Samuel Marinus Zwemer - صمويل مارينوس زويمر

هو مبشّر أمريكي، رحّالة وباحث؛ عاش ما بين ١٨٦٧-١٩٥٢، ولد في بلدة زيلاند تشارتر في ميشيغان، حصل على شهادة الماجستير من الجامعة اللاهوتية (نيو-

برونزويك) في ولاية (نيو جيرسي) ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٠٤، ودرجة الحقوق عام ١٩١٨. وبعد أن عُيّن في الكنيسة البروتستانتية، بدأ بالتبشير في العراق ومواقع أخرى في الجزيرة العربية. عمل أيضا في مصر، وسافر على نطاق واسع إلى دول آسيا يبشّر بالدين المسيحي، وانتُخب عضوا في الجمعية الملكية في لندن. انتهى تاريخه الطويل أخيرا بتأليف كتاب (الشرق وعاداته) هو عصارة ما وصل إليه من خلال تجاربه في الحياة، قال فيه: "إن محمداً كان من أعظم القادة في العالم، ويُصدّق عليه القول أيضاً بأنه كان مصلحاً قديراً، وبليغاً فصيحاً، وجريئاً مغواراً ومفكراً عظيماً، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي جاء به وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء".

جولد تسيهر - Goldziher

الدكتور إجناتس جولد تسيهر؛ عاش ما بين ١٨٥٠ - ١٩٢١، هو مستشرق يهودي مجري، وهو أبرز من قام بمحاولة واسعة وشاملة للطعن بالسيرة النبوية ونسفها عن الوجود متأثراً بيهوديته، تلقى تعليمه في جامعات برلين ولايدن وبودابست، ثم أصبح أستاذا في جامعة بودابست بدعم الحكومة المجرية. بدأ رحلة عبر سوريا وفلسطين ومصر، ولقاء مشايخ المسلمين في جامع الأزهر في القاهرة. أَلّف الكُتب وكَتَب المقالات بهدف الطعن في سُنّة الرسول قولا وعملا، تسلم وسام الذهبية الكبرى في مؤتمر المستشرقين في ستوكهولم، الباحثون في أوروبا والعالم اعتبروا كتبه المرجع الأساسي في دراساتهم للحديث والسنة النبوية، ثم تحرروا عنه فيما بعد، وناقشوه فيما قال، ورأوا في أحكامه على الرسول جورا وظلما. من أهمّ كتبه:

(العقيدة والشريعة في الإسلام) تُرجم إلى العربية، وقد علق الشيخ محمد الغزالي عليه بقوله: الحق أن هذا الكتاب من شرّ ما أُلّف عن الإسلام، لكن (جولد تسيهر) وقع في زلة لسان ونطق بالحقيقة في بعض صفحات كتابه قائلا: "الحق أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية".

سنكس - Sunax

مستشرق أميركي؛ عاش ما بين عامي ١٨٣١ - ١٨٨٣، من مؤلفاته كتاب: (ديانة العرب) قال فيه: ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة. لم يأتِ محمد لمكافحة التوراة والإنجيل، بل إنه يقول: "إنَّ هذين قد أُنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس إلى الحق، وإن تعاليم القرآن جاءت مصدِّقة لهما، ولكنه لم يأخذ منهما. وإن الفكرة الدينية الإسلامية أحدثت رقيًا كبيرًا جدًا فى العالم، وخلَّصت العقل الإنسانى من قيوده الثقيلة التى كانت تأسره حول الهياكل بين يدى الكهان؛ ولقد توصّل محمد بمحوه كل صورة فى المعابد؛ وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق، إلى تخليص الفكر الإنسانى من عقيدة التجسيد الغليظة".

كلود كاهن – Claude Cahen

الدكتور والأستاذ بكلية الآداب بجامعة ستراسبورغ بباريس؛ عاش ما بين ١٩٠٩- ١٩٩١، هو مستشرق ماركسي فرنسي متخصص في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، وبخاصة في فترة الحروب الصليبية. ولد في باريس لعائلة يهودية؛ ودرس

في معهد اللغات والحضارات الشرقية بباريس ليحصل على درجة الدكتوراة عام ١٩٤٠م. ثم في جامعة السوربون. دعي للتدريس في جامعة ميشيغان؛ كان كاهنا عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي؛ وبقي ناشطاً في الفكر الماركسي طوال حياته. من أشهر مؤلفاته: تاريخ العالم الإسلامي في القرون الوسطى بين القرنين الخامس والسابع عشر؛ قال في كتابه (تاريخ العرب والشعوب الإسلامية): "اصطبغت شخصية محمد بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أيّ مؤسس من مؤسسي الديانات الكبرى".

الدكتور مونتيت – Montet Edouard

إدوارد مونتيت، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف؛ من المستشرقين الكبار الذين يليق ذكرهم ويصحّ الاستشهاد بأقوالهم، لا يتحامل على الإسلام، ولا يقصد في مباحثه اختلاق أكاذيب وتأويلات بحقه كما يفعل غيره؛ وهو مشهور بين الأوروبيين من جميع الأجناس، فتجد مؤلفيهم يستشهدون بكلامه في المسائل الشرقية والإسلامية؛ ويقدّرون آراءه. قال في كتابه (محمد والقرآن): "إن طبيعة محمد الدينية، تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيراً، وبلغ سنّ الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين".

برنارد شو- George Bernard Shaw

جورج برنارد شو، كاتب ومؤلف إنجليزي إيرلندي شهير؛ عاش ما بين ١٨٥٦- ١٩٦٥؛ وُلِد في دبلن، وانتقل إلى لندن. كان أحد مفكري ومؤسسي الاشتراكية،

كانت تشغله نظرية التطور؛ وفكريا كان من اللادينيين؛ يُعد أحد أشهر الكتّاب المسرحيين في العالم، وهو الوحيد الذي حاز على جائزة نوبل في الأدب للعام ١٩٢٥م. قال في كتابه (محمد): "إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبيّ الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين هضم جميع الديانات، خالداً خلود الأبد، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوُفّق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يتطلع البشر إليها".

Sadio Lewis - ساديو لويس

مفكر وعلامة فرنسي، ولد في باريس؛ وعاش ما بين ١٨٠٨ - ١٨٧٥، له كتاب (تاريخ العرب) قال فيه: "لم يكن محمد نبيّ العرب بالرجل البشير للعرب فحسب، بل للعالم لو أنصفه الناس، لأنه لم يأت بدين خاص بالعرب، وأن تعاليمه الجديرة بالتقدير والإعجاب، تدل على أنه عظيم في دينه، عظيم في صفاته، عظيم في أخلاقه، وما أحوجنا إلى رجال للعالم أمثال محمد نبي المسلمين".

LeoTolstoy - ليو تولستوي

الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي؛ أديب عالمي؛ عاش ما بين ١٨٢٨-١٩١٠ من عمالقة الروائيين الروس، ومصلح اجتماعي، وداعية سلام ومفكر أخلاقي وعضو مؤثر في أسرة تولستوي. قال: "يكفي محمداً فخراً أنه خلّص أمّه ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقى والتقدم، وأن شريعة محمد، ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة".

Rama krishna - راما كريشانا راو

بروفيسور هندي؛ عاش ما بين ١٨٣٦-١٨٨٦؛ ولد في عائلة كهنوتية في البنغال؛ كان مشهورًا في القرن التاسع عشر. أدى مذهبه الفكري إلى تشكيل بعثة لإحياء الهندوسية؛ ويَعتقد العديد من أتباعه بأنه كان رمزًا أو تجسيدًا للآلهة؛ وأصبح فيما بعد كاهنًا مكرِّسًا نفسه لخدمة الإلهة (كالي). قال في كتابه (محمد النبيّ): "لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها، ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدّمه هو نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة، فهناك محمد النبيّ، ومحمد المحارب؛ ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامى العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً".

Shibrek - شبرك

دكتور نمساوي؛ قال: "إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ إنه رغم أميّته، استطاع أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصلنا إلى قمته.

Luzon - لوازون

يقول القسّ الفرنسي لوازون في محاضرة له عن الرسول محمد: " لقد بُعث محمد رسولاً إلى العرب، و عاشت بلاد العرب الأزمان الطويلة عاكفة على عبادة الأصنام، وتوغلت في ذلك حتى احتاجت إلى انقلاب ديني عظيم. ظهر محمد وكان حائزًا قوة إدراك عجيبة، وذكاء مفرط، وعواطف رقيقة شريفة. فمحمد ليس نبيّ العرب وحدهم، بل هو أفضل نبيّ قال بوحدانية الله تعالى".

Alphonse de Lamartine - لامارتين

الفونس دي لامارتين؛ كاتب ومؤرخ فرنسي؛ شاعر وسياسي؛ عاش ما بين ١٧٩٠-١٨٦٩؛ تولى رئاسة الحكومة بعد ثورة ١٨٤٨. قال: "هذا هو محمد الفيلسوف، الخطيب، النبيّ، المشرّع، المحارب، قاهر الأهواء، مؤسس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة صحيحة، هو المؤسس لعشرين إمبراطورية في الأرض، وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمد بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أودّ أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبيّ محمد؟ إذا أردنا أن نبحث عن إنسان عظيم تتحقق فيه جميع صفات العظمة الإنسانية؛ فلن نجد أمامنا سوى محمد الكامل".

Hans Küng – هانز كونج

دكتور وبروفيسور سويسري؛ مؤلف وعالم، قسّ كاثوليكي عالم بالأديان. عاش بين عامي ١٩٦٠-١٩٩٦؛ درس علم اللاهوت في جامعة (ايبرخارد كارلس) الألمانية. وهو من أشهر علماء اللاهوت المعروفين بانتقادهم للكنسية قديما وحديثا. خصوصا ما يتعلق بعصمة البابا، حيث نزع البابا يوحنا بولس الثاني الصلاحية الكاثوليكية منه، بعد عام من نشر كتابه: (هل يوجد إله؟) قال: "محمد نبيّ حقيقيّ بمعنى الكلمة، ولا يمكننا بعد، إنكار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة".

Bosworth Smith - بوسورث سميث

بيرتراند بوسورث سميث عاش ما بين ١٨٧٣-١٩٤٧؛ مستشرق إنجليزي، مدرّس ومؤرخ، ألقى في المعهد الملكي البريطاني في لندن أربع محاضرات من كتابه بعنوان: (محمد والمحمديين) قال: لقد كان محمد قائدا سياسيا وزعيما دينيا في آن

واحد. لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين؛ كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة. ولم يكن لديه جيوش مجيشة (تحرس عرشه) أو حَرَس خاص يحرس ملكه، أو قصر عظيم، أو عائد (مالي) ثابت. إذا كان لأحد أن يقول إنه حَكَمَ بالقدرة الإلهية فإنه محمد، لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها، ودون أن يسانده أهلُها".

سانت هيلر - Saint-Hilaire

هو فيلسوف وسياسي وصحفي ومستشرق فرنسي؛ عاش ما بين ١٨٠٥ - ١٨٩٥. أَلّف العديد من الكتب في أديان الشرق؛ حيث كتب عن دين بوذا الهندي، وعن محمّد والقرآن. قال في كتابه (تاريخ النبيّ محمد): " لقد كنتُ أشكّ في صدق رسالة النبيّ محمد، حتى قرأتُ أنه لما نزلت آية حفظ النبيّ من أعدائه، ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]. ووعْدُ الله له بأنه سيتولى حراسته، بادر محمد إلى صرف حرّاسه عنه، والمرءُ لا يكذب على نفسه ولا يخدعها، فلو كان لهذا الوحي مصدر غير الله، لأبقى محمدٌ على حرسه!" ثم قال: "كان محمد رئيسًا للدولة، وساهرًا على حياة الشعب وحريته، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب أحوال زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبيّ بين ظهرانيها، فكان النبيّ داعيًا إلى ديانة الإله الواحد؛ وكان في دعوته هذه لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه، وإنّ في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما: العدالة والرحمة".

Snertsin Asoji - سنرستن آسوجي

ينتمي إلى آسوج وهي السويد؛ إحدى الدول الإسكندنافية الواقعة في أوروبا الشمالية؛ ولد عام ١٨٦٦، أستاذ اللغات الساميّة، ومستشرق ساهم في دائرة المعارف البريطانية، جمع المخطوطات الشرقية، محرر مجلة (العالم الشرقي) له عدة مؤلفات أهمها كتاب: (تاريخ حياة محمد) قال: "إننا لم ننصف محمدً؛ إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا، فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصرّاً على مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ".

Annie Besant - آني بيزيت

امرأة بريطانيةٌ؛ ولدت عام ١٩٣٣؛ هي منادية بالاشتراكية؛ وتنتمي إلى الديانة الثيو-صوفية، وناشطة في مجال حقوق المرأة، وكاتبة، وخطيبة، وخبيرة تعليمية، وفاعلة في مجال العمل الاجتماعي. تُعتبر آني بطلة مدافعة عن الحرية الإنسانية، بالإضافة إلى أنها سياسية. كما كانت مؤلفة غزيرة الإنتاج، فهي تمتلك في رصيدها أكثر من (٣٠٠) كتاب. قالت: " من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبيّ العرب العظيم؛ ويعرف كيف عاش هذا النبيّ، وكيف علّم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبيّ، أحد رسل الله العظماء".

Michael H. Hart - مايكل هارت

مايكل أو ميشيل هارت، ولد عام ١٩٣٢؛ هو فيزيائي فلكي يهودي أمريكي، اشتغل في مركز أبحاث الفضاء وفي المركز القومي لأبحاث طبقات الجو، وكذلك في

مرصد (هيل) في كاليفورنيا. وهو الآن عضو الجمعية الفلكية وفروعها في علوم الكواكب. وأحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية؛ وصاحب كتاب(الخالدون المئة)، قال: "إن اختياري محمدًا، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يُدهش القرّاء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي".

نصري سلهب

قاضي ودبلوماسي وأديب، اشتُهر في الحوار الاسلامي المسيحي، ولد في لبنان عام ١٩٢١؛ درس القانون في جامعاتها؛ وتَوّج حياته المهنية كديبلوماسي في الفاتيكان بعد أن تسلم من قداسة البابا يوحنا بولس الثاني شارة الصليب الأكبر، وهو أعلى وسام في النظام الفاتيكاني. قال: "هنا عظمة محمد؛ لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة أن يُحدث شريعة خُلُقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة."

السير موير - William Muir

ويليام موير؛ مستشرق أسكتلندي؛ عاش ما بين ١٨١٩-١٩٠٥، قام بعمل دراسات حول حياة النبي محمد والخلافة الإسلامية المبكرة. وتولى إدارة جامعة إدنبرة. وفي أثناء عمله تعلم اللغة العربية وعني بالتاريخ الإسلامي. لكنه كان شديد التعصب للمسيحية، ولهذا اشترك بحماسة شديدة في أعمال التبشير بالمسيحية. ومع ذلك قال: "إن محمدًا نبيّ المسلمين، لُقّب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه وحسن سلوكه، ومهما يكن هناك من أمر؛ فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه

الوصف، ولا يعرفه مَنْ جَهِلَه، وخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم".

ادوارد لين – Edward William Lane

هو مستشرق إنجليزي، عاش ما بين ١٨٠١-١٨٧٦، أقام مدة طويلة بالقاهرة؛ اشتهر خصوصاً بمعجمه الكبير للغة العربية. أبوه كاهن هيرفورد؛ أظهر موهبة في الرياضيات، وعزم على الانطلاق نحو جامعة كامبريدج والكنيسة، قال في كتابه: (أخلاق وعادات المصريين): "إن محمداً كان يتصف بكثير من الخصال الحميدة، كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر، كيف لا؟ وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته بصبر وعناء عظيمين، ومع ذلك فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد من يصافحه حتى ولو كان يصافح طفلاً، وأنه لم يمرّ يوماً من الأيام بجماعة رجالاً كانوا أو أطفالاً دون أن يقرئهم السلام، وعلى شفتيه ابتسامة جميلة، وقد كان محمد غيوراً ومتحمساً، وكان لا يتنكر للحق، ويحارب الباطل، وكان رسولاً من السماء، وكان يريد أن يؤدّي رسالته على أكمل وجه، كما أنه لم ينس يوماً من الأيام الغرض الذي بُعث لأجله، ودائماً كان يعمل له ويتحمل في سبيله جميع أنواع البلايا، حتى انتهى إلى تحقيق ما يريد".

ماكس فان برشم – Max Avn Berchem

مستشرق ومؤرخ سويسري، ولد فى جنيف وعاش ما بين ١٨٦٣–١٩٢١؛ درس فى جامعة جنيف وجامعة (لايبتزج)؛ هو مؤلف كبير كتب مباحثه باللغة

الفرنسية.قال في مقدمة كتابه: (العرب في آسيا): "الحق أن محمداً هو فخر للإنسانية جمعاء، وهو الذي جاءها يحمل إليها الرحمة المطلقة، فكانت عنوان بعثته: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)".

مهاتما غاندي – Mahatma Gandhi

سياسي بارز وزعيم روحي للهند، عاش ما بين ١٨٦٩-١٩٤٨؛ كان رائداً في مقاومة الاستبداد من خلال العصيان المدني الشامل الذي تأسس بقوة مما أدى إلى استقلال الهند عن بريطانيا، وألهم الكثير من حركات الاستقلال في جميع أنحاء العالم. قضى عدة سنوات في السجن؛ تمّ تشريفه رسمياً في الهند باعتباره (أبو الأمة)؛ قال: "أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر. لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول محمد مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت في نفسي أسفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة".

القسّ ميشون – Michonne

قس ألماني في كتابه (سياحة دينية في الشرق) صفحة (٣١) قال: "إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التعامل وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم، كل ذلك بفضل تعاليم نبيهم محمد".

غوستاف لوبون - Gustave Le Bon

مستشرق فرنسي؛ وطبيب وفيلسوف ومؤرخ، عاش ما بين ١٨٤١ - ١٩٣١. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كان مهتم بالحضارة الشرقية. من أشهر كتبه (حضارة العرب) قال: "إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم؛ كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا؛ مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله".

لورا فيشيا فاغليري - Laura Veccia Vaglieri

مستشرقة إيطالية؛ عاشت ما بين ١٨٩٣ - ١٩٨٩. درست التاريخ الإسلامي؛ وكانت أستاذة اللغة العربية وآدابها في جامعة نابولي. أبرز أعمالها كتاب: (الدفاع عن الإسلام) باللغة الإيطالية، صدر بالترجمة العربية عن دار الملايين، تقول فيه: "كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية؛ شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرّع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور؛ لقد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري".

مارسيل بوازار- M. Poizar

مفكر وقانوني فرنسي، اهتم بالعلاقات الدولية وحقوق الإنسان، مستشرق وأستاذ جامعي، عاش ١٢ عاماً في بلاد عربية وإسلامية. ألف كتابه الشهير (إنسانية الإسلام) ليدافع فيه عن الإسلام باعتباره ديناً وحضارة، وسجل فيه العديد من الشهادات

المنصفة لنبيّ الإسلام، وردّ على الشبهات الغربية المثارة ضدّه. يقول في كتابه: "تسهم شخصية النبيّ محمد وأفعاله وتصرفاته وأقواله في صياغة الروح الإسلامية. لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشّرًا بدين وحسب؛ بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثّرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق".

واشنجتون إيرفنج – Washington Irving

مؤلف وكاتب مقالات أمريكي؛ وكاتب سير ومؤرخ ودبلوماسي، عاش ما بين ١٧٨٣ – ١٨٥٩، قال: "كانت تصرفات الرسول محمد في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبيّ مرسل؛ لا على أنه مجرد قائد منتصر؛ فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو".

تولستوي – Leo Tolstoy

الأديب الروسي الكونت (ليف نيكولايافيتش تولستوي) ولد عام ١٩١٠ وهو من عمالقة الروائيين الروس؛ قال: "شريعة محمد ستسود العالم؛ لانسجامها مع العقل والحكمة".

جين ميشون – Jean-Louis Michon

المستشرق الفرنسي (جين لويس ميشون) يقول: " إن الإسلام الذي أمر بالجهاد؛ قد تسامح مع أتباع الأديان الأخرى؛ وبفضل تعاليم محمد لم يمسّ عمر بن الخطاب المسيحيين بسوء حين فتح القدس".

Will Durant – ويل ديورانت

فيلسوف ومؤرخ أمريكي؛ مؤلف موسوعة قصة الحضارة؛ يقول: "إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس؛ قلنا إن محمدا هو أعظم عظماء التاريخ".

Youchido Kozan – يوشيودي كوزان

بروفيسور ومدير مرصد طوكيو؛ قال: "لا أجد صعوبة في قبول أن القرآن كلام الله، فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أنّ هذه الأوصاف قد أُوحيت إلى محمد من الله".

EvelineKobold – ليدي ايفيلين كوبولد

بريطانية أعلنت إسلامها أمام البابا، ذكرت في كتابها (البحث عن الله) ص ٦٧: مع أن محمداً ﷺ كان سيد الجزيرة العربية؛ فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفياً بأنه رسول الله، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضّل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحيان قليلاً لا يكاد يكفيه".

johan Goethe - غوتي

يوهان فون غوتي؛ كاتب كبير من أبرز الأدباء الألمان؛ وعبقرية موسوعية. ولد في فرانكفورت عام ١٧٤٩؛ قال: "درست تاريخ الأديان على مدى خمسين عاماً، وإن العقيدة التي يُربّى عليها المسلمون لتدعو لأعظم دهشة!! إذ تقوم على أساس الإيمان بأنه لن يصيب الإنسانَ إلا ما كتبه الله له... إن الإسلام هو الدين الذي سنقرّ به جميعاً عاجلاً أو آجلاً؛ وأنا لا أكره أن يُقال عنّي أني مسلم".

الخاتمة

شخصية الرسول محمد ﷺ هي أكبر من أن يحيط بها باحث؛ ولو تناولها باحثون من أصول شتّى وديانات مختلفة؛ قديما وحديثا ومستقبلا. كما أن صور المبالغة والإهالة بالتمجيد الصادرة عن اتجاهات دينية إسلامية لهذا الرسول العظيم؛ منها ما أثار الدنيا بالقداسة الروحية والتعظيم المفتعل، نتج عن ذلك نفور المجتمعات الأخرى عن هذا النبيّ، وهو من حذرنا أن نذكره كما ذكرت النصارى واليهود ملوكهم وأنبياءهم. ومنها النقد والإساءة الصادرة عن اتجاهات غير إسلامية؛ ملأت الدنيا بصخَبها وضجيجها؛ ألصقت بهذا النبيّ افتراءات وأكاذيب، كما ألصقت به تنظيمات مسلحة؛ قالت بأنها سبب سفك الدماء وتخريب الديار، وتهجير وتشريد الملايين في البلاد الإسلامية والعالم.

إن توظيف الدين الإسلامي وما ألصقوا به من أكاذيب وأحداث إجرامية دموية؛ كأدوات تعبث بها القوى العظمى كأمريكا وأوروبا لأغراض سياسية ماكرة؛ عملٌ جَلَب الكراهية والخراب والنفور لكل ما اتصل بالإسلام وأهله، وظهرت الانتهازية والإقصاء الممنهج للإسلام في كل نواحي الأرض، ونشر الأراجيف لإلحاق الأذى بالرسول العظيم تحت عناوين عديدة ؛ للوصول إلى نتائج كان أهمها تشويه صورة هذا النبيّ في نفوس أتباعه أمام الديانات الأخرى والمجتمعات، ثم الخجل منه والتخلي عن تعاليمه التي هي تعاليم الإسلام، وبالتالي تخلي المسلمين عن دينهم؛ هذا هو الهدف.

نعم هذا هو الهدف؛ لقد فشل الغرب باستخدام القوة العسكرية ضد المسلمين قديما وحديثا؛ فعادوا يخططون الآن من جديد بفكر جديد؛ عادوا لاتهام الرسول ﷺ والمسلمين بالإرهاب، وأن الدفاع عن الأوطان إرهاب، وأن الدفاع عن ثروات البلاد إرهاب...!! ثم استسلام الشعوب الإسلامية لهذه الدعاية الخطيرة؛ وبالتالي سيطرة هذه القوى الغربية على البلاد الإسلامية وشعوبها وثرواتها بلا حرب ولا قتال.

فهرس الموضوعات





حياته - الاجتماعيّة - والسّياسيّة - والعسكريّة

